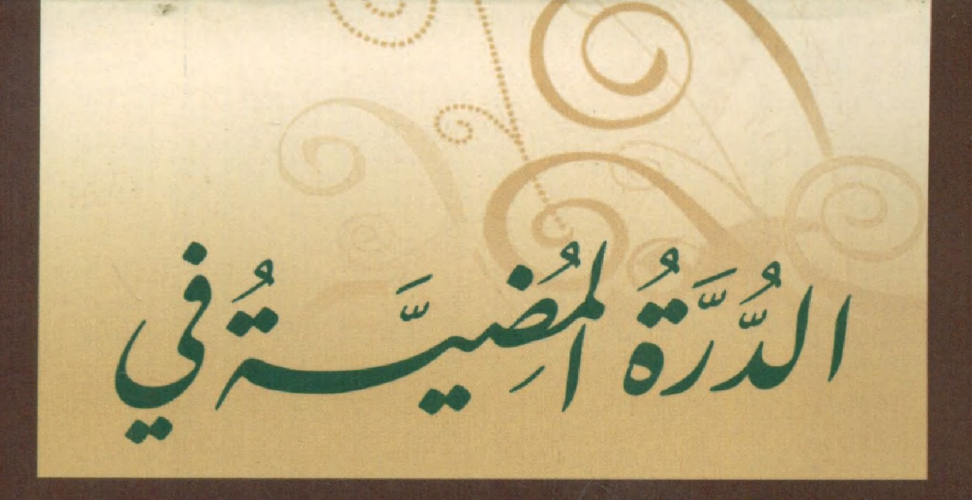


الدُّرَّةُ المُضِيَّةُ في

أخبار الدولة الظاهرية

تأليف

محمد بن محمد بن أحمد صصري

كان حياً سنة ٨٠١ هـ

تحقيق

عارف أحمد عبد الغني

دار سعد الدين
للطباعة والنشر والتوزيع

دار كنان
للطباعة والنشر والتوزيع

الدُرّةُ المُضيئةُ في
أخبارِ الدولةِ الظاهريّة

بسم الله الرحمن الرحيم

دار



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - شارع 29 أيار - عين الكرش
جادة كرجية حداد - ص.ب 3143
هاتف 2319694 11 963+
فاكس 2326380 11 963+
جوال 484915 944 963+
486016 944 963+
القاهرة 4444904 0122 2+
darsaadaldeen@hotmail.com
www.facebook.com/dar.saadaldeen

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

العنوان : الدرة المضية في أخبار الدولة الظاهرية
المؤلف : محمد بن محمد بن أحمد صصرى
المحقق : عارف أحمد عبد الغني
قياس الصفحة : 17 × 24
عدد الصفحات : 304

موافقة وزارة الاعلام
في الجمهورية العربية السورية
رقم 111407 - تاريخ 2 / 2014

رقم معياري دولي
(ISBN) 9789933473198

دار كنان
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - سورية

الدرة المضية في

أخبار الدولة الظاهرية

تأليف

محمد بن محمد بن أحمد صصري

كان حياً سنة ٨٠١ هـ

تحقيق

عارف أحمد عبد الغني






ألا بذكر الله تطمئن القلوب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أثناء عملي في كتاب معجم الشعراء، كان من بين الكتب التي اطلعت عليها كتاب **(الدرة المضية في أخبار الدولة الظاهرية) تأليف محمد بن محمد بن أحمد صَصْرَى**، الذي كان حياً سنة ٨٠١ هـ وهو في الأصل كتاب مخطوط قام المستشرق الأمريكي باركلي بتحقيقه سنة ١٩٦١م في جامعة كاليفورنيا.

وقد حصلت على مبتغاي من الكتاب في حينه، وكنت أعود له كل مَرَّة للاستفادة من معلوماته حيث أنه من المصادر الأصيلة لتاريخ دمشق في القرنين الثامن الهجري وبداية القرن التاسع الهجري.

ومعلوماتنا عن المؤلف نادرة جداً، لم تترجم له كتب التراجم، وحاول كل من المرحوم خير الدين الزركلي و د. صلاح المنجد أن يجدا له ترجمة دون جدوى، ولم يقفا له على ترجمة، وكذلك كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي حيث ذكر مخطوطته التي حققها المستشرق باركلي.

ولقد حاولت بكل ما استطعت البحث عن ترجمة للمذكور، ولكن بدون جدوى، وأعدت قراءة الكتاب قراءة متأنية، ووجدت أنه أكثره معلومات هامة، وأصيلة عن تاريخ مدينة دمشق وبلاد الشام، وَكَأَنَّ المذكور كان شاهد عيان على الأحداث التي رواها بتفاصيل يندر لأحد أن يلتقطها إلا أن يكون موهوباً.

ولقد حاولت الحصول على نسخة أصلية من المخطوط خلال مراسلتي لجامعة كاليفورنيا بغية إعادة تحقيقه، ولكن دون جدوى حيث تذهب طلبات الحصول على مخطوطات أدراج الرياح، وهي التي يعاني الباحثون الأمرين في سبيل الحصول على

صورة مخطوطة التي صارت وللأسف الشديد ملكاً لتلك المكتبات العامة، والتي هي في الأصل يجب أن تكون ملكاً لعموم الناس بعد وفاة مؤلفيها.

وإذا كان من عتب فكل العتب على منظمة اليونسكو التي تعتني بالثقافة أن تقوم بتصوير هذه المخطوطات وتتيحها للباحثين، ويكون لها موقع على الانترنت يسهل على الباحث الحصول عليها بيسر وسهولة.

ولقد سألت العديد من الباحثين عن هذا الكتاب، والكل ينكر معرفته به، أو الاطلاع عليه، وبما أن نُسخهُ عزيزة ونادرة، أحببت إعادة نشره وتلك كانت قصتي مع الكتاب المذكور.

ومن خلال قراءتي للكتاب المذكور، وجدت أن المستشرق باركلي قد حقق الكتاب تحقيقاً علمياً، وبذل فيه جهداً رائعاً، إلا من بعض الهنات التي سادت الكتاب حيث جعل نصه الأصلي كما أراده المؤلف بلغة العصر العامية في كثير من مواضع الكتاب، وذيله بالفهارس الغنية التي تخدم الكتاب.

مؤلف الكتاب: محمد بن محمد بن أحمد صصري، كان حياً سنة ٨٠١ هـ.

أهمية الكتاب: اهتم المؤلف بالتفاصيل اليومية المعاشية من حيث أسعار المواد الأساسية كالخبز، واللحم وحدد أسعارها هاتين السلعتين بشكل متواصل، ويدعو إثر ذلك بأن يزيل الله الغلاء، كما اهتم بالقحط وجودة المواسم الزراعية ونزول الأمطار، وتوفر المواد الغذائية.

وضمن الكتاب أخبار الاستقساء وطريقة الاستسقاء بشكل مثير للإعجاب، واهتم أيضاً بمحمل الحج، ويقدم له وصفاً كل سنة، ويقدم تفصيلات حول حالات الإعدام، والتسمير، والتوسيط، والتجريس للمجرمين، ووصف كامل لقلعة دمشق وصمودها أمام الغزاة، ويعطي تفاصيل حول الأسلحة المستخدمة للدفاع، والهجوم، يعطي وصفاً لاستخدام مدافع الحجارة، والبارود، بالإضافة إلى بعض الحكايات التي تؤيد

مقولته كبرهان مؤيد لعرضه حول أي قضية من القضايا، والأخبار التاريخية التي اقتبسها من كتب التاريخ، والأدب، ويحيل القارئ إلى كتابه (درر الأفكار).

ويقدم وصفاً لحريق الجامع الأموي وبناء بعض المساجد، والجوامع كجامع تنكز، ويلبغا، وينطبق هذا كله حول مدن حمص وحماة وحلب وغيرها من مدن بلاد الشام، والعراق وفلسطين ومصر.

ويعقد فصلاً لنواب المماليك على دمشق حيث فصل أمر هؤلاء بشيء من الإيجاز، والتركيز، وأعتقد أن العديد من الأسماء الذين ولوا دمشق انفرد بها مؤلف هذا الكتاب، وعقد فصلاً عن تيمورلنك وغزوه العراق وبلاد الشام، ومقابلة ابن تيمية له.

ووصف معارك السلاطين للاستيلاء على السلطة، وكان تركيزه على الظاهر برقوق الذي هو مدار كتابه حيث شرح أمره في بلاد الشام ودمشق واستيلائه على حكم مصر بعد معركة شقحب.

وتضمن الكتاب بعضاً من إقطاعات المماليك في بلاد الشام ومصر وبعض القرى، والأراضي التي أُقطعت لهم.

وقد تضمن الكتاب الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي تدعم أقواله وتؤيدها، بالإضافة إلى تضمينه الكتاب العديد من القصائد، والأبيات لشعراء مشهورين وآخرين مغمورين.

عملي بالكتاب:

أما خطتي لإعادة نشر الكتاب فكانت حسب النقاط التالية:

١- قمت بتخريج الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية من مظانها.

٢- تخريج الأبيات الشعرية من دواوين أصحابها التي تمكنت منها وضبط الأشعار ضبطاً كاملاً وشرح بعض الكلمات الصعبة.

٣- شرح الكلمات، والمصطلحات التي وردت في ثنايا الكتاب خاصة إذا كانت غريبة عن القارئ، كأسماء بعض الأماكن.

٤- قمت بفهرسة الكتاب فهرسة شاملة، ضمت الأعلام، والأماكن، والمصطلحات، والألفاظ الحضارية، والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأشعار.

راجياً أن يكون هذا العمل في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رَبِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد بن عبد الله رسوله الأمين، اللهم آمين.

دمشق الشام

١٤ جمادى الثانية ١٤٣٤ — عارف أحمد عبد الغني

٢٤نيسان ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو حسبي

الحمدُ لله مُبدي كلّ شيءٍ، ووارِثُه، ومُنشِي كلّ حيٍّ وبَاعِثُه، الذي أحاطَ بكل شيءٍ عِلمه، ونفذَ فيه قضاؤُه وحكمه، لا مردَّ لحكمه، وهو الفعَّالُ لما يريد، وصلى الله على خِيرَته من خَلْقِه، محمد سَيّد وَلَدِ آدمَ، وعلى آله، وأصحابِهِ وعِتْرَتِهِ الطَّيبينَ الطَّاهِرِينَ وسَلَّمَ تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ: فقد اختصرتُ سيرةَ مولانا السلطان الملكِ الظَّاهرِ أبي سعيد بَرقُوق، نَصَرَهُ الله تعالى على أعدائه، فجمعتُ أحسنَ ما فيها من الكلام، والبلغة في الاختصار، والسلام، وقد سَمَّيتُها «**الدرَّة المضيئة في الدولة الظاهرية**»، وقد رصَّعتُها بألفاظ غرائب، وأودعتها نوادر، وأشعار وعجائب، لكي يتعجبَ فيها مَنْ تَأَمَّلَهَا ونظرَ فيها، وينْسَرَّ مُسْتَمِعُهَا من حُسْنِ معانيها، فهي أحسن سير الملوك، إذ هي غاية اختصار الملوك.

وقد ذكرنا سيرة الملك المنصور في أول هذه السيرة لسببٍ؛ فإنَّ السلطان الملك (....)[1]

سَقَّعَ [٢أ] الحُمُّصُ[2]، ويبست شجره، وكذلك الفواكه تلفت في المخازن من شدة البرد.

وفي ذلك اليوم دخل قاضي القضاة ابن جماعة إلى دمشق، وأقام حرمة الشرع الشريف، وفي هذه السنة احترقت سوق القباقبيّين، وكان حريق وحش.

---

(١) ما بين حاصرتين بياض.

(٢) العبارة قلقة، ولا أعرف ما المقصود بالحمص هل هو ذلك النبات المعروف المشهور ولماذا هو يصقع من البرد دون غيره من النبات وهو ليس بشجر.

هذا جميعه وبيدمر نائب بدمشق، والناس في خَير إلى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، حصل شيء في قلب السلطان من الجوباني؛ فإنَّه كان بمصر، وكان أكثر أمراء مصر تركب معه، وهو مسمًّى بالشجاعة، فعمل عليه ومسكه، وأرسله إلى الكرك. هذا وبيدمر يرسل الأموال إلى مصر، فقصَّر عن ما كان يرسل من الأموال، وكثرت الأقاويل أن بيدمر نائب الشام يريد يُسَلطِن ولده محمد شاه، فلمَّا سمع السلطان هذا الكلام، أرسل إليه مَنْ مسكه وحبسه في القلعة، وولده محمد شاه معه وجماعته كلهم. وحضر محمود شاد الدواوين[1] بمصر، وأخذ كل موجودهم.

وقد ذكر لي بعض كبار الناس قال: عدت بيدمر وهو محبوس في القلعة فقلت له، إيش حال مولانا ؟ فقال لي: إيش حال من نصف عمره في الحبوس وباقي [٢ب] عمره في مظالم العباد ؟ «فلا حول، ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم».

اللهمَّ لا تجعل الدنيا أكبرَ همِّنا واغفر لنا، وله يا أرحم الراحمين ! قتلته الدنيا بحبِّها، وما علم أنها كما قال فيها الشاعر: [الرمل]

إنــــمَّا الــــدنيا كَبَيْــــتٍ نَسَـــجَتْهُ العَنكَبُـــوتْ
لــــيسَ للطالــــبِ فيهــــا كُــــلَّ يَــــوْمٍ غَــــيْرَ قُــــوتْ

وظنَّ أن الأمارة تدوم له وغرَّته الدنيا الغرَّارة، لكنَّ الرياسة مطلوبة، والدنيا محبوبة، وقد قال المتنبي شعراً: [المتقارب]

تَفَــانى الرِّجَــالُ عَــلى حُبِّهَــا وَمَــا يحصُــلُونَ عَــلى طَائِــلِ

ثم تولَّى بعده نيابة الشام ألطنبغا الجوباني، ودخل إلى دمشق في شهر صفر سنة تسع وثمانين وسبعمائة، وكان لدخوله يوماً مشهوداً، ودخل إلى دار السعادة وحكم بها، وكان رجل جيِّداً وحاشيته أجواد، والناس في أيَّامه في رخصٍ وطيبة، وكل وقت يتفقَّدُ

---

(١) شاد الدواوين: المسؤول عن الدواوين، زكانت مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها، مصطلحات صبح الأعشى ص١٩١.

مصالحَ الناس، وأشغالهم، والناسُ تدعو له رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة تواترت أخبار تمرلنك، لعنه الله، وأنّه [٣أ] أخذ توريز(١)، وجفلت قلوب الناس منه، وأن معه خلق كثير، وأنّه قاصد بلاد الشام، والناس مذعورين(٢)، فإن جرى على دمشق، وأهلها أمور لمّا دخلها عسكر هلاكون، قبحه الله سنة ثمان وخمسين وستمائة، وجرى عليهم مرّة ثانية أصعب من نوبة هلاكون وقاست أهل دمشق من المغل شدائد كثيرة، لمّا دخل إليها عسكر قازان في سنة تسعٍ وتسعين وستمائة. فلمّا سمعت الناس بتمرلنك، وأنّه أخرب توريز، وأنّه قاصد الشام خافوا كثيراً، فإنَّ الفتن ما تظهر إلاّ من الشرق، وقد أجاد المعمار المصري حيث يقول شعراً: [السريع]

بِي مِنْ بَنِي الشَّرْق فَتَىً وَجهُهُ ... يُشْرِقُ مِثْلَ البَدرِ بَلْ أحسَنَا

وَقَدُّهُ تَهْتَزُّ مِنْ لِيْنِهِ ... مِثْل اهتِزاز الغُصن بَلْ أَلْيَنَا

سَأَلْتُهُ حينَ بَدَا فَاتِناً ... عن أرضِهِ أَطْرَقَ لكنْ رَنَا

يُرمي إلى الشرق بألحاظِهِ ... فَقُلتُ، والفِتنَةُ مِنْ هَاهُنَا

وعن نافع؛ عن ابن عمر، رضي الله عنهما أن رسول الله (ﷺ) قال: **«اللهم بارك لنا في شامنا، ويمننا»**(٣).

قال رجل: (ومشرقنا يا رسول الله ؟) فقال: **«من هناك يطلع قرن الشيطان، وبها تسعة أعشار السحر، وكل بدعة ومنحسة غالبها من بلاد الشرق»**(٤).

---

(١) لعلها تبريز.

(٢) في الأصل: معذورين.

(٣) ورد الحديث في معظم كتب الحديث المعتمدة: صحيح البخاري ٢/ ٤١، ٩/ ٦٧، سنن الترمذي ٣٩٥٣، مسند أحمد بن حنبل ٢، ٩٠، ١١٨، مشكاة المصابيح للتبريزي ٦٢٦٤، كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢١٧، الدر المنثور للسيوطي ٣/ ١١٣، مجمع الزوائد للهيثمي ٣/ ٣٠٥، أخلاق النبوة ٢٣٥، تفسير ابن كثير ٣/ ١١٣، المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٣٨٤.

(٤) لم يرد الحديث بهذه الصيغة بل ورد بصيغ مختلفة.

وفي هذه السنة جاء الجراد إلى دمشق، وأتلف شيء كثير للناس.

وفي هذه السنة وقع فناء في القاهرة حتى وصل إلى عشرين ألف كل يوم، وأكثر، وهذا اختصار على ما سمعت. وقيل إنه جاء على زمان الملك الناصر فناء بمصر وصل كلَّ يوم إلى اثني عشر ألف، فلمَّا رأى السلطان ذلك حمل هم كثير وخاف على المسلمين. فقيل له: (لا تحمل همّ، فإن في مصر اثنا عشر ألف حكر، لو خرج من كل حكر[1] واحد ما هو كثير).

وقيل إنه جاء في بغداد في بعض السنين فناء اسمه الجرَّاف في كتب التواريخ، مات في ثلاثة أيام ثلاثمائة ألف روح، والأمر كله إلى الله تعالى وهو الفعَّال لما يريد.

وفي هذه السنة بقوا التركمان يشعثوا في بلاد الشمال، ويؤذوا الناس كثيراً.

سنة ٧٩١ هـ/١٢٨٩ م... قَوْمَة على برقوق

وكان نائب حلب الناصري قد أرسل إلى منطاش (أنَّك [٤أ] تقومُ وتجيء، إلى عندنا ولك منا ما تُريد). فلما وصل كتاب الناصري إلى منطاش فَرِحَ، وركب في الحال وجاء إلى حلب، ودخل على الناصري. فلما رآه قام له واعتنقه وخلع عليه، وتحالفوا على الموت، والحياة، أنهم يكونوا يداً واحدة.، وأنعم الناصري على منطاش بموجود سودون كلّه، وأنه ينزل في بيته على خبزه، فقويت شوكة منطاش، وركبت الناس في خدمته إلى بيت سودون، وكان صاحب حرمة وافرة، ونزل نائب قلعة حلب إلى الناصري في الباطن، وحلف له أنه معه خوف على أولاده.

وشاعت الأخبار في سائر الأقطار بما جرى، ثم إنَّ الناصري طلب منطاش، وأمره أن يروح هو وتلكتمر المنجكي، وشكر أحمد البيدمري، وتقطاي الطواشي، ومن معهم من العساكر إلى حماة يأخذوها، فنزلوا في الحال وقصدوا حماة فلمَّا سمع نائب حماة ـ وهو

---

(١) الحكر كلمة عامية تعني الأرض المحيطة بالمنزل، أو ما يسمى بأطراف القرى من الأرض غير الزراعية..

سودون العثماني - إنَّهم قاصدين حماة، درَّب[1] حماة، وكسر الجسر، وغافل أهل حماة، وهرب إلى دمشق هو وجماعته في ناس قلائل. ودخل [٤ب] إلى دمشق يوم الجمعة وقت الصلاة على غفلة وهو ملبّس[2] فلمَّا أبصرته العوام ظنُّوا أنه من عند الناصري فهربوا الناس قدَّامه، وجفلت أهل دمشق، ثم تبيَّنَ أنه نائب حماة قد جاء في خير إلى نائب الشام، فعند ذلك سكنت قلوب الناس.

وأمَّا منطاش ومن معه فإنَّهم دخلوا إلى حماة وملكوها، وحكم بها منطاش، وأحسن إلى أهلها، وحيَّوه، وهي ستُّ المدن بعد دمشق، كما قال فيها ناصر الدين ابن الملك الزاهر حيث يقول: [السريع]

وَرَوْضَةٍ تَزْهُو بِعَاصِي حَمَاهْ ... يَنْسَى بها المُضْنَى المُعَنَّى حِمَاهْ

هَوِيتُهَا مِنْ حُسْنِهَا فَاعْجَبُوا ... مُزَوَّجاً قَدْ عَادَ يَهْوَى حَمَاهْ

ولما سمعوا عسكر الشام أنَّ منطاش أخذ حماة، خافوا ونقلوا متاعهم إلى داخل المدينة فلمَّا رأوا ذلك التجَّار وغيرهم انقطعت قلوبهم، حتَّى أهل الضياع، والمرجيين[3]، فإنَّهم انتقلوا إلى داخل المدينة وانحشرت الناس على بعضهم بعض، حتى بقي كل بيت بنحو الخمسين.

ثمَّ بعد أيام تواترت [٥أ] الأخبار أنَّ بزلار قد أخذ طرابلس وقتل نائبها، وجلس مكانه وطاعوه أهلها، وأخذ موجود النائب كلّه، واستخدم رجال، فإنَّه كان متفق مع الناصري في الباطن، فلمَّا سمع السلطان بذلك شقَّ ذلك عليه كثير، ثم بعد أيام حضر من القاهرة خاصّكي إلى دمشق، وعلى يده مرسوم: إن إينال يكون نائب حلب، وأن يكون ابنه على خبره[4]. فلمَّا سمع إينال ذلك ضحك.

---

(١) درب: أغلق اللسان (درب).

(٢) ملبس: أي يلبس السلاح الكامل من مغفر ودرع...

(٣) المرجيين: لعلها أصحاب المروج يعني الفلاحين.

(٤) في الأصل: على خبزه، لا معنى لها.

وقال: (اثبتوا، لكم حلب حتَّى أروح إليها). ويقي الخاصّكي عنده أيام، وما عاد ركب فخاف طرنطاي منه كيلا يكون مع الناصري، وبقي يركب إينال في منزلة نائب حلب، ومعه خلق كثيرة، وهو أتابك عسكر دمشق قبل هذا، فقويت شوكته.، وأمَّا طرنطاي فإنه اختفى في دار السعادة، وقد أكلته نيابة دمشق وحار في عقله.

وفي يوم الثلاثاء ثامن شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، حضر العشير[1] من وادي التيم، ووادي بردى، وطلع طرنطاي فوقف على باب النصر، وأعرضهم قدَّامه وهم مثل الجنّ، وفي أيديهم السيوف مسلولة، والناس [٥ب] تتفرج عليهم.

وأما إينال ما هان عليه هذا الأمر، فطلب في الحال مشاعليّة[2] وقال لهم: (نادوا في المدينة على العشير أنَّهم يسافروا إلى بلادهم، ومن تأخر وسّطناه بلا معاودة)، فخافوا الفلاَّحين من إينال فإنَّه كان يقول، ويفعل، وراحوا إلى بلادهم. وشرع كلما يعمل طرنطاي شيء ينقضه عليه إينال. فعرّف طرنطاي السلطان بذلك لأنه ناصح له.

ثم بعد أيام حضر مرسوم السلطان إلى نائب الشام طرنطاي، (أنك تُحْضِر الأمراء إلى عندك وتحلّفهم أنَّهم يكونوا معي على الموت، والحياة). فدارت النقباء على بيوت الأمراء، وأعلموهم (أنكم تحضروا إلى دار السعادة يوم الخميس).

فلمَّا كان يوم الخميس نزلت الأمراء إلى دار السعادة إلا إياس، وإينال فإنَّهم لم يحضروا، ثم حضر إياس، وإينال لم يحضر؛ فراحوا إليه القضاة بسبب ذلك فقال: (أنا إلى دار السعادة ما أروح، فإن رسمتم حلفت لكم هنا). [٦أ] فحلَّفوه في بيته أنه يكون مع السلطان. هذا جرى في الشام.

---

(١) العشير: جماعة العشائر والبدو الفلاحين سكان الأرياف، الجند المرتزقة، وبدو جبل الدروز، والفلاحين الذين يرغبون في النهب، انظر النجوم الزاهرة ١٢/ ٢٠١، ١٣/ ١٤٣، ١٤/ ٣٣، النظم الإقطاعية ص ٤٩٩، د. إبراهيم طرخان.

(٢) المشاعلية: لعلها فرقة عسكرية خاصة بالأمن ولعلهم حراس المدينة في الليل الذين يحملون المشاعل.

وأمَّا منطاش فإنَّه قصد حمص بمن معه حتَّى يأخذوها، وكان نازل عليها ابن يهمر التركماني من جهة السلطان فركبوا التركمان، ووقع الحرب بينهم، فكسرهم منطاش ومن معه، وأخذ موجودهم كلَّه، وولَّوا هاربين إلى دمشق، ودخل منطاش إلى حمص وملكها، ووصل ابن يهمر التركماني وجماعته إلى دمشق، وخبَّروا النائب بما جرى عليهم من منطاش، وأن معه خلق كثيرة، فانقطع قلبه أكثر واستقامت الأمور لمنطاش وهو كلّ يوم في إقدام إلى قُدَّام، وهمته عالية، وسعده عمَّال، وهو كما قال فيه الشاعر شعر مفرد: [الكامل]

وإذا السَّعَادَةُ لاحَظَتْكَ عُيُونُهَا نَمْ فَالْمُخَايِفُ، كُلُّهُنَّ أَمَانُ

فأخبر نائب الشام السلطان بما جرى، وأن العساكر قد [٦ب] وصلوا، وأخذوا حمص، وما بقي إلاَّ دمشق؛ فخاف السلطان وطلب إيتمش، ويونس الدوادار، وقال لهم: (الذي جرى كلُّه أنتم عملتوه). فقالوا له: (كيف يا مولانا السلطان ؟) قال لهم: (أنتم ضمنتم الناصري، وقلتم: ما يحدث منه حادث، حتى أطلقته، وقد جرى منه ما جرى، فأنا ما أعرف حضوره إلاَّ منكم). فباسوا الأرض وقالوا: (السمع، والطاعة).

وفي الحال عيَّن السلطان إيتمش، ويونس، وجركس الخليلي، وابن يلبغا، وإيدكار، وأضاف إليهم تقادمهم من الأمراء مثل بكلمش، وأقبغا الصغير، وابن بكتمر الساقي، وغيرهم من الأمراء العشراوات، وطلب في الحال مماليكه وعيَّن منهم خمسمائة مملوك نقاوتهم(١)، وأعطاهم الذهب، والخيل، والقماش، والسلاح الكامل، وأضافهم إلى جركس الخليلي، فإنه كان وكيله وعزيز عنده.

وأمرهم بالخروج في الحال، وخروج إلى خانقاة مصر، وأقاموا هناك أربعة أيام، واتفقوا الأمراء كلهم أنهم ما يروحوا إلى الشام إلاَّ [٧أ]، والسلطان قدَّامهم، وبلغ ذلك السلطان، فصعب عليه وقال: (أنا ما أروح إلى الشام). ودخلوا القضاة، والكبار بينهم

---

(١) نقاوتهم: أي اختيارهم.

فقالوا القضاة: (يخرج معهم سلطان الحرافيش[1] أمير على تنفيذ يمينهم). فخرج سلطان الحرافيش معهم.

وتواترت الأخبار بدمشق أن عساكر المصريين قد خرجوا من مصر، وأبقوا عساكر الشام في انتظارهم، وقربوا إلى الشام وعملوا لهم الحلاوات، ونزل عسكر مصر على غزَّة وفيها نائب الصفوي، فأحسن إليهم جهده وطاقته، ثم إنَّهم مسكوه ولم يكن له ذنب غير أنَّه تركيّ، فجفلت قلوب عسكر دمشق الذين هم ترك، وذلك من نحس تدبيرهم، لكن الله تعالى أراد تنفيذ قضائه وقدره.

فعند ذلك هرب من عسكر دمشق مقبل الرومي، ومعه جماعة إلى عند منطاش، وجماعة الجوباني وهم نحو خمسين مملوكاً، ولم يقدر أحد يتبعهم وبقي كلَّ ليلة يخرج جماعة من الترك إلى الناصري، فبقي [٧ب] الناصري كلَّ يوم في زيادة وعسكر مصر في نقص، والناس خائفين.

ثم بعد أيام وصل خبر إلى نائب الشام أنَّ نائب بعلبك قفز إلى عند منطاش، وأخذ شيء كثير من بعلبك، فصعب عليه ذلك وتولَّى نيابة بعلبك ابن الحنش شيخ العشير.

وبقيت الناس في ضيقة إلى يوم الاثنين، ثامن شهر ربيع الآخر، سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، فعند ذلك أقبلت عساكر المصريين ونزلوا على قبَّة يلبغا، وبقي كل يوم يدخل مقدَّم وهم ملبّسين، والناس يخرجوا يتفرَّجوا عليهم، وفي اليوم الرابع دخل جركس الخليل ومعه مماليك السلطان الخمسمائة مُلبّسين، ما يبان منهم سوى الحدق كأنهم أسودة رجال ملاح ولبس مليح، كما قال فيهم الشاعر: [البسيط]

وَفِتْيَةٍ مِنْ كُماةِ الحَرْبِ مَا تَرَكُوا ... لِلْبَرْقِ لَمَعاً، ولا للرَّعْدِ تَصْوِيتا
قَوماً [٨أ] إذا قُوبِلُوا كَانُوا مَلائِكَةً ... حُسناً، وإن قَاتَلُوا كَانُوا عَفَارِيتا

أو كما قال فيهم بعضُ المَوَّالة:

---

(١) الحرافيش: مصطلح مملوكي أو أقدم من ذلك يعني به العيارين.

نُحنـا الـذي في القِـدَم نُخْبَـا لهِـدْم العُمُـرْ

بـالبِيض نَـنْقُطُ ونَشْـكُلُ بالرِّشَـاق السُّـمُرْ[1]

وبِيضُـنَا عِنـدما تَرْكَـع فتَرْفَـع حُمُـرْ

يَسْـجُدْ لهَـا الهَـام فـوق العَادِيَـات الضُّـمُرْ

حتى قالت الناس لَّما رأوا هذا العسكر الذي جاء من مصر: (ما يقف أحد قدَّامهم، وما رأينا رجال ولبس وخيل أحسن منهم)، والأمر كله إلى الله تعالى وهو الفعال لما يريد.

ونزلت العساكر في دمشق وتفرَّقوا فيها ونزلوا في الميادين وملوا السهل، والوعر، وفرح بهم نائب الشام وقوي قلبه، ورتب لمماليك السلطان جميع ما يحتاجوا إليه؛ من لحم وخبز وشعير، وغير ذلك، ففسدوا مماليك السلطان في دمشق وبقوا في خمور، وأخذوا أولاد [٨ب] الناس وحريمهم، وأموالهم، ولا يقدر أحد يكلِّمهم إلاَّ قتلوه، وأضمروا لأهل دمشق كلَّ نحس إذا كسروا الناصري، فلقاهم الله تعالى بنحس نياتهم، وجرى عليهم ما جرى.

وأمَّا الناصري؛ فإنَّه جاؤوا إليه الكشَّافة[2] وخبَّروه بدخول عساكر المصريين إلى دمشق، ففرح الناصري بذلك فرحاً شديداً وقال: (الحمد لله تعالى الذي جَاؤوا أعيان عساكر المصريين)، ثم إنه أمر بخروج العساكر من حلب، وقصدوا الشام، وأرسل إلى منطاش يعرف أنَّه واصل إليه، واجتمعت عساكر بلاد الشمال على حمص. فعند ذلك حضر إليهم بزلار من طرابلس، وأمر الناصري منطاش أن يكون شاليش[3].

وأمَّا عساكر دمشق؛ فإنهم جمعوا نواب القضاة وكبار العلماء، وأرسلوهم إلى

(١) الكشافة: رجال الاستطلاع والمخابرات.

(٢) الكشافة: رجال الاستطلاع.

(٣) الشاليش: كلمة مملوكية تعني الرئيس الفرعي للأقاليم.

الناصري يدخلوا بينهم في الصلح. فلمَّا وصلوا إلى عند الناصري أحضرهم إلى عنده وقال لهم: (فيما جيتم ؟) قالوا: (جينا في الصلح وتطيع لهذا السلطان فإنَّه حاكم، وإمام، قال الله تعالى: [٩أ] ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩]؛ فطاعته واجبةٌ على كُلِّ مسلم، ولا ينبغي مخالفته، وقتال المسلمين، وإراقة دمائهم ليس برأي، والصواب في ذلك إخماد الفتنة بإطاعة الإمام).

فلما سمع الناصري كلامهم قال لهم: (يا علماء الزمان، ليس في قولكم شك، ولا ريب. ما تقولون فيمن يريد قتل نفس مؤمنة بغير حق ؟ ماذا يجب عليه ؟) فأطرقوا في الأرض فقال: (ما تقولوا ؟) قالوا: (إذا كان قصده هذا يقتل شرعاً). فقال لهم: (اكتبوا خطوطكم !) فكتبوا خطوطهم.

فلمَّا كتبوا أخرج لهم خطوط القضاة، والعلماء المقيمين بحلب وحماة وقال لهم: (إيش عمل الجوباني من الشر حتى يسمع فيه كلام طرنطاي ومسكه يريد قتله ؟، وأنا راحت عيني، وأشرفتُ على الموت مرار في خدمته، وَمَسكَني وحبسني مرَّتين، وأخذ جميع موجودي، وأراد قتلي ما قدّره الله تعالى، وخلصني الله تعالى منه، وبعد ذلك وَقَبْلَهُ الله تعالى أقامني لنصرة ابن [٩ب] عم نبيه (ﷺ) أمير المؤمنين العباسي، الذي هو خليفة المسلمين، وله مدّة في الحبس، وإن كان معي الحق الله ينصرني، وقد قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢].

فلما سمعوا منه هذا الكلام ما قدر أحد منهم يتكلَّم، ثم إنه خلاهم في حمص، وركب هو وعساكره قاصدين دمشق.

وأمَّا دمشق فقد نودي فيها أَنَّ كل تاجر يخرج عنه مقاتل على فرس كامل العدَّة، فصعب ذلك على أهل دمشق، ثم إن إيتمش قال لهم: (هذا ما جرت به عادة)، فسكتوا عنهم.

وقعة خان لاجين

وفي السابع، والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة أتت الأخبار إلى العساكر الذين بدمشق: (إنَّ منطاش وبزلار، وتلكتمر المنجكي، وشكر أحمد، وتقطاي

الطواشي، ومقبل الرومي، وغيرهم شاليش عسكر بلاد الشمال، وقد نزلوا على القطيفة، وأنهم غداً يكونوا عندكم). فلمَّا سمعوا عساكر الشام هذا الخبر اختبطت أهل دمشق ودقَّت الكوسات [١٠أ]، ونادت المشاعلية في المدينة أنْ يركب العسكر، ولا يتخلَّف أحد، فركبوا في الحال وخرجوا على وجوههم، ونزلوا على برزة، وقد خافت العوام خوفاً شديداً، وقعد في دمشق من الأمراء إياس، والهيذباني، وألطنبغا حاجب الحجَّاب، وهم راكبين حول المدينة.

وأمَّا عسكر الشام؛ فإنَّه ما أصبح عليه الصباح إلاَّ وعسكر الناصري قد أقبل مثل الغمام، فركبت عساكر الشام ودقَّت الكوسات وثارت الرجال، وصهلت الخيول، وتقدَّمت الأبطال، إلى ملتقى الأبطال، وارتجت الأرض، والتقى الفريقان، وبان الفارس الجيِّد من الجبان، وبقيت قلوب الرجال كالرايات خوافق، وصهيل الخيل رعود وضرب السيوف سواحق، وسالت الدماء في قصطل[1] الحرب من أنابيب القنا، وطلعت الأسنَّة الزرق على الرماح السمر، وعمل الصارم البتار، حتَّى ولَّى الجبان إلى الفرار، واختلطت الصفوف بالصفوف، وغنت في سماع الحرب [١٠ب] قينات السيوف، وصالت الفرسان صولة، ورقصت الرؤوس في دخول الضرب جولة، فذكرتُ في ذلك الوقت قول ابن سناء الملك حيث يقول شعراً[2]: [الكامل]

إِنْ كُنْتَ تَرْغَبُ أَنْ تَرَانَا فألقَنَا ... يَومَ الهِيَاجِ إذا تَشَاجَرَتِ القَنَا
تَلْقَ الذي تُجْنِيهِمُ ثَمَرُ العُلَى ... قُضُبٌ يَطِيبُ بِهَا الجَنَى عَنْ مَنْ جَنَى
لا يَشْرَبُونَ سِوَى الدِّمَاءِ مُدَامَةً ... إذ يَنشقُونَ مِنَ الأَسِنَّةِ سُوسَنَا
وإذا الحُسَامُ بِمَعْرَكٍ غَنَّى لَهُمْ ... خَلَعُوا نُفُوسَهُم عَلَى ذَاكَ الغِنَا

هذا وعساكر الناصري كأنهم أسودة، وَثَبَت تُحامي عن الأشبال، كما قال فيهم

---

(١) القصطل: غبار الحرب، اللسان (قصطل).

(٢) ديوان ابن سناء الملك ص ٣٢٨ والأبيات قيلت في مدح القاضي الفاضل.

الشاعر: [الكامل]

لله دَرُّ عِصَابةٍ يَومَ الوَغَى يَبْغوا الخِيَاطَةَ في الهيَاجِ الأعظَمِ
ذَرعُوا الفَوَارِسَ بالرِّمَاحِ وفَصَّلُوا بالمرهفَاتِ وخَيَّطُوا بالأَسهُمِ

وقد أجاد القائل فيهم حيث يقول: [البسيط]

عَسَاكرٌ كَظَلامِ الليلِ مُقبلةٌ فِيهَا الأَسِنَّةُ مِثْلُ الشُّهْبِ قد لَمَعَتْ [١١أ]
والخَيلُ قد صَهَلَتْ، والسُّمْرُ قد نَهَلَتْ والهَامُ قد سَجَدَتْ، والبِيضُ قد رَكَعَتْ

وقد أجاد ابن حِجّة حيث يقول موّاليًا في المعنى:

يومَ القِتَالِ بِفَتح السَّعد نَلقَى السَّعْد
والنَّاسُ في الحَشر تحْتَ الواقعة بالوَعْد
ألم تَرَى زَلْزَلَتْ ضرَبَاتنَا يا سَعْد
وَهُم زُعَر يَستَغِيثُوا هَل أَتَانَا الرَّعْد

هذا، والأمير الناصري كأنه ضِرغام، قد حمل في الأبطال بقوَّة جنان، وقلب كأنَّه سِندان، وهو كما قال فيه منصور الموَّال مَوَّاليًا:

لِي كُلَّما سَنَّتِ الأعدَا أَسِنَّتَهَا واشتَّدَتِ الخيْلُ، وأرْخَتْ لي أَعِنَّتَهَا
حَمَلاَتٌ مِنهَا الجَبَالى في أَكِنَّتِهَا جنَّتْ وَمِنْ هولِهَا شَابَت أجِنّتها

وأما [١١ب] الأمير منطاش، فإنه ضرب بالسيف حتى انذهل منه الجبان وطاش، وصاح له في ميدان الحرب شاويش الهناء، (شاباش !) يا من هو كما قال فيه الموّال:

لَكَ في مَقَام الوَغَا في شَرقهَا، والغَرْب
سَماعٌ يَطرَبْ منُوا السَّامِع، وينفي الكَرب
هذا ولكْ كُلَّما جَالَتْ خُيُول الحَرب
كفٌّ يَكِيفُ الأَعَادِي عِندَ وَقْعِ الضَّرْب

وأمّا بزلار فإنه حَمَلَ على القوم وغارْ، وضرب فيهم بحدّ الصارم البتّارْ، حتى ولّى منه الجبان إلى الفَرار، وهو في الحرب لا يُصطلى له بنارْ، كما قال فيه الأديب الموّال:

أَسْـــهُمُ عَزِيمتَـــكَ لِلفُرسَـــان فَوّقهَـــا

وَرُؤُوس الأعـــدَا بِبِـــيْضِ الهِنْـــدِ طَوِّقهَـــا

وعَكّـــرِ المعْمَعـــةَ واحـــذَر تروِقْهَـــا

والأرضُ بالـــدَّمِ خَضِّـــبها وَزَوِّقْهَـــا

وما كشّفت عروس الشمس قناعها، ومدّت على الأرض شعاعها، إلاّ، وقد كُسِرَت العساكر المصرية، وانتصرت العساكر الناصرية، ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝﴾ [آل عمران: ١٢٦]

سبحانه [١٢أ] لا إله إلا هو، وانهزموا أصحاب الخيول، واللبوس، وقد زهقت منهم النفوس، وتخبّوا في البساتين، وفعلوا في أنفسهم ما لا تفعله المجانين، وصاروا كما قال فيهم الشاعر حيث يقول مفرد: [البسيط]

وضَـاقَتِ الأرْضُ حتَّـى كَـادَ هَارِبُهَـا إذا رأى غَـيرَ شَيءٍ ظَنَّـهُ رَجُـلا

ولّما وقعت الموقعة بين الفريقين قفز من عساكر المصريين إلى عند الناصري، ابن يلبغا، والأمير إيدكار بجماعتهم، ففرح بهم الناصري.

ولّما كسرت عساكر الشام، أراد جركس الخليلي أن يهرب، فلحقه واحد من عسكر الناصري وضربه أرماه، وقطع رأسه، وأدماه، وولّت عساكر الشام هاربين، ودخل الناصري في أثرهم وفرحت به المسلمين.

ولّما وصل الخبر إلى دمشق بما جرى هرب إياس، والهيذباني اختفى، وأمّا مماليك السلطان فإنّهم دارت عليهم الدائرة وتشتت شملهم، لكن لّما علم الله تعالى بنيتهم الفاسدة لأهل دمشق، وما أضمروا لهم أرمى بغيهم عليهم وحدهم، ونشرهم وفرّق جمعهم، وذهبوا كأنهم ما كانوا.

ودخل الناصري، والأمير منطاش، وبزلار، وتلكتمر المنجكي، وأحمد شكر البيدمري، ومقبل الرومي، وتقطاي الطواشي، ومن معهم، وعسكر الناصري ومن معه منصور، ومن الغنائم قد اكتفى، وعسكر الظاهر قد اختبأ واختفى، والعوام حولهم يدعوا لهم، وعلى رؤُسهم السناجق الخليفتيّة المحمدية، والمشاعلية تنادي بين يديه: (يا أهل دمشق لكم الأمان، والأطمئنان !).

نهب دمشق

وحاجب حجّاب دمشق ألطنبغا جاء إلى الناصري طائع وصار منهم.

وأمّا الأمير أيتمش؛ فإنّه سبق ودخل إلى القلعة ومعه مملوكان.، وأمّا عساكر الناصري؛ فإنهم أخذوا في نهب بيوت الأمراء الشاميين الذين هم خارج البلد.

وأمّا منطاش؛ فإنه جاء إلى باب النصر وجده مقفول، فأمر بكسره فكسروا باب الخوخة[1]، ففتحت البوابين بعد ذلك الباب، وهجموا الناس إلى دار السعادة بسبب النهب فأخذوا كُلَّ ما فيها؛ ونهبوا بيت ابن السرادارة.

وأمّا بيت الهيذباني؛ [١٣أ] فإنه دخلت إليه العوام ونهبوا كُلَّ ما فيه من القماش، والمال، والأثاث، وخلعوا شبابيك الأبواب، وأخذوا المسامير من سقوف الأخشاب، وخرجوا من داره وهم يقولون مصرِّحين: (دار الظالم خراب ولو بعد حين).

ذكر الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار)، (أن اللَّبِنَة المغصوبة في الحائط رهينة بخراب الدار). فما قولك في دار كُلُّ ما فيها مغتصب حتى الأرض ؟ فلو قلب الله تعالى بهم كان بعض ما يستحقُّوه، لكن الله تعالى يمهل الظالم، ويقبضه ما يفلته.

وبعد يومين جابوه من درب الفرَّاش، وحوله العوام، والأوباش، وادعوا أنه أساءَ إليهم، وطلب إعادة المكوس إليهم وقالوا: (ما كان يقنعه الأمريات الطبلخانات، حتى يدور علينا، ويضمن الخانات، والبساتين، والضياع، وينفق ما يأخذه من الطرقية،

---

(١) الخوخة: باب صغير في الباب الكبير والكلمة عامية.

ويصمّد الإقطاعات، ويبني البيوت العالية، ويجمع الأموال الهائلة)، وقد أجاد الشاعر حيث يقول: [البسيط]

يـا جـامِعَ المَـالِ أيّامـاً تُفرِّقُـهُ ... جَمَعْتَ [١٣ب] مالاً فقُلْ لي هَلْ جَمَعْتَ

مـا المـالُ مالـكَ إلاّ حـينَ تُنْفِقُـهُ ... المـالُ عِنـدَكَ مَخـزونٌ لِوارِثِـهِ

حكاية في المعنى

يُروى أن هشام بن عبد الملك بن مروان لمّا ثَقُلَ في المرض الذي مات فيه بكى عليه أولاده، ففتح عينيه وقال لهم: (جاد لكم هشام بدينه وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما كسب، وتركتم عليه ما اكتسب، يا خسارة هشام إن لم يُغفر له !)، وأنشد يقول شعراً: [المتقارب]

تَمَتَّـعْ بِمَالِـكَ قَبـلَ المَـماتِ ... وإلاّ فَـلا مَـالَ إنْ أنْـتَ مُتَّـا

شَـقِيْتَ بِـهِ، ثـم خَلَّفتَـهُ ... لِغَـيرِكَ بُعْـداً وَسُـحقاً ومَقْتَـا

فَجَـادوا عليـكَ بِكُثْـرِ البُكَـاءِ ... وَجُـدْتَ علـيهم بـما قَـدْ جَمَعْتَـا

وَأَرهَنْـتَهُم كُلَّـها في يَـدَيكَ ... وَخَلَّـوكَ رَهنـاً بِـمَا قَـدْ كَسَـبْتَا

وأمّا بخله، وإليه المنتهى وهو كما قال فيه الشاعر: [السريع]

وبَاخِـلٍ أهـدَى لنَـا شَـمعَةً ... وحَالُـهُ مِـن حُـرَقٍ حَالُهَـا

فَـما جَـرَتْ مِـنْ عَيْنِهَـا دَمْعَـةٌ ... إلاّ وَمِـنْ عَيْنَيْـهِ أمثالُهَـا

وما [١٤أ] وجدت له نظير في البخل من المتقدمين، إلاّ الأمير جعفر بن سلمان. حُكِيَ عن جعفر المذكور أنه كان بخيلاً جدّاً، فرفعت المائدة من بين يديه يوماً وفيها دجاجة صحيحة فوصّى عليها؛ فجاء بعض أولاده أخذ منها فخذها. فلمّا قدم السماط ثاني يوم وفيه الدجاجة وجدها ناقصة فقال: (من ذا الذي «تَعَاطَى فَعَقَر» ؟) فقيل له: (بعضُ أولادك)، فقطع أرزاقهم من أجل ذلك مدّة؛ فلما طال عليهم ذلك وقف له أكبر أولاده وقال له: (يا أبانا ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ؟)

فضحك وردَّ أرزاقهم.

وأنشد بعضهم في المعنى: [السريع]

رَأَيْتُ في دَارِهِم مَأْتَماً | وَامْرَأَةً باكيةً نائِحَةْ
فقُلْتُ ما بالكُم سادتي | قالوا رَغِيفٌ كُسِرَ البَارِحَةْ

وأمَّا ظُلْمُهُ فإنه من كبار الظلمة، قبَّحَهُ الله تعالى على هذا الاسم؛ أما عَلِمَ قول الله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٢٧]؟ وفي الحديث عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»(١).

وفي القرآن العظيم: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: ٣١].

وقد جاء في [١٤ب] التوراة، (ظالوما لا فالوحا). وفي الإنجيل، (لا أفلح من ظلم). فيا ليت شعري ما سمعوا قول الله تعالى وقول رسوله، وما أعدَّ اللهُ تعالى للظالمين من العذاب الأليم، ولا يذكروا وقوفهم بين يدي الله تعالى، وأنّه مسائلهم عن مظالم العباد وعمّا فعلوه في الدنيا من خير وشر، وما يذكروا قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٨].

وما علموا أنهم يحشروا على شفير جهنم، أجارنا الله تعالى منها، حتى يتخلصوا من مظالم العباد، أما علموا أن مظالم العباد ذنب لا يغفر؟ أما علموا ما أعد الله تعالى يوم القيامة ﴿كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود: ٥٩].

لكن غرَّتهم الدنيا الغرَّارة، وقتلهم فيها حُبُّ الإمارة، وظنُّوا أن الدنيا تدوم لهم، فما ينظروا إلى من مضى من القرون قبلهم، فما يعتبروا بمن مات منهم وانقبر، وكفى بالموت

---

(١) ورد الحديث في: صحيح البخاري ٣/ ١٦٩، سنن الترمذي ٢٠٣، مسند أحمد بن حنبل ٢/ ١٣٧، ١٥٦، ١٥٩، السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٩٣، ١٠/ ١٣٤، الأدب المفرد للبخاري ٤٧٠، التمهيد لابن عبد البر ٩/ ١٤٠، الشفا للقاضي عياض ١/ ١٧٦، مشكاة المصابيح للتبريزي ٥١٢٣، شرح السنة للبغوي ١٤/ ٥٦، الدر المنثور للسيوطي ١/ ٣٥٢.

معتبر، لكن الله تعالى هو الفعال لما يريد، قبض قبضةً.

وقال: «هذه إلى الجنة، ولا أبالي»، وقبض قبضةً وقال، «هذه إلى النار، ولا أبالي». جفَّ [١٥أ] القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أحسن قول الشاعر شعراً: [السريع]

أربعَـــــةٌ في النَّـــــاس مَيَّـــــزتُهُم أحــــوَالُهم بَـــينَ الـــوَرَى ظَـــاهِرَهْ
فَوَاحِـــــدٌ دُنْيَـــــاهُ مَوقُوفَـــــةٌ لـــيسَ لـــهُ مـــن بعـــدها آخِـــرَهْ
وآخـــــرٌ دُنيَـــــاهُ مَنْقُوضَـــــةٌ لَـــهُ بِهَـــا مِـــنْ بَعْـــدِهَا وَافِـــرَهْ
وآخـــرٌ حَـــيرَانُ مَـــا بيـــنَهُم لَـــيْسَ لَـــهُ دُنيَـــا، ولا آخِـــرَهْ
وآخـــرٌ قـــد حَـــازَ كِلتَـــيْهِمَا سَـــعِيدٌ في الـــدُّنيا وفي الآخِـــرَهْ

ثُمَّ نعود إلى كلامنا لئلا يطول الكلام في هذا الباب.

ثم نهبَوا بيت ابن العلائي أُستاذ دار طرنطاي، وبقوا على هذه الحالة يشعثوا في دمشق ثلاثة أيام وحصل لبعض الناس ضرر، وبعد يومين مسكوا طرنطاي نائب دمشق من جسرين[1] من عند ابن الحافظ صلاح الدين، فإنه كان أمير شكار[2] عنده، تعاون عليه بعض الناس عند الناصري، فبعث من مسكه فأحضروه إلى بين يديه وهو مقيد، ثم بعد أيام مسكوا بكلمش فقيَّده الناصري، هو وطرنطاي، في قيد واحد، وأرسلهم إلى [١٥ب] قلعة حلب بعد ضرب الناصري طرنطاي ضرباً كثيراً، وأَخْذِ جميع موجوده.

فانظر يا أخي، وفقك الله تعالى، إلى طرنطاي، وما جرى له، فإنَّهُ أراد أن يقلب الدست على الجوباني وعليه انقلب وحبس هو وبكلمش في قلعة حلب.

حكاية في المعنى

قيل: كان لبعض الملوك وزيران، يقف الواحد عن يمينه، والآخر عن شماله، وكان أحدهما يشير بالخير، والآخر يشير بالشر، وكان الملك رجل جيد يميل إلى الذي يشير

---

(١) جسرين: بلد شرق دمشق من أعمال الغوطة.

(٢) أمير شكار: أمير صيد، مصطلحات صبح الأعشى ص ٢٠٤ وخبرها مطول.

بالخير، فحسده رفيقه على ذلك، فقال يوماً للملك: (إنَّ رفيقي يزعم أنك أبخر مُنْتَنُ الفم، وعلامة ذلك أنَّك إذا أدنيته منك وحدثته وضع كُمَّه على أنفه).

ثم إنه صنع طعاماً مفتخراً، وأكثرَ فيه من من الفوم، وأرسل خَلْفَ الوزير رفيقه فأتاه، وأكل من ذلك الطعام، ثم انصرفا إلى خدمة الملك. فلمَّا جلس الملك على سريره وقف الوزراء على عادتهم، التفت الملك إلى الوزير وقال له: (ادنُ مني !) وهو لا يعلم ما صنع له رفيقه من [١٦أ] المكيدة فجعل كُلَّ ما كلَّمه الملك يضع يده على فمه، وأنفه حتى لا يشمَّ الملك رائحة الفوم، فصدَّق الملك قول الوزير في عدوِّه، وأمر بضرب عنقه، فقال له الوزير: (ما ذنبي إليك ؟) قال: (أنت تزعم أني أبخر وتغطي أنفك منِّي حتَّى لا تشمَّ رائحتي إذا حدثتك).

فقال له: (أيها الملك !، والله ما خطر هذا ببالي ولكن رفيقي هذا دعاني اليوم إلى عنده، وأطعمني طعاماً فيه فوم كثير، وما غطَّيتُ فمي، وأنفي إلا خشيتُ أني أوذي الملك برائحة الفوم). فعند ذلك تحقَّق صدقه، وعلم أنه صادق، وأمر بقتل الذي نقل إليه الكذب وصنع هذه المكيدة على صاحبه، وأمر الملك بسلخ جلده، وأنهم يحشوه قطن، ويعلِّقوه على باب قصره ليعتبر الناس به، فوصلت ضرورة مكيدته إليه وانقلبت حيلته عليه، وقد أجاد القائل في هذا المعنى حيث يقول شعراً: [السريع]

يا حَافِرَ البِئْرِ لأَجْلِ الأذَى ... حَصَّل لِرجليكَ مَرَاقِيهَا
مَنْ [١٦ب] يَحْفِرُ البِئْرَ على جَادَةٍ ... لِيُوقِعَ النَّاسَ وَقَعَ فيها

وفي الخبر الصحيح: «من حفر لأخيه المؤمن قليبا[1]، أرماه الله فيه قريبا»[2].

وقد أجاد القائل حيث يقول في المعنى شعراً: [الكامل]

كُنْ مُحْسِنًا وَدَعِ المُسِيءَ وَقَوْلَهُ وفِعَالَهُ ... فَلَيُرْسِلَنَّ الله من أَفْعَالِهِ أَفْعَى لَهُ

---

(١) القليب: البئر، اللسان (قلب).

(٢) ورد الحديث في: كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٣٣٩، الأسرار المرفوعة لعلي القادري ٣٤٢.

ثم نعود إلى كلامنا.

ونزل ابن الحمصي ثاني يوم إلى الناصري بمفاتيح القلعة، وأشار عليه بذلك أيتمش، وقال له: (هذا الرجل منصور من عند الله تعالى، فصون دماء المسلمين، فأنا ثاني السلطان، وما قدرت أني أواجهه بشرّ، وقد كسر عساكر المصريين، وما بقي يقف قدَّامه أحد).

فلما سمع نائب القلعة هذا الكلام استصوب كلامه، وطلب كمشبغا أخو طاز وجردمر أخو طاز، وركب معهم، ونزل إلى عند الناصري بمفاتيح القلعة؛ ففرح بذلك الناصري واستبشر بالنصر، وقام له، وأحسن إليه.

وخلع الناصري على [١٧أ] نائب القلعة، وأمره أن يرجع إلى القلعة، ويحتفظ بها وبقي من جهته.، وأمَّا الأمراء الذين خرجوا معه؛ فإنهم نزلوا في بيوتهم وفرحوا بهم أهلهم، فعند ذلك طلب الناصري ابن الغاوي، وولاَّه ولاية المدينة، وولى ابن بلبان ولاية البرّ، وبقيا يفتشا على غرماء الناصري، ويحصّل له مماليك السلطان.

وأمَّا يونس الدوادار؛ ففي اليوم الرابع حضر عنقاء أمير عرب بني مهدي، وأحضر معه رأس يونس الدوادار، وذلك أن عنقاء وجد يونس الدوادار حوالي اليرموك هارب في الجولان قاصد مصر، ومعه ناس قلائل من جماعته، فضرب عليه عنقاء حلقة وحصله ومن معه.

وقيل: إنَّ يونس كان معه جواهر أخذها منه عنقاء وقتله وقتل من كان معه، وأحضر رأسه إلى الناصري، وكان ذلك مقصود الناصري وبقى له عند الناصري وجه بسبب ذلك، ثم إن الأمير منطاش نزل في بيت يونس، وأخذ كل ما كان فيه.، وأما باقي الأمراء مثل إينال، وإياز [١٧ب]، فمسكهم ابن باكيش في غزَّة، فإنه كان نائبها، وحبسهم في الكرك وصار من جهة الناصري، وجهز لهم الإقامات في غزَّة ومنع الناس أن يتعدوا إلى مصر.

تنازل برقوق وحبسه

هذا جرى في الشام لهؤلاء، وأمَّا السلطان الملك الظاهر برقوق؛ فإنه لما سمع أن عسكره انكسر وبلغه الذي جرى عليهم، قامت قيامته وصعب ذلك عليه وقال: (لا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)، ووقع العزاء في القاهرة في بيوت الأمراء الذين خرجوا صحبة جركس الخليلي، ويونس إلى الشام.

وأمر السلطان بنهب بيوت الأمراء الذين خامروا عليه؛ أيدكار، وابن يلبغا. وفي الحال أخرج السلطان الأموال للأمراء، وأعطى خبز أيتمش لقرادمرداش، وأقام له عساكر جديدة، وأعطاهم ذهب ودراهم وخيل وقماش وسلاح، كل هذا، وما يخرج من القلعة، ثم إنه أرسل إلى ابن باكيش نائب غزة، وهو يظن أنه معه، أنه يجهز [١٨أ] إقامة فقال: نعم ولم يُظْهِر أنه مع الناصري، وأرسل يعرِّف الناصري أنه قد جهَّز إقامة، (فتسرعوا بالحضور حتى تسبقوا عساكر المصريين وتأخذوا الإقامات وتستظهروا عليهم، فما في التأخير فائدة).

فلما سمع الناصري هذا الكلام جمع الأمراء وقال لهم: (تجهزوا إلى القاهرة!) فأنعموا له، وأخذ الناصري من دمشق أموال وعدد وقماش وخيول وسلاح ما لا جمعه غيره من الملوك.

وفرق الجراكسة في الحبوس في القلاع مثل عجلون، وبعلبك، وصرخد، وحمص، وحماة، وغيرها. ونادت المنادية في دمشق: (أيّ من تأخر عن الأمير الناصري من أجناد الشام راحت روحه).

وخرج الناصري من دمشق يوم الخميس رابع عشرين جمادى الأولى من السنة المذكورة، وترك في دمشق نائب الغيبة جردمر أخو طاز وتبعته العساكر. ولمَّا وصل الناصري إلى غزَّة انقطعت الدروب وبقيت العرب تشعث كثير، وما بقي في دمشق عسكر يخافون منه وامتنعت الجلاَّبة عن دمشق.

وانقطعت أخبار العساكر عن الشام وبقوا الناس يتحدَّثوا [١٨ب] ألوان إلى عاشر

جمادى الآخرة من السنة المذكورة، فعند ذلك حضر من الديار المصرية بريدي بزينة البلاد، وأن الناصري انتصر، ومسك برقوق ودارت الدوائر عليه، فاستعاذ بالله من الشيطان، وأرمى السلاح وراح، وأراح المسلمين من الحروب واستراح، وخاف الله رب العالمين، وصان دماء المسلمين، ولكلٍّ شيءٍ سبب.

حكاية في المعنى

قيل إنه لما ظهرت الدولة العباسية على الدولة الأموية في سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة النبوية خرج إليهم مروان الحمار بجماعته وجنوده وحشد عليهم من أمكنة من الجيوش وحرَّضهم على القتال، ثم إنه رجع عن ذلك المطلوب، لما ألهمه الله تعالى أنه مغلوب. فقالوا له أصحابه: (ترجع ومعك مائة ألف عربي على مائة ألف عربي ؟) فقال لهم: (إذا انقضت المُدَّة لم يفيد العدد، والعدة، وإذا أراد الله تعالى أمراً بلغه)، وما أحسن قول القائل حيث يقول شعراً: [الطويل]

إذا [١٩أ] أقبلت كادَتْ تُقَادُ بِشعرَةٍ ... وإن أَدْبَرَتْ كادَتْ تَقُدُّ السَّلاسِل

ثم تولى الملك المنصور حاجي علي بن الأشرف ثاني مرة، وحكم وضُرِبَ له الدرهم، والدينار، وخطبوا له على المنابر وزُيِّنَتْ له البلاد، وطاعَتْهُ العِباد، وفرحت الناس وانتصرت عساكر الناصري، وقد أجاد ابن الشهيد حيث يقول شعراً: [السريع]

الحَاكِمُ العَادِلُ في خَلقِهِ ... سُبحَانَهُ مِن مَلِكٍ قَاهِرِ

قد خَيَّرَ الظَّاهِرَ في أمرِهِ ... وَأَيَّدَ المنصُورَ بالنَّاصِري

ونادت المشاعلية على السلطان برقوق في القاهرة، (أيّ من أحضره، إن كان جندي أعطيناه إمرية عشرة، وإن كان أمير عشرة أعطيناه طبلخاناة، وإن كان طبلخاناة أعطيناه تَقْدِمَة، ومن أخفاه، أو ظهر عنده بعد هذا الكلام راحت روحه ونُهِبَتْ دياره).

واستمرَّ الحال إلى يوم الخميس، فحضر إلى عند الناصري مملوك [١٩ب] أبي يزيد الخيَّاط، فقال له: (يا خوند[1] ! السلطان عند أستاذي أبي يزيد مختفي). فلما سمع هذا

(١) خوند: كلمة فارسية تعني السيد والرئيس.

الكلام أمر بعض الأمراء في الحال ومعه جماعة فنزلوا إلى بيت أبي يزيد فوجدوا برقوق عنده، فمسكوه، وأحضروه إلى عند الناصري، فلمّا نظر إليه أهل القاهرة في تلك الحالة بكوا عليه بكاءً عظيماً، فسبحان من يُعِزُّ، ويذِلُّ.

ثـم إن النـاصري بعثـه إلى الكـرك ولم يؤذيـه، فأصبح برقـوق في الحبس محصـور، والمنصور عليه منصور، فإنه كان قد زاد في الأمور، فأراد الله تعالى أن يُرِيَهُ قدرته. وقال رسول الله (ﷺ): «**اللهُمَّ من وَلِيَ من أمور أمتي شيئاً ورفق بهم فارفق به، ومن ولي من أمور أمتي شيئاً وشقَّ عليهم فاشقق عليه**[1]».

ويكفيهم هذا الحديث ليعتبروا به. أما يعرفوا أن المُلْكَ لو دام لغيرهم ما وصل إليهم؟ اللهُمَّ ألهمهم العدلَ فينا !

وقال الفُضيل بن عياض، رحمه الله تعالى: (لو كانت لي دعوةً مستجابةً لجعلتها للسلطان). قيل له: (ولِمَ تُقَدِّمُهَا على نفسك ؟) قال: (إنَّ دعوتي لنفسي لا تنفع لغيري [٢٠أ]، وإن كانت للسلطان انتفعت البلاد، والعباد بعدله وصلاحه)، رحمه الله.

وقيل إنَّ صاحب السلطان كراكب الأسد، تهابه الناس وهو يخاف من مركوبه.
وقال: البديع الهمذاني، (إن خَدَمْتَ الملوك أَمَلُّوكْ، وإنْ لم تَخْدِمْهُمْ أَذَلُّوك).

شعر في المعنى: [الطويل]

وَيَـومٍ كـأخلاقِ الملـوكِ تَلونـاً فَصَحوٌ وتَغيـيمٌ وطَـلٌّ، ووابِـلُ
أُشَبِّهُهُ يـا مَـن صِـفَات كمالِـهِ دُنُـوٌّ، وإعْـرَاضٌ وَمَنْـعٌ ونَائِـلُ

ثم نعود إلى كلامنا. ونادى الناصري بالأمان، والأطمان، والبيع، والشراء، وزينت مصر، والقاهرة، وحكم بها الناصري أمير كبير وبلغ مقصوده. وطلب الجوباني من الإسكندرية إلى عنده وخلع عليه، وعمَّله ثانية في المنزلة.

(١) ورد الحديث: من ولي من أمر، السلسلة الضعيفة للألباني ٣٣٣، السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٤٣، ١٠/ ١٣٦، الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ١٧٥، فتح الباري لابن حجر ١٣/ ١٣٠، جمع الجوامع للسيوطي ٩٨٣٧، كنز العمال للمتقي الهندي ١٤٩٢٦.

ولمَّا جرت هذه الأمور الصعاب في الشام، نظم الشيخ علاء الدين ابن أيبك هذه القصيدة: [الكامل]

يَـا وَقْعَـةً وَقَعَـتْ بـأرضِ الشَّـامِ   فِيهَـا اختَبَطْنَ ممَالِكُ الإِسْلاَمِ
جَـاَتْ بِزِلْـزالٍ عَظِـيمٍ قـد غَـدَتْ   تَسْطُو بِحُكَّـامٍ عـلى حُكَّـامِ
بَعدَ [٢٠ب] المِئِينَ السَّبْعِ، والتسْعينَ في   عَـامٍ أَتَـى مِـنْ أَصْعَبِ الأَعْوَامِ
في شَـهْرِ شَـهْرِ رَبيـعِ الثـاني وفي   ثَـاني وعشريـنٍ مـن الأَيَّـامِ
في بُكْـرَةِ الاثنـينِ لَمَّـا أشرَقَـتْ   شَمْسُ الضُّحَى وحَلَّتْ سَوَادَ ظَلاَمِ
بـينَ العُيـونِ وخَـانِ لاجِـينِ إلى   دَيْـرِ ابـنِ عَصْرُونٍ أَجَـلِّ إمَـامِ
بَـرَزَتْ جُيُـوشٌ كالسُّـيُولِ تَتَابَعَـتْ   مِـن بَـيْنِ أَودِيَـةٍ وَفَـوق أَكَـامِ
وتَجَـرَّدَتْ بِـيضُ السُّـيُوفِ وغَـرَّدَتْ   تَغرِيْـدُ وُرْقٍ فـوقَ دَوْحِ الهَـامِ
جَـيْشُ الشَّمالِ وجَـيْشُ مِصْرَ تَقَـاتَلاَ   وتَقَـاوَلاَ قبـلَ اللِقَـا بِكَـلاَمِ
وتَصَـاوَلا وتَجَـاوَلا وتَكَاتَبَـا   وتَوَاثَبَـا كالأُسْـدِ في الآجَـامِ
وتَصَادَمَا [٢١أ] وتَلاطَما وتَماشَـفَا   وتَرَاشَـقَا بِصَـوَارِمٍ وَسِـهَامِ
وتَطَاعَنَـا بِأَسِـنَّةٍ قـد أُحْرِقَـتْ   شِـبْهِ الكَوَاكِـبِ في ظَـلاَمِ قَتَـامِ
في مَوقـفٍ ضَـنْكٍ بِـهِ أرواحُهُـم   قَـدْ وَدَّعَـتْ أَجْسَـامَهُم بِسَـلاَمِ
وَصَـهِيلِ دُهْـمِ الخَيْـلِ فِيـهِ كَأَنَّـهُ   رَعْـدٌ تَجَلْجَـلَ في سَـوَادِ غَمَـامِ
والشُّـهْبُ حُمْـرٌ بالـدِّمَاءِ تَخَـالُهُم   كالشُّـهْبِ في شَـفَقِ الصَّـبَاحِ النَّـامِ
والشُّـقْرُ تَخفِـقُ كـالبُرُوقِ ذُيُولُهَـا   والكُمْـتُ قـد صُـبِغَتْ بِصِرْفِ مُـدَامِ
وَتَشَعْشَـعَتْ حُمْـرُ الـدِّمَا فَكَأَنَّهَـا   بَحْـرٌ تَتَـابَعَ مَوْجُـهُ لِلطَّـامِ
مـا عُـوِّدَتْ تِلـكَ الخُيـولُ سِوَى اللِقَـا   والكَـرِّ في الغَـاراتِ، والإِقـدَامِ

والنَّـــاصِرِيُّ كَأَنَّـــهُ لَيْـــثُ الشَّرَى أضــحَى عَـــنِ الأَشْــبَالِ وهـــو يُحَـــامِ
صَفَّ [٢١ب] الصُّفُوفَ مُرَتَبَاً ومُسَاوياً مــا بــين رُكَــبِ القــومِ، والأقــدَامِ
وكـــذاك بُزْلارٌ ومِنطَـــاشٌ هُمَـــا نَمِـــرَانِ جَانِـــبَ ضَـــيغَمٍ ضِرغَـــامِ
وتقـــدَّموا الأبطـــال حـــول رِكَابِـــهِ يَمشُـــونَ حَـــوْلَ خَوافِـــقَ الأَعْـــلاَمِ
والطَّبْلَخَانـــاتِ الـــذِّي أجنَادُهَـــا مـــا جُنِّـــدَتْ إلاَّ لِيَـــوم صِـــدَامِ
فَكَـــأَنَّ ذاك اليـــومَ كـــان لِهَوِلِـــهِ يَـــومَ القيامـــةِ في أَشَـــدِّ زِحَـــامِ
قُتِـــلَ الخَلِـــيليُّ الأمـــيرُ بِـــه ضُـــحَىً ومـــن الوُجُـــودِ مَضَى إلى الإعِـــدَامِ
وإليـــهِ أَكْثَـــرُ جَـــيْشِ مِصْرٍ قَفَـــزُوا وتَجَـــافَلُوا مِثْـــلُ انجِفَـــالِ نَعَـــامِ
والـــنَّصْرُ كـــانَ لَـــهُ بِقُـــدْرَةِ رَبِّـــهِ واللهُ أَيَّـــــدَهُ عـــــلى الأَخْصَـــــامِ
وإيـــازُ مـــع أَينَـــال خَلُّـــوا يُـــونُسَ في الـــبَرِّ، والشَّـــيْطَانِ في إِرْغَـــامِ
والنَّـــاصِرِيُّ وجيشُـــهُ دَخَلُـــوا إلى المَيْـــدَانِ، والـــقَصْرِ الرَّفِيـــعِ السَّـــامِ
وأَتَـــوا إليـــهِ بِـــرَأْسِ يُـــونُسَ بَعـــدَمَا ذَبَحُـــوا الهِزَبْـــرَ كَذَبحَـــةِ الأغنـــامِ
وأَقَـــامَ أَيَّامـــاً وســـارَ مُخَـــاطِراً بـــالنَّفْسِ لا يُثْنِيـــهِ فَـــرْطُ مَـــلاَمِ
وبِـــمِصْرَ [٢٢أ] خَـــيَّم فـــاخْتَفَى بَرْقُـــوق خِيفَـــــةَ كَوْكَـــــبٍ لِظَـــــلاَمِ
وأَتَـــاهُ مِـــنْ بَعـــدِ اخْتِفَائِـــهِ طائعـــاً فَلَقِيَـــــهُ بـــالإِجْلاَلِ، والإِعْظَـــامِ
وأجَـــارَهُ مِمَّـــا يَخَـــافُ وقـــالَ لِلـــ ـــكرك ارتَحِـــلْ مُسْتَصْـــحَباً بِسَـــلاَمِ
وتَسَـــلْطَنَ المنصـــورُ ثَـــانِيَ مَـــرَّةٍ وصَـــفَا لَـــهُ كَـــدَرٌ مِـــنَ الأَيَّـــامِ
وَبِـــهِ البَشَـــائِرُ أعلَنَـــتْ وتَزَيَّنَـــتْ مِصْرٌ لَـــهُ وجميـــعُ مُـــدْنِ الشَّـــامِ
والنَّـــاصِريُّ هُـــو المُشَـــارُ إليـــه في كُـــلِّ الأمـــورِ، وأَصْـــلِ كُـــلِّ نِظَـــامِ
هـــذا نِهَايَـــةُ مـــا وَصَـــلْتُ إليـــهِ في نَثْـــرِي ونَظِمِـــي واختِصَـــارِ كَـــلاَمِ

ثم نعود إلى كلامنا. ولَمَّا حكم الناصري في الدولة، وأظهر العز، والصولة، وحدثته نفسه الدنية، بتغيير النيَّة، جرَّد منطاش إلى الصعيد، ورماه بعد القريب البعيد.

وفرَّقَ الناصري نُوَّاب البلاد، وتواترت الأخبار في دمشق أنَّ بزلار تولَّى نيابة دمشق وتولَّى نيابة [٢٢ب] حلب كمشبغا، وتولَّى نيابة حماة ابن المهمندار، وتولَّى طرابلس سنجق، وتولَّى حمص كمشبغا المنجكي، وتولَّى بعلبك تلكتمر المنجكي، وتولَّى صفد الصفوي، وتولَّى غزة ابن باكيش.

وفي نصف رجب من السنة المذكورة حضرت العساكر من مصر، كل ناس إلى بلدهم ونائبهم معهم، ودخل نائب الشام بزلار، وكان له يوم مشهود، ودخل إلى دار السعادة وحكم بها على عادة النواب.

وفي عاشر شهر شعبان من السنة المذكورة جاء إلى دمشق قاضي شافعي هو شهاب الدين ابن القرشي وحكم بها، وكان أبوه واعظ مليح، وقويت نفس أبيه عليه، وما بقي يرضى يطلع على كرسي يعظ الناس كما كان، وكان فريد وقته في علم الحديث رحمه الله.

واستمرَّ الأمر على هذه الحال مدَّة، والناس في خير، وقد خمدت الفتنة، اللهُمَّ أَخْمِدِ الفِتَنَ على المسلمين، وآمنهم في أوطانهم، وأرخص أسعارهم، وأصلح حُكَّامَهُمْ، وألهمهم العدل فيهم يا ربَّ العالمين!

وبعدَّ أيام قلائل حضر بريديّ من القاهرة [٢٣أ]، وَخَبَّرَ أَنَّ منطاش وقع بينه وبين الناصري، وركب عليه في جماعة كثيرة، ومسكه، ومسك الجوباني، ومسك معهم سبعةً وعشرينَ أميراً، وأمر بحبسهم في الإسكندرية واستقرَّ وحده أمير كبير، فصعب ذلك على بزلار نائب الشام.

حكاية في المعنى

قال أحمد بن أبي الضبع الكاتب: (لَمَّا ولي المستعين بالله الخلافة دعاني أحمد بن خصيب وزيره، وقال: اكتب الساعة بقدوم عبد الله بن يزداد من بلاد فارس سرعة، فكتبت مرسوم وبعثته مع ساعي، ثم إنه بعد شهر جاء فأحسن إليه الوزير فأعطاه وظائف

كثيرة، فقعد قليل وسعى على الوزير الذي أحسن إليه، وبعث خلفه وعزله وتولَّى مكانه، ونفا الخليفة الوزير، وأبعده).

قال الحاكي: (ثم دعاني عبد الله بن يزداد في ولايته وقال لي: اكتب الساعة إلى هَمَذَان بقدوم شجاع بن القاسم إلى حضرة الخلافة صحبة الرسول الذي جاء خلفي إلى بلاد فارس، ففعلت [٢٣ب] ذلك فقدم بعد أيام فأحسن إليه الوزير، وأعطاه وظائف كثيرة، فلمَّا تمكن شجاع من الدولة سعى على عبد الله بن يزداد حتى عزله، وأخذ مكانه وحبسه).

وهكذا الدنيا مكافأة؛ كما تدين تدان. وكذا جرى للناصري مع منطاش؛ فإنه الذي أتى به من سيواس، وسلَّطه على نفسه، وعلى الناس، لكنَّ الناصري كان قد قال في نفسه إنَّ الأيام قد صَفَتْ له، وأنه نال منها مراده، وما التفت إلى قول القائل شعراً: [البسيط]

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بالأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ القَدَرُ
وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا ... وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الكَدَرُ

وما ذكر الناصري قوله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ثم نعود إلى كلامنا. وبعد أيام حضر ابن جردمر على خيل البريد من [٢٤أ] القاهرة ولم يحضر إلى دار السعادة، ونزل في بيت أبيه ومعه ملطفات إلى الأمراء بمسك بزلار، وأن يكون نائب الشام أبوه جردمر أخو طاز. فسمع بزلار بذلك فسلم نفسه ولم يشعث، وشالوه إلى القلعة. فسبحان من يُغَيِّرُ، ولا يَتَغَيَّر، لا مانع لما أعطى، ولا دافع لما قضى.

ولما كان نهار الخميس ثامن عشرين شهر رمضان المُعَظَّم من السنة المذكورة، ركب نائب الشام جردمر أخو طاز ولبس الخلعة، وأشعلوا له الشموع وفرحت الناس به، فإنَّه كان نائب جيِّد رحمه الله تعالى، ودخل إلى دار السعادة وحكم بها وطلب في الحال محمد

شاه بن بيدمر، وخلع عليه بتقدمة ألف، وأقام منطاش له دولة ثانية من البيدمرية، والطازية.

وفي شهر شوال من السنة المذكورة تواترت الأخبار أن كرك الشوبك عصى نائبها، واتَّفق مع السلطان برقوق، وأخرجه من السجن وهو يركب، وينزل، وقد اجتمعت إليه الناس مثل [٢٤ب] عربان، وبعض أجناد من الكرك، وعشير. فجفلت خواطر الناس في دمشق لأنهم ما كانوا قد اطمأنوا من الفتن، وبقي السلطان كل يوم في زيادة حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا، وراحوا إليه أكثر مماليكه الذين كانوا مختفين، فقصد المجيء إلى دمشق.

وتواترت الأخبار بذلك. فضاقت صدور الناس واشتدَّ الأمر، وانقطعت الدروب، وطمعت العربان، والفلاحين، ونهبوا المغلات. فنسأل الله تعالى أن يردَّ العاقبة إلى خير بمحمَّد وآله.

وأخذ السلطان مغلات حسبان[1]، والبلقاء، وتلك البلاد جميعها، وقويت شوكته، وبقي كل يوم في زيادة. فَقَرُبَ خروج الحجاج إلى مكة، شَرَّفَهَا الله تعالى، فما طلع أحد من التجار، ولا من أعيان الناس، لأنهم خافوا من برقوق في الطريق.

وتولَّى أمير الحاجّ الصارم البيدمري، وبقيت الناس في ضيق بسبب ذلك، وخرج المحمل ثامن عشرين شوال من السنة المذكورة في ناس قلائل؛ غرباء، مثل روم وغيرهم من [٢٥أ] بلاد الشمال، ولم يخرج سبيل سوى المحمل لا غير.

وحضر نائب حمص وذكر أنّ التركمان قد قووا عليه فخاف منهم فخلاًّ حمص وهرب، وتخبطت البلاد أيضاً بظهور السلطان، وظهر كل نحس وفاجر. وتواترت الأخبار أن السلطان برقوق قد وصل إلى أذرعات، وقد أطاعته العشرانات[2]،

(١) حسبان: لم أقف لها على ذكر في المعاجم، ولعلها مصحفة، ويقصد بها حوران لأنها محاذية للبلقاء وهي أهراء للغلال.

(٢) العشرانات: ج عشير، وقد سبق التعريف بها.

والعربان، والتركمان وكثر جمعه، وكل يوم في زيادة.

وبعد أيّام قفز إليه أمير أحمد بن الشيخ علي من دمشق، ومعه جماعته ففرح به السلطان فرح كثير. وبعد قليل وصل إليه من حلب فرج الله في جماعة كثيرة فقوي بهم، وشرع يوغد الناس بكلّ خير، ويكتب لهم مثالات[1]، ويستجلب قلوبهم.

وبعد أيام وصل الخبر إلى نائب الشام أن نائب قلعة صرخد كان عنده من مماليك السلطان جماعة محبوسين، فأخرهم، وأحسن إليهم ولبّسهم، وأخذ كل شيء في القلعة، وأتى بهم إلى عند السلطان ففرح بهم، وبقي له عساكر يمشون في خدمته كما قال بعضهم شعراً: [الكامل]

يمشُونَ[٢٥ب]تحتَ رِكَابِهِ فَرَحَ اللِّقَا   مَشْيَ القَطَاةِ إلى لَذِيذِ المَشْرَبِ

يَتَرَادَفُونَ عَلَى الأَسِنَّةِ في الوَغَى   كالصُّبْحِ فَاضَ على نُجُومِ الغَيْهَبِ

وقعة شقحب

ثم إن عساكر الشام اتفقوا على أنهم يجرِّدوا إليه عسكر منهم، وأنهم ينزلوا بأرض شقحب في طريقه، فجرد نائب الشام في الحال أطلمش الطازي مقدّم ألف، ومبارك شاه الطازي مقدّم ألف، ويلبغا العلائي مقدّم ألف، ومحمد شاه بن بيدمر مقدّم ألف، فخرجت إليه الأربع مقدمين، وأولاد ابن منجك، وخرج من دمشق عسكر مليح. وقالت الناس: إن برقوق ما يقدر على هؤلاء العساكر، فإنه لم يكن معه إلاّ فلاحين وعرب وترك قليل. وبقيت الناس في كلام كثير، فنزلت عساكر الشام على شقحب، والسلطان في أذرعات، وابن باكيش نائب غزة قد جمع خلق كثير وهم قاصدين السلطان فبقي في الوسط.

وكان نائب القلعة سيدي [٢٦أ] ملك ابن أخت جردمر أخو طاز، وضاقت صدور الناس ونصبت في القلعة المناجنيق وَحَصَّنُوها، وانتقلت الناس من خارج البلد إلى

---

(١) المثالات: لعلها صكوك بالمال والأرض وغير ذلك اللسان (مثل).

داخل البلد، وعادت الناس إلى أضيق ما يكون. واستمرُّوا على هذا الحال إلى يوم الاثنين عاشر شهر القعدة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة.

فعند ذلك ركب السلطان برقوق ومن معه، وركب عسكر الشام وتلاقيا الفريقان على شقحب، وكانت كوقعة عَليّ مع مرحب، من بكرة النهار، وعمل فيهم الصارم البتَّار، وولَّى الجبان إلى الفرار، وحمل السلطان فيهم وغار، وقد زلزل الأقطار، وهو كما قال فيه الموال مواليًا:

يـــا هِنْـــدُ لَمَّـــا أَتَـــوا الأَعـــدَا إلى عِنْـــدِي
يَـــوْمَ الـــوَغَى، وعـــلى رَأْسِي خَفَـــقْ بَنْـــدِي
حَمَلْـــتُ فـــيهم وقِـــدْحُ النَّـــار مـــن زَنْـــدِي
نَثَـــرْتُ نَظْـــم الـــزَّرَدِ يـــا هِنْـــدُ بالهِنْـــدِي

ثم إن السلطان كسر عسكر الشام، وقتلهم وسقاهم كأس الحِمام، وخامر من عسكر الشام أولاد منجك، وقطلوبك المنجكي [٢٦ب]، وقُتِلَ مبارك شاه الطازي، وأطلمش الطازي، وابن بهادر، وأسنبغا مملوك بيدمر، وهرب محمد شاه بن بيدمر وجبرائيل، وأين المفرّ وخلفه عزرائيل، وقيل كانوا هم الباغين، ولا أفلح من بغى.

وانكسر عسكر الشام كسرة عظيمة، وفاز السلطان بالنصر، والغنيمة، وجاء السلطان نزل على قبة يلبغا، و دخل بعض المكسورين إلى دمشق في أنحس حالة، مشلّحين مجرّحين، وخافت الناس كثير، وقوي السلطان فإنه أخذ من عسكر الشام خيول وسلاح وخيام ورجال، وأعلام، فسبحان من يُعِزُّ، ويذِلُّ.

حصار دمشق

وأمَّا نائب الشام، فإنه أغلق أبواب المدينة وطيَّنها بكلس وحجر، وَقَاعَدَ على كل باب أمير وباقي الأمراء، والأجناد على الأسوار، وقد استخدم رجال، وأخذت الناس في الحصار، وراح ابن الحنش بالعشير إلى عند السلطان فخلع عليه وفرح به، فبينما

السلطان قاعد في قبة يلبغا، وإذا بالكشافة قد أقبلت إليه، وأخبروه أن ابن باكيش بعساكر [٢٧أ] غزَّة قد وصل، فركب السلطان في الحال وركبت عساكره وقصد ملتقى ابن باكيش إلى ذيل العقبة وتلاقى الفريقان، وحمل فيهم السلطان، ومن معه من الفرسان، وبقي العسكران، كما قال فيهم الشاعر الأديب الملسان شعراً: [الكامل]

الضَّرْبُ شَكْلٌ بالسُّيوفِ وَنَقْطُه   رَشْقُ السِّهَامَ وَدَفْعُهُ بالسَّمهرِي

والجِبْرُ بَحْرُ دَمٍ تَغَطْمَطَ مَوجُهُ   يَنبُوعُهُ مِن هَامَةٍ، أو منخرِي

فما كانت غير ساعة إلاَّ، وقد انكسر ابن باكيش وعسكره، وولُّوا هاربين، فأخذ السلطان كلَّ ما كان معهم من الأثقال، والجمال، والخيول، والسلاح، ورجع إلى قبة يلبغا منصور.

ورجع ابن باكيش هارب مكسور، فلمَّا سمعوا أهل دمشق ما جرى على ابن باكيش خافوا أكثر، وأكثر، واستقامت للسلطان الأمور، وكل هذا حتى ينفذ القدر المقدور، في العباد، والبلاد، سبحانه لا إله إلا هو، فسبحان من أيَّدَهُ بالنصر، وردَّ عليه بعد حبسه مُلْكَ مِصر.

وأصبح ثالث [٢٧ب] يوم يريد يدخل المدينة، وينزل في الميدان، فأمر غلمانه أنْ ينقلوا أثقالهم إلى الميدان حتى يقرب إلى المدينة، ونزل هو من صوب المزَّة على الشرف الأعلى ومعه العشرانات، والعربان، والترك، ونزل في بيت إينال [فـ] أكل شيء، وركب، ونزل تحت القلعة من جهة بيت مَلِك آص، فلما نظروه العوام، وكان قد قطع عنهما الماء [من] نهر القنوات وبانياس فكرهوه بسبب ذلك.

فلمَّا نظروه العوام تحت القلعة وهو يحسب أن العوام معه، فقاموا إليه ورجموه بالحجارة ولمن معه، وصاحوا الناس عليه وكثر الصياح، ورموا عليه القلعية من القلعة حتى أدهشوا عقله، والعساكر على أبواب المدينة. فوقف السلطان تحت عماره بيدمر إلى جانب النهر، فرمته القلعية بالسهام فأحرقوا تلك الدكاكين جميعهم، من جسر الزلابية

إلى باب الحديد، فانتقل إلى ظهر العمارة الغربية قريب من جامع يلبغا، فرموا [٢٨أ] عليه أيضاً فأحرقوا تلك المواضع، وبقوا الناس في قتال وصياح وخوف من قبل الظهر إلى بعد العصر.

ثم إنه بعد العصر طأطأ رأسه وطلع من حدرة مَلِك آص وتبعته العوام بالحجارة، ورُدَّ السلطان وهو مغبون هارب من العوام، فأما ثقله فإنه كان قد وصل إلى الميدان كما أمرهم، فلما نظروه الناس قد انكسر طمعوا فيه، ودخلوا إلى الميدان ونهبوا أثقاله وقَوَتْ قلوبهم على النهب، وما سلم من أثقاله إلا القليل، ورجع السلطان ومن معه إلى قبة يلبغا، وقد ضاقت صدورهم مما جرى عليهم من العوام.

نكتة جرت في ذلك اليوم عجيبة:

أنَّ إنساناً من سويقة صاروجا، اسمه إبراهيم، لما جاء السلطان إلى تحت القلعة ورمت عليه القلعية، خاف كيلا يصل إليه حجر من القلعة يقتله، قال إبراهيم لابن أخيه عنده يتيم: (قُومْ: أغلق الدكان كيلا يقع عليه حجر من القلعة). فقام الصبي غلَّق الدكان وطلع هو وابن [٢٨ب] أخيه إلى سطح داره، وجلس في الشمس يتفلَّى، فأتاه حجر من مدفع فأخذ نصف رأسه وابن أخيه إلى جانبه فلم يعلم به إلا وهو يتخبط في دمه. فانظر يا أخي إلى هذا الرجل كيف فَرَّ من الموت، ووقع فيه، وقد أجاد الشاعر حيث يقول شعراً: [الكامل]

والمَوتُ لا يُنْجِيكَ من آفاتِهِ ... حِصْنٌ ولو شَيَّدْتَهُ بالجَنْدَلِ

حكاية نظيرها في المعنى

قد حكى الشيخ الطرطوشي في كتابه (سراج الملوك): أن ضامن من ضُمَّان الإسكندرية هرب من المتولي الذي لها، وقد أحضره حتى يعاقبه على مال وقف عليه. فهرب ورمى نفسه في بئر من أبيار بيوت أهل الإسكندرية، وأبيارهم جميعها تنفذ إلى بعضها بعضاً وبقي يمشي من بئر إلى بئر حتى ينجو بنفسه إلى أن جاء وطلع من بيت المتولي، فمسكه وعاقبه، وأين المفرُّ من القضاء، والقدر؟ إذا أرادَ اللهُ تعالى [٢٩أ] أمراً بلغه.

ثم نعود إلى كلامنا، وأمَّا العوام؛ فإنهم راحوا في ذلك اليوم إلى بيت إينال ونهبوا منه شيء كثير، وكسروا أبوابه وقلَّعوا بلاطه، وفي ثاني يوم راحوا إلى بيت منجك إلى دار القرماني كسروا أبوابه ونهبوا جميع ما فيه، وطمعت العوام في النهب، ولم يبقى لأحد صنعة يعملها، ووقفت أحوال الناس، وانكشف حال الغني، وهلك الفقير.

وأما السلطان؛ فإنه غضب على العوام وندم على نزوله وخرق حرمته ونهب أثقاله فأضمر لهم كل شَرٍّ وسوء، واستمرَّ الأمر على هذا الحال؛ أصحاب السلطان ينهبوا في الضياع، والغوطة، ويخربوا، ويفسدوا مثل العشير، والعربان وغيرهم، وخرج إليهم من دمشق كل نحس وطماع.

وأما جردمر نائب الشام؛ فإنه أصبح يوم الجمعة ثامن عشر القعدة من السنة المذكورة، أمر بخراب باشورة باب الجابية، وكذلك جميع الأبواب حتى يبقى قدَّامهم فسحة، وعملوا [٢٩ب] على الأبواب ستائر خشب.

وحصَّنوا القلعة غاية التحصين، ونصبوا بها أربع مناجنيق وحذَّافات ومدافع ورجال، وسدُّوا جميع الأبواب خلال باب النصر وباب الفرج، وبقي يهلك منهم كل يوم من الزحمة ناس كثير، والناس ينتقلوا إلى داخل الميدنة.

ثم بعد أيام قفلوا باب الفرج، فهلكوا الناس ولم يجدوا لهم من الضيق مخرج، فقلت عند ذلك: (اللهم اجعل لنا من كلِّ همٍّ فرجا، ومن كلِّ ضيقٍ مخرجا، وإلى كلِّ خيرٍ سبيل، وأنت حسبي ونعم الوكيل).

ولم يبقَ مفتوح سوى باب النصر، ولقيت الناس مشقَّة عظيمة من الزحمة، وكان الإنسان إذا دخل إلى داخل المدينة اطمأن على نفسه، فلمَّا نظرتُ هذا الحال ذكرتُ قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

حكاية في المعنى

قيل إن بعض المجانين تبعوه الصغار وزادوا عليه فهرب منهم ودخل إلى دهليز دار

[٣٠أ] له، وغلق عليه الأبواب، وكان معروف فلمّا أحسَّ به صاحب الدار أخرج إليه شيء من الطعام وقال له: (كُلْ على هينتك، ما عليك باس). فصار يأكل وهو يتلو هذه الآيـة: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

فتعجَّبَ صاحب الدار من المجنون كيف استحضر هذه الآية في وقتها.

وأما نائب الشام جردمر؛ فإنه كتب مطالعات إلى الأمير منطاش بما جرى: (وأنك تدرك المدينة، والقلعة، وإلا أخذها السلطان، ويصعب الأمر عليك، فقد حصنتُ لك المدينة، والقلعة ونحن في انتظارك، والسلام).

ونصب جردمر له صيوان على باب النصر وبقي يقعد هو وسنجق، وطغيتمر، وشيشق نائب حماة، ودوادار منطاش، وهم ملازمين مصالح الناس.

ودبّر النائب تدبير حسن، رحمه الله تعالى، فإنه لم يأخذ من أحد مال بغير حق في مثل هذه القضية. وقلَّ البيع، والشرى بين الناس وهلك المسكين [٣٠ب]، ولا بقي الأخ يرحم أخاه، وانقسمت الناس قسمان؛ منطاشية وبرقوقية، وانكشفت أحوال الناس. اللهم رد العاقبة إلى خير، يا رب العالمين !

وقد جرى في دمشق نظير هذا لمَّا ظهرت الدولة العباسية، وجاء عبد الله بن علي عم السفاح إلى دمشق وحاصرها، ودمشق بعد في أيدي بني أمية، وكان ذلك في سنة اثنتين وثلاثين ومائة. قيل إنه حاصرها أربعين يوماً، وقيل شهرين، أَشَدَّ حصار، فكانت أهلها فيها فئتين؛ ناس مع بني أمية، وناس مع بني العباس.

وقد ذكر الشيخ [عماد] الدين ابن كثير في تاريخه: أنهم كانوا يصلون في الجامع خطبتين؛ خطبة لعصبة بني أمية، وخطبة لعصبة بني العباس، ثم إن أصحاب بني العباس غلبوا أصحاب بني أمية، وفتحوا أبواب دمشق، ودخلها عبد الله بالسيف. قيل: قتل منها ما ينيف على عشرين ألف روح.

فحظ النفس قديم، والفتن قديمة. وبقي بعض المناحيس لا يعتبر بها الناس فيه من

الضيقة، والناس يدعون، ويتضرعون [٣١أ] إلى الله تعالى أَنْ يكشف عنهم هذه الشدة، وبطلت القضاة الحكم، والحجاب.

ولم يبق أحد يحكم في أحد، وكل من في خاطره شيء يعمله، لا يأخذ أحد لأحد بثأر، وتجهرموا(١) العوام على قتل النفس.، وأعجب ما رأينا في تلك الأيام أن الناس يتضاربوا على القتلى، يقول هذا: (أنا قتلته !)، ويقول الآخر: (لا، بل أنا قتلته !)، ويفتخروا بقتل الأنفس، فلا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فسبحان من له الحكم، والتدبير في خلقه؛ المُلْكُ مُلْكُه، والعباد عباده، والحكم حكمه، لا رادَّ لما قضى، وإنما يجب على العبد عند حلول المصائب أن يقول: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وزادوا الناس في الكذب حتى بقي الذي يتكلم صحيح نادر، وقد أجاد قائل هذه الأبيات: [البسيط]

لـو يَخْسِـفُ اللهُ أرضـاً أَهْلُهَـا كَـذَبُوا ... كانـت دِمَشْـقُ بِنَـا مـن كِـذبِنَا خُسِـفَتْ
والكـذِبُ لـو يَنْسِـفُ اللهُ الجِبَـالَ بِـهِ ... كَانَـتْ جِبَـالُ بِـلاَدِ الشَّـامِ قَـدْ نُسِـفَتْ

وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول الشاعر حيث يقول شعراً: [السريع]

اسـتعملِ الصِّـدْقَ وَلَـو أنَّـهُ ... أحرقَـكَ الصِّـدْقُ بِنَـارِ الوَعِيـد
وَاجْتَنِـب الكـذِبَ فَبِـئسَ امْـرُءٌ ... يُغْضِـبُ مَـولاَهُ، ويـرضِي العَبِيـد

لكنَّ الربَّ، سبحانه وتعالى، كريم، وقد قال في كتابه العزيز: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠].

وكلما جاء في الناس من القضاء، علامة للسخط ليس علامة للرضاء، وذلك لأن نياتهم تغيَّرت وعقولهم تحيَّرت، وفَشَتْ القبائح، وظهرت الفضائح، واستحلوا أكثر الناس الحرام؛ وبلغ الشيطان منهم ما رام، وارتفع النذل وساد، وقلَّ الصلاح وكَثُرَ الفساد، وقد أجاد صاحب هذه الأبيات حيث يقول: [الوافر]

---

(١) تجهرموا: ظلموا وهي كلمة عامية.

يَقُولُــــونَ الزَّمَــــانَ بِـــهِ فَسَــــادٌ وَهُــمْ فَسَــدُوا، ومــا فَسَــدَ الزَّمَــانُ

وقد قال بعض السلف: (ما لنا ندعو الله تعالى، ولا يُسْتَجَابُ لنا ؟) فقال له بعض الصالحين: (لأنَّ قلوبكم ماتت في عشر خصال، عرفتم الله تعالى ولم تُؤَدُّوا حَقَّهُ، وقرأتم كتابه ولم تعملوا بها فيه، وقُلْتُمْ أنكم تُحِبُّونَ رسول الله (ﷺ) وتركتم سُنَّتَهُ، وعرفتم عداوة الشيطان، وأطعتموه.

وادَّعيتم حُبَّ الجنة ولم تعملوا لها، وقلتم أنكم تكرهوا النار، وقد أرهنتم أنفسكم بها، وذكرتم عيوب الناس ونسيتم عيوبكم، وأكلتم نعمة الله تعالى ولم تُؤدوا شكرها، وعمرتم الدنيا وخربتم الآخرة، ودفنتم أمواتكم ولم تعتبروا بهم. ولولا فساد أحوال الورى، ما جرى عليهم وعلينا ما جرى.

وفي الخبر عن سيِّدِ البشر: «**ما نَزَلَ من السَّماءِ بَلاءٌ إلا بِذَنْبٍ، ولا ارتفع إلا بتوبة**».

اللهم تُبْ علينا وارحمنا يا [٣٢ب] أرحم الراحمين !، ويجب على الإنسان أن يعتبر بكلام هذا الرجل، والسلام.

ثم نعود إلى كلامنا. وبقيت الناس في خوف إلى يوم الاثنين ثامن عشرين شهر القعدة، أتت الكشافة إلى نائب الشام، وأخبروه أن السلطان برقوق قد ركب ومعه عساكره قاصدين دمشق، ففي الحال طلب النائب أهل ميدان الحصى، وفرَّقَ عليهم النُّشَّاب، وطلعت العوام للقتال بجلُودهم، ودقَّت الكوسات على القلعة، وخرجت الناس إلى عند جسر الفجل، وتبارز الفريقان، وتقاتل الصفَّان، وصاحت العوام عليهم ورموهم بالحجارة.

وجرح في ذلك اليوم خَلْقٌ كثيرٌ من العوام، والترك، ولم يزالوا في قتال إلى بعد الظهر، فرجع السلطان ومن معه ولم ينالوا من القوم غرض وازداد السلطان غيظ على العوام مما رأى منهم، ورجعت العوام، والترك وهم فراحى، وقويت قلوبهم ولم يبقوا يهابوا الموت، وفرح [٣٣أ] بهم نائب الشام وشكرهم على فعلهم وانقضى ذلك اليوم، وأهل المدينة مستظهرين على السلطان.

وبعد قليل تواتر الأخبار من حلب بخروج كمشبغا نائب حلب، وطرنطاي، والهيذباني، وابن السرادارة، وبكلمش وسنقر، وعدَّة أمراء وخلائق معه لا عدد لهم نهَّابة ومناحيس، فازداد خوف أهل الشام لمَّا بلغهم أنهم جايين إلى السلطان برقوق نجدة، وعظمت القضية على أهل دمشق.

وفي يوم الخميس دقَّت الكوسات في وطاق السلطان، وسبب ذلك أن إينال وقجماس ابن عم السلطان حضروا إليه، ومعهم رجال من قلعة الصّبيبة، وقلعة صفد، وقوي جمعهم، وكل ما لهم في زيادة، وفرح بهم السلطان.

وفي نهار الاثنين دقت كوساتهم وركبوا وزحفوا على المدينة كلهم مثل فرج الله، وأولاد منجك، وابن الشيخ علي، وإينال، وقجماس، والعشران، والعرب، وأكمنوا العشير القيسيين في كمين برسم العوام، فلما سمعوا [٣٣ب] بهم أهل المدينة خرجوا لهم على عادتهم إلى عند جسر الفجل، وتلاقيا الفريقان، وتقابلا بالطعن، والضرب، والعوام ترميهم بالحجارة.

ثم إن أصحاب السلطان وَلُّوا قدَّامهم هاربين، فتبعتهم العوام طمعاً فيهم إلى آخر العمارة، ثم إن عسكر السلطان ردَّ عليهم، والترك الذي معهم، وخرج عليهم الكمين فردُّوا عسكر الشام هاربين إلى عند جسر الفجل وتفرقوا، فمنهم ناس لهم قوَّة على الجري لم يلحقوه، والذي لم تكن له قوة على الجري لحقوه العشير قتلوه.

ومنهم من هرب إلى بستان بيدمر ومنهم أناس دخلوا إلى جامع كريم الدين وغلَّقوا بابه، وقد قتل من العوام خلق كثير ومسكوا منهم جماعة وردَّهم إلى عند السلطان برقوق، فرسم بقطع أيديهم فقطعوا منهم سبعة، وفرَّج الله تعالى عن الباقي.

وأما الذين في جامع كريم الدين؛ فإن فرج الله وقف على باب الجامع وفتح الباب وقال للعوام: (إيش حالكم فيمن يقتلكم كلكم عن آخركم ؟) فقالوا: (الأمان !) ودعوا له [٣٤أ] فَأَمَّنَهُمْ، وأطلق سبيلهم.

وقال لهم: (كلّ من معه سلاح يرميه، وينجو بنفسه، ولا تعودوا إلى مثلها). وبقي

كلّ من يخرج إلى قدّام يَعروه أهل حارة الكلاب. فوصل الخبر إلى المدينة بكل ما اتفق لهم.، وكان يوماً مهولاً، والناس في بكاء شديد. كل منـــهم يبكي على أهله، أو على أولاده، أو على أصحابه، لاسيما لما جاؤوا الذين قطعت أيديهم، ودارت الدوائر على أهل دمشق في ذلك اليوم.

وفي اليوم الثاني رسم نائب الشام للعوام وقال لهم: (أي من جاب لنا راس ابن آدم من العشير، أو من أصحاب برقوق أعطيناه دينار). فبقيت الناس أيّ من أحضر رأس يعطوه دينار خفيف زنته ربع دينار، فيأخذوه منه، ويرموه في الخندق، وبقيت الناس في ضيقة. اللهم فرج ضائقة المسملين !.

ثم بعد أيام قلائل وصل خبر كمشبغا نائب حلب؛ أنه وصل إلى عند السلطان ومعه خلائق، ودقت له الكوسات في الوطاق ففرح بهم السلطان، وقويت شوكته.

وأما أجناد مصر، وَقْتٌ [٣٤ب] يظهر خبرهم، ووقت يختفي، والناس في انتظارهم. ولما وصل كمشبغا إلى عند السلطان أشار عليه وقال له: (إيش قاعد تعمل ؟ قوم حتى نضرب معهم رأس).

قال السلطان: (أنا كل وقت أضرب معهم راس، وروح أنت إليهم) فركب كمشبغا، وأصحابه الحلبيين وعساكر السلطان، وذلك يوم السبت مستهل شهر الحجة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة.

وزحفت عساكر السلطان إلى جسر الفجل فقاتلوهم أهل ميدان الحصى، والشويكة، والعوام إلى العصر، فعند ذلك رجع عسكر السلطان إلى الوطاق وعسكر دمشق إلى دمشق، وقد قاتلوا العوام ذلك اليوم قتال شديد حتى كان أحدهم يقتل فيجروه برجله يرموه في مكانه، ويقف مكانه غيره يقاتل بجلده بقلوب مثل الجبال.

ولم يكن في ظنٍّ أحد أنهم يقاتلوا هذا القتال، ويظهروا عن هذه الشجاعة، فلله درهم فإنهم احموا بلدهم، وأهلهم، وأموالهم وحريمهم، كيلا تصل إليهم الفرقة الباغية، والأمور كلها بمشيئة الله [٣٥أ] تعالى، فإن الله تعالى هو الفعَّال لما يريد.

ثم إن كمشبغا، والعساكر ركبوا أيضاً ثالث يوم وفرَّقهم فرقتين، فجاءت الفرقة الواحدة إلى أهل جسر الفجل واشتغلوا الناس بهم، والفرقة الثانية خرجت من خلفهم من ميدان الحصى ورموا النار في البيوت، والسوق، وطلعوا من خلفهم من ميدان الحصى، فهربوا الناس ورُدُّوا إلى عند باب النصر.

وقد قتل في ذلك اليوم خلق كثير، وأحرقوا ميدان الحصى، والسوق العتيق، وبقيت تلك الأرض كما قال الله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

واحترق في ذلك اليوم أطفال كثيرة، وكبار، ونهب أموال، وسبي حريم، واحترق السوق الذي عند المُصَلَّى، وأحرقوا حمَّام بيدمر، وفعلوا في ذلك اليوم كُلَّ قبيح.

وكانت الدائرة على أهل دمشق، وبقيت النار تعمل، والناس يبكوا، والنساء مهتكات، ولم يُرَ مثل ذلك اليوم قط فإنه كان يوم مهول، قَبَّحَهُم الله تعالى، ما كان أقسى قلوبهم، وقد عاينت الناس الهلاك في ذلك اليوم إلى العصر وردّوا إلى الوطاق، وباتت الناس في ليلة عجيبة.

وكان [٣٥ب] هذا كله برأي كمشبغا؛ هو الذي أشار بحريق تلك النواحي كلها، وصار كمشبغا من ذلك اليوم يحرق، وانفتحت عيون الناس إلى النهب، والحريق، وهذا جميعه في موازينه ما هو قليل، وفي الحديث عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**من سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فله أجرها، وأجرُ من عَمِلَ بها إلى يوم القيامة، ومن سَنَّ سُنَّةً سيئة فعليه وزرها، ووزرُ من عمل به إلى يوم القيامة**»(١).

وكمشبغا هو أول من أحرق في دمشق حريق.

ولما كان يوم الثلاثاء أمر نائب الشام أن يحرقوا دكاكين السماسرة التي خارج باب

---

(١) ورد الحديث في مسند أحمد بن حنبل ٤/ ٣٦١، ٣٦٢، مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٦٧، ١٦٨، اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/ ٣٠٢، الكامل في الضعفاء لابن عدي ٥/ ١٧٠٧، الدر المنثور للسيوطي ٢/ ١١٥، مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٩٤، فتح الباري لابن حجر ٢/ ٣٣١، كنز العمال للمتقي الهندي ٤٣١٢٦.

الجابية، وسوق الحدادين الذي ظاهر السور، والخشّابين الذي خارج باب الصغير، فإنَّ أهل السور كانوا ينظروا منهم يطلعوا على أصحاب السلطان، ويرموا عليهم منهم، فلأجل ذلك أحرقوهم وعملت النار في تلك المواضع، أجارنا الله تعالى منها، ولقد رأيتُ الحدَّادين، وقد نادتهم بلسانها من مكان بعيد ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ [الكهف: ٩٦].

وعملت النار في جوانب المدنية ورمت الناس نفوسهم إلى التلاف، وشرعوا في خراب البيوت، وأخذ الأخشاب من قلة السبب، حتى قالت الناس إن دمشق ما بقيت تعمر كما كانت، والنار تعمل في تلك المواضع، وأملاك الناس تحترق، وأموالهم تحرق وتنهب، وكم من رجل تلا في ذلك اليوم عند حريق بيته ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ [المسد: ١] وخرج هارباً ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ ﴾ من خلفه ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ ﴾.

ولما أحرقوا قيسارية[1] بيدمر، وما حولها، وعملت النار فيها ومحيت رسومُها، بقوا الناس يتلوا قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾ [الجمعة: ١١].

وأضرمت النار في تلك المواضع، والناس يبكون، وخرجت تزمر بحرٍّ تنانيرها في برد كانون، وقد قبحت وهي عدو لنا، ومن أين للعدو إحسان ؟.

وقد قابلتنا بألف وجه لها، وألف لسان، وقد تعلق شَرَرُ النار بأذيال السحاب، حتى همَّ نسر الجامع أن يطير إلى ثنية العُقاب، ولما عملت النار وطار شرارها، تمنت عروس [٣٦ب] الجامع أن تكون جاريةً لحماتها. وبقوا أصحاب السلطان يحرقوا، وينهبوا، وأهل القلعة يحرقوا الذي هو حوالي القلعة خوفاً عليها.

وقد احتاطت النار بالمدينة من كل الجهات وتغيرت أحوالها، ودارت عليها الدائرة، وأصبحت بعد الأمن مخيفة، ومن روائح الحريق، والقتلى جيفة، حتى أحزنت القريب،

---

(١) القيسارية: فندق كبير أشبه بالسوق مخصص للتجار الغرباء كانوا يضعون بضائعهم في أسفله، وينامون في أعلاه وجمعه قياصر وهي كلمة لاتينية نسبة إلى قيصر.

والبعيد، والأمر كله إلى الله فيما يريد، ولبست من المآثم ثوب السواد، وصارت كما قال القاضي محيي الدين القلانسي حيث يقول شعراً في المعنى: [الكامل]

يــا جِلَّــقُ الخَضْرَا وُقِيْــتَ الــرَّدَى مَــاذَا كَسَــى الأَغْصَــانَ صِبْغَ سَــوَادِي
قَالَــتْ لَقَــدْ فَارَقْــتُ أَهْــلَ مَــوَدَّتِي فَلَبِسْــتُ للأَحْــزَانِ ثَــوْبَ حِــدَادِي

وقد قال القاضي نور الدين ابن مصعب في المعنى: [الوافر]

لَهَفِــي عــلى هَيْــفِ الغُصُــونِ وَلُبْسِــهَا مِــنْ بَعْــدِ خُضْرَتِهَــا لِبَــاسَ سَــوَادِي
وَأَظُنُّهَــا حَزِنَــتْ لِفُرْقَــةِ أَهْلِهَــا [٣٧ب] فَلِــذَاكَ قَــد لَبِسَــتْ ثِيَــابَ حِــدَادِي

واستمرَّت الناس في ضيقة، والحريق، والنهب، والقتل عمَّال فيهم على تلك الحالة، ودخل العيد المبارك، والناس في حال عجيب، فنسأل الله السلامة.

وفي يوم الثلاثاء ثالث العيد ركبوا عساكر السلطان كلهم وزحفوا على المدينة وتفرقوا على أبواب المدينة وقاتلوا في ذلك اليوم قتال شديد، وأكثر ذلك كان على باب كيسان، وقتل في ذلك اليوم جماعة كثيرة إلى العصر، فرجع أصحاب السلطان إلى الوطاق وسكن القتال.

وجرى في ذلك اليوم حكاية عجيبة وهي أن أحد الصبيان ـ من حارة اليهود ـ مسلم بقي وقت الحصار يقف على السور يتفرَّج فخافت عليه أمُّه كيلا يجيء فيه حجر، أو نشاب فيموت، فحبسته ذلك اليوم في بيت وقفلت عليه الباب، فجاء حجر المدفع الذي كانوا يرموا به أصحاب السلطان فخرق الحائط الذي فيه الصبي، ووقع الحجر عليه فقتله. فانظر يا أخي إلى هذا الأمر العجيب ! لا مَفَرَّ من القضاء، ولقد صدق القائل حيث يقول شعراً: [الكامل]

والمَــوتُ لا يُنْجِيــكَ مِــنَ آفَاتِــهَ حِصْــنٌ وَلَــو شَــيَّدتَهُ بالجَنْــدَلِ

وبقيت الناس على الأسوار ما يناموا لا ليل، ولا نهار، وأجناد الشام مفرقين على أبراج السور. وقعد قاضي القضاة ابن القرشي في بُرْجِ الدُّعاء، وناعي منيته خلفه قد

نعى، ويقي يقعد عنده مثل ابن المنكورسي، وابن منهال، ومثلهم من الرجال الجهال، وجرى في ذلك البرج المعمور أمور، وأيّ أمور، كما قال فيها الشاعر حيث يقول، شعر مفرد: [الوافر]

أُمـــوراً تَضْـــحَكُ السُّـــفَهَاءُ مِنْهَـــا وَيَبْكِـــي مِـــنْ عَوَاقِبِهَـــا اللَّبِيـــبُ

ويركب بالسلاح، ويدعي الصلاح، ويقول: (يا أعوام أفعالكم مليحة !) وهذا من باب حظ النفس لا من باب النصيحة، وصار يحرِّضُ الناسَ على القتال لغرضه، وهذا [٣٨أ] من أقبح الأفعال، فما سمع حديث سيدنا رسول الله (ﷺ)، «**إذا التقى المسلمان بِسَيْفَيْهِمَا فالقاتل، والمقتول منهما في النار**»[1].

قيل: (يا رسول الله ! هذا القاتل فما بال المقتول ؟) قال: «**لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه**».

وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة: ١١١].

وهذا إنما هو في قتال المسلمين للكفَّار. لا في قتال المسلمين للمسلمين.

والقاضي الذي يكون متولي أمور المسلمين ينبغي له أن يكون كما كان القاضي عافية، رحمه الله، ولاَّه المهدي قضاء بغداد فأتاه في بعض الأيام ودخل عليه حتى يعزله، فسأله عن سبب ذلك فقال: (يا أمير المؤمنين أتاني رجلان في دعوى، وكل منهما يدعي أنَّ الحق معه، فلمَّا طال الشرح دفعتهما عني فذهب الواحد منهما إلى بوابي، وسأله ما الذي يحب القاضي من المآكل، فقال [٣٨ب]: يُعجبه الرطب.

---

(١) ورد الحديث في: صحيح البخاري ١/ ١٥، ٩/ ٥، م الفتن ١٥/ ن/ ٧/ ١٢٥، السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ١٩٠، شرح السنة للبغوي ١٠/ ٢٢١، مشكاة المصابيح للتبريزي ٣٥٣٨، فتح الباري لابن حجر ١/ ٨٥، حلية الأولياء لأبي نعيم ٣/ ٣٠٣، ٦/ ٢٦٢، التاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٥٠٣، اتحاف السادة المتقين للزبيدي ١٠/ ٩، ٧/ ٢٩٦، الضعفاء للعقيلي ٤/ ٢٢٣، الكامل في الضعفاء لابن عدي ٧/ ٢٦٧٠.

وكان الرطب أول ما دخل، فراح الرجل، وأحضر منه شيء له قيمة، وجاء به إلى البواب وقال له: أوصله إلى القاضي، وكنت أنا غائب فأعطاه الغلام لأهل بيتي، فلما جئت رأيته قلت: من جاءنا بهذا ؟ فقالوا البواب، فخرجت إليه وسألته عن ذلك فقال: فلان الذي كان يتحاكم هو وفلان عندك، فسكتُّ ولم أَذُقْ منه شيئاً. فلما أصبحتُ وجلستُ للحكم بين الناس جاء الرجل ومعه غريمه، فرأيتُ نفسي تميلُ إليه على غريمه، فدخلتُ إلى البيت، وأخرجتُ إليه رطبه ودفعتها عني. فهذا حالي، وما أكلتُ من الرُّطَبِ شيئاً فكيف لو أكلتُ منه ؟) .

فعلم المهدي صدقه وعزله من القضاء بحسب سؤاله فرحمه الله تعالى. فهكذا ينبغي أن يكون حكامنا، أصلحهم الله تعالى، فعليك بحكام هذا الزمان؛ يرتشون، ويرشون على المناصب، ولا يعطوا درهم لفقير، وجميع ما يجمعوه يبرطلون به للظلمة، ولا يمشي لهم حال، وقد حفظوا قول القائل شعراً: [الوافر]

فَبَرْطِلْ إِنْ أَرَدْتَ يَمْشِي فَمَا يَمْشِي سِوَى حَالُ المبَرْطِلِ

وقال بعضهم: (البرطيل حكيم، والدنيا محبوبة، والرياسة فيها مطلوبة).

حكاية في المعنى

قيل إن بعض الناس كان جالساً يَسْهَر في شغلٍ له، وإلى جانبه طاسة[1]، وإذا بفأرتين قد خرجتا من مكان وبقيا يجوا إلى عنده وزادوا عليه، فمسك تلك الطاسة بيده ورماها على الواحدة فوقعت عليها فبقيت تريد تتخلص من تحت الطاسة وتريد الخروج فلم تقدر.

فجاءت إليها الفأرة الأخرى فبقيت تدور حول الطاسة كأنها تطلب تخلُّصها، فما تقدر. فلمَّا عِيْلَ صَبْرُهَا، وقلَّت حيلتها، وعرفت أنه لم يبق لأختها خلاص، ذهبت إلى وكرها ودخلت فيه، وخرجت ومعها دينار في فمها، وجاءت فرمته عند صاحب

---

(١) الطاسة: كوب من النحاس أو الألمينيوم يشرب به.

الطاسة وراحت عند الطاسة تدور حولها. قال: فبطل الرجل شغله، وأخذ ذلك الدينار، وقد فرح به، وصار ينظر إليها ساعة.

ثم إنها ذهبت إلى وكرها، وأحضرت دينار آخر فرمته عنده، وراحت إلى عند الطاسة [٣٩ب] تدور حولها ساعة وهو يتفرَّج، وقال في نفسه: لعلها تجيب زيادة، ثم إنها ذهبت غابت ساعة وجاءت بدينار فرمته عنده، ولم تزل تعمل هكذا حتى نقلت نحو عشرين دينار.

فبطل الرجل شغله وصار يتفرَّج عليها كيف تنقل الذهب وهو لا يخلِّص أختها، ثم إنها ذهبت غابت ساعة وجاءت ومعها خريطة عتيقة ورمتها عنده، فعلم الرجل أن ما بقي عندها شيء، وقد أنصفته فقام وشال الطاسة عن أختها فأخذتها وراحت ولم تخرج بعدها وهذا عجيب.

حكاية مثلها في المعنى

لقد حكى لي بعض أصحابي قال: (خرجت من دمشق إلى القُدس الشريف أزور، فنزلت في الطريق في بعض الخانات، وكان برد ومطر، فاجتمعنا جماعة في بعض بوائك[1] الخان، في جملتهم قرَّاد معه قِرد كبير، وزوجته وشيء يركبوا. فقعدنا نتحدَّث، وكان ليل طويل، فصار القرد يتناعس، ويتناول، ويقعد فقلتُ في نفسي، هذا القرد يريد يعمل شيء، لأنه يتناعس يريد ينومنا [٤٠أ]، فجعلتُ بالي منه وصرت أرصده.

وناموا الجماعة كلهم ونمت أنا، وأنا لست بنائم، وقصدي أنظر إيش يعمل؛ فلما رأى الجماعة قد ناموا كلهم قعد وقام إلى عند زوجة صاحبه القرَّاد استفضَّها، فلما نظرتُه قعدْتُ، فلما رآني رأيته، ذهب إلى خرج صاحبه فنبشه، وأخرج منه صرة مقدار خمسين درهم، وجاء بها إلى عندي، يعني خذها، ولا تتكلم فأخذتُها وسكت ونمت، وأنا متعجب غاية العجب لما أبصرت.

---

(١) الباكة: كلمة عامية تطلق على مأوى الدواب.

فلما أصبح الصباح وجلسنا، قعد القرَّاد فوجد خرجه منبوش، وقد راحت منه الدراهم، فقال: يا خاني؛ لا تفتح الباب. راحت لي دراهم وقردي يعرف الذي أخذها، فإنه ينطرنا إذا نمنا. فقفل الخاني الباب؛ فخفت أنا وقلت لعلّه يُقِرُّ عليَّ، فبقيتُ حائراً كيف أعمل. إن أخرجتها وحكيتُ لهم ما جرى ما يصدقوني فسكتُّ.

فلما طلع النهار اجتمع كل من في الخان، وكانوا ناس قلائل، وفي جملتهم يهودي، وصار القرد يميِّزُ الناس واحد واحد حتى جاء إلى عند اليهودي تعلّق [٤٠ب] فيه وصار يُعيّط. فقال الناس: ما أخذ دراهم القرَّاد إلا اليهودي، وهو يحلف أنه لم يأخذ شيء، ففتحوا الباب. فزاد تعجبي من القرد كيف تعلَّق على اليهودي، ولا تعلَّق على مسلم.

وأخذ اليهودي القرَّاد إلى عند الوالي حتى يضربه فقلتُ في نفسي، هذا ما هو مصلحة، أدخل إلى الحاكم، وأخبره بما رأيت، فدخلتُ إلى عنده، وقد ربطوا اليهودي حتى يضربوه فقلت، لا تضربوه ما أخذ شيء، وحكيتُ له الحكاية كما جرت، وأعطيتُ الدراهمَ لصاحب القرد، فرسم الحاكم أنَّهم يقتلوه أي القرد فربطوه وذبحوه. وهذا من أعجب ما رأيت).

فانظر يا أخي إلى هذين الاثنين: القرد، والفارة، كيف عرفوا أنهم إذا برطلوا ينقضي شغلهم، فبني آدم أولى بهذا الأمر.

ثم نعود إلى كلامنا، ثم إن عسكر السلطان ركبوا جميعهم يوم الخميس، وجاؤوا كلهم يداً واحدة، ودقَّت الكوسات وتفرَّقوا على المدينة ومعهم الزحَّافات، كل ناس في مكان يحاصرون، فراح إينال، وطرنطاي، وبنخاص من على الشرف الأعلى [٤١أ]؛ فوقف إينال عند بيته، ونزل طرنطاي وبنخاص من دار البطيخ إلى عند باب الفرج، وحارة الحمص، والطواقيّين، فأحرق طرنطاي الطواقيّين، وعملت النار فيها، وطلع العشير فنهب تلك المواضع وفعلوا كُلَّ قبيح، وصار كأنه قندس[1] أيّ من شمّه عطس،

---

(١) القندس: لم أقف لها على معنى ولعلها كلمة تعني نباتاً ونوعاً من العطوس.

وأقعد أهل الطواقيّين على قوالبهم، وما أبقى مجهود في ذلك اليوم، ولم يبلغ مطلوب.

وراحت فرقة مع كمشبغا، وإياز، والهيذباني، إلى باب توما، وباب السلامة، والشلاحة، وقد ذابت من أهلها لكبود، وتفطرت منهم القلوب، وأحرقوا في ذلك اليوم أطراف السبعة، أعيذها بالسبع المثاني، والقرآن العظيم، وعملت الناس في ذلك اليوم عمل عظيم حتى لم يقدر أحد من أصحاب السلطان يصل إلى السور إلاَّ هلك، ورُدُّوا خائبين.

وفرقة مع السلطان؛ مثل فرج الله، وأولاد منجك، وابن الشيخ علي، وغيرهم من الأمراء جاؤوا إلى باب الجابية، وباب الصغير، وحاصروا أشد حصار، وصاروا يركضون [٤١ب] على قبور الشهداء بالخيل، والرجال، وخسفوا أكثر القبور فذكرتُ عند ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الإنفطار: ٤].

وقد أجاد ابن المعمار حيث يقول: [السريع]

عُمْرٌ جَفَاكُمْ مِثْلَ عُمْرِ النُّسُورِ ... وَوَصْلُكُمْ مِيعَادُهُ للنُّشُور

ولا أراكُمْ تَسْمَحُوا باللِّقَا ... إلاَّ إذا بُعْثِرَ مَا في القُبُور

ونزل منهم فرقة من على حكر السماق إلى خان منجك، وخان البيض، وناس إلى عند باب الميدان إلى تحت الطارمة[1]، ورموا على القلعية نشاب كثير، ورمت القلعية عليهم أيضاً، وجرح من الفريقين.

وقتل في ذلك اليوم كثير وصاروا أصحاب السلطان ينظرون إلى أبراج القلعة، وهم أعلى من الهقعة[2]، فقلتُ عند ذلك، (أعيذها قلعة، بالسماء ذات البروج). وصارت تنجلي عروس الطارمة للحرب، ولم ترضَ منهم بغير الأرواح مهر، وقد أدارت على معصمها الأبيض سوار النهر، وقد أجاد القائل حيث يقول شعراً [الوافر]

---

(١) الطارمة: بيت من خشب كالقبة، كلمة معربة، اللسان (طرم)، وورد في مروج الذهب ٦/ ٤٢٦: هي قبة من خشب نفيس تبطن بأنواع الحرير والديباج والأبريسم.

(٢) الهقعة: نجم معروف.

وقَلعَةُ جِلَّقٍ بِكْرٌ جُمَانٌ عَلَيهَا مَا لِنَاكِحِهَا اقتِدَارُ
أَسْوَارُهَا كالسِّوَارِ تَلَوَّى فَحاشَا أَنْ يُكَفَّ لَهَا سِوَارُ

وقد دارت أصحاب السلطان في ذلك اليوم بالأسوار، كما يدور بالمعصم السوار، وترجَّل أصحاب السلطان، وركب العوام على الأسوار، ولم يزالوا على هذا الحال إلى قريب العصر، ولم يبقوا في ذلك اليوم مجهود، وقدعرفوا أنهم لم ينالوا من المدينة مقصود، ورُدُّوا خائبين إلى الوطاق، وقد أبصروا ما هالهم في ذلك اليوم من الشلاق[1]، وقاتلوا أهل المدينة في ذلك اليوم من أعلى السور قتال شديد، وجرح منهم خلق كثير.

وعمل شهاب الدين الزردكاش وصبيانه في ذلك اليوم على أبواب المدينة عمل هائل بالمكاحل[2]، والأسهم الخطائية[3]، حرّموا أحداً من أصحاب السلطان يقرب إلى السور، وبقيت الأسوار في ذلك اليوم من الزحمة ما يقدر أحد يشق إلاَّ بالكتف، والناس بين قتيل وجريح، والناس في [٤٢ب] تهليل وتكبير يتضرعوا إلى الرب القريب المجيب، وردوا أصحاب السلطان، وسكن القتال.

ونزلت الناس إلى بيوتهم، ولم يروا مثل ذلك اليوم في الحصار، والمدينة قد امتلت ناس من الغوطة، والمرج، وغير ذلك، وقد سكنوا في الجوامع، والمدارس ولم يمنعهم أحد، وقد امتلت الكلاسة نسوان، وأطفال ورجال، وبقيت الناس في قلة ماء، وجوع، وبرد، وخوف.

ومع هذا كله ـ بحمد الله تعالى ـ كان الخبز موجود، والماء شربة بفلس على العادة، والرب كريم إذا أبلى يعين. وفتحوا صهريج الجامع فكان يكفي أهل الجامع وغيرهم،

---

(١) الشلاق: الضرب، اللسان (شلق)

(٢) المكاحل: المدافع، والكلمة غير عربية.

(٣) الأسهم الخطائية: منسوبة إلى بلاد الخطا في الصين، انظر تفصيلات مسهبة حولها في كتاب (بغية الرامي) من تحقيقنا تأليف طيبغا البكلميشي.

وقد جبّز[1] الناس المدرسة الذي داخل بين ابن قراسنقر، فإن ماؤها من عين الكرش داخلة إلى المدينة، وانتفعوا بها كثير من المسلمين.

فرحم الله تعالى واقفها، فإنَّه من أولاد بني أيوب أقارب صلاح الدين يوسف، فهو الملك الحافظ غياث الدين محمد بن شاهٍ شاه، بن بهرام شاه بن فرّوخ شاه [٤٣أ] بن شاهٍ شاه بن أيوب بن شاذي، رحمه الله تعالى.

كان صاحب بعلبك فأخذت منه، وأقام ملازم داره ومدرسته المعروفة بالقدميّة جوّا باب الفراديس، عمل هذا المعروف للمسلمين، وانقضت أيّامه في هناء وسرور، وتوفيَّ في شهر شعبان سنة ثلاث وتسعين وستمائة، ودُفِنَ في تربته المذكورة رحمه الله تعالى.

ثم نعود إلى كلامنا. وفي يوم الخميس ثامن عشرين شهر الحجة ركبت عساكر السلطان وزحفوا على المدينة، وكان أكثرهم على باب كيسان، وباب الصغير، وأحرقوا في ذلك اليوم حريق كبير في الشاغور، واحترق فيه جامعين، وأحرقوا أيضاً زاوية المغاربة خارج باب الصغير، وما أبقوا مجهود، ورُدُّوا إلى الوطاق خائبين.

سنة ٧٩٢/ ١٣٩٠... حصار دمشق

ثم استهلت سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة يوم الاثنين، والناس في ضائقة عظيمة، وعساكر المصريين وقت يظهر خبرهم، ووقت يختفي، والناس [٤٣ب] يتحدثوا زائد وناقص، ولا فيهم أحد يصدق في أخبار مصر، وقد عاينت أهل دمشق الهلاك في تلك الشهرين، أو ثلاثة: حصار وخوف، وغلاء وقلة ماء وبرد، فنسأل الله تعالى أن يرد العاقبة إلى خير، يا رب العالمين! وهم معذورين فإنهم لم يبصر أحد منهم حصار، ولا وقائع، وكانت الناس في إطمئنان وخير فلما رأوا ذلك هالهم وهذا ليس بعجيب. فإن دمشق معودة على الحصار وغلق الأبواب، والقتال على الأسوار.

وقد ذكر الشيخ عماد الدين ابن كثير، رحمه الله تعالى، في تاريخه: بأن عبد الله بن علي

---

(١) جبز: قطع، اللسان (جبز).

بن عبد الله العباسي عمَّ السفاح ـ أول خلفاء بني العباس ـ لما أخذوا الخلافة من بني أمية في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وهرب من دمشق مروان الحمَارْ، آخر خلفاء بني أمية، نزل عليها عبد الله بجيوشه ينيف على عشرين ألف روح، وقد ذكرنا هذا في غير [٤٤أ] هذا المكان ن، وقد ذكرناه في هذا الموضع لهذا السبب مختصر.

ثم حاصرها بعده القرامطة، قبَّحهم الله، وقد ذكرناهم وعقائدهم وكيف كان بدء أمرهم وكيف دخلوا إلى الكعبة، وأخذوا الحجر الأسود منها وبقي عندهم نحو العشرين سنة، وهكذا ذكرهم الشيخ المسعودي في كتابه (مروج الذهب) رحمه الله تعالى.

ثم حاصرها سيف الدولة بن حمدان، ثم حاصرها صاحب مصر أحمد بن طولون مدة، وأخذها وحكم بها [وهو] صاحب الجامع الذي بالقاهرة، وقد ذكرنا له ترجمةً حسنةً في غير هذا الموضع في كتابنا المُسَمَّى (بِدُرَرِ الأفكار في غرائب الأخبار).

ثم حاصرها عماد الدين زنكي أبو نور الدين الشهيد، رحمه الله تعالى، ولم يقدر عليها، ورحل عنها إلى بعلبك وحاصرها، وأخذها وخلاً بها من جهته نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين يوسف، رحمه الله تعالى.

ثم حاصرها نور الدين الشهيد ثلاث مرات، وأخذها في المرة الثالثة في سنة [٤٤ب] سبع، وأربعين وخمسمائة، وكانوا نوابها يسموا بيت طغتكين، وكان صاحبها يومئذ ـ لما أخذها نور الدين الشهيد، رحمه الله تعالى ـ مجير الدين. هكذا ذكره صاحب كتاب (كشف الكروب في أيام ملوك بني أيوب).

ثم حاصرها الملك العزيز بن صلاح الدين يوسف وطلب يأخذها من أخيه الملك الأفضل مدَّة ولم يأخذها.

ثم حاصرها وزير الملك الصالح أيوب المعروف بمعين الدين، وكان صاحبها الملك إسماعيل بن الملك العادل، فحاصرها معين الدين ستَّ شهور أشدَّ حصار، وقطع عنها المياه وذاقت الناس فيها من الغلاء، والوباء شدة عظيمة، وبلغت غرارة[1] القمح فيها

---

(١) الغرارة: مكيال للحبوب كنوع من الأكياس من الصوف أو القنب، اللسان (غرر).

إلى ألف وستمائة درهم.

ثم حاصرها هلاكون ـ قبّحه الله تعالى ـ، وأخذها ولم يأخذ القلعة، في سنة ثمان وخمسين وستمائة.

ثم حاصرها قازان ودخلها، وقعدت التتر بها مدة، ولم يأخذ القلعة، وذلك في سنة تسع وتسعين وستمائة، وجاء [٤٥أ] فكسرهم، وأخرجهم منها الملك المظفر قُطز، والتقى[1] هو، والتتر على عين جالوت وانكسروا التتر، وأخذوا منهم المسلمون شيء كثير، وكان نائب القلعة أرجواش، رحمه الله تعالى.

لكنَّ أبناء هذا الزمان معذورين لأنهم ما رأوا حصاراً قبل هذا، ولا قاسوا شدَّةً فيها مثل ما قاسوا أهلها.

وقد تملَّكتها الملوك السلجوقية في أيام الخليفة القائم بأمر الله، وكان بها عساكر تنيف عن خمسين ألف فارس برسم الأعداء.

وقيل: إن الذي بنى قلعة دمشق من الملوك السلجوقية، وكان اسمه شكز، وبنيت في سنين شيء، وأربعمائة، والملوك إذا أرادوا شيء يفعلوه، كان هين عليهم بالمال، والرجال.

ومن جملة همم الملوك العالية أنَّ صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله تعالى، فتح في بلاد الساحل سِتَّ مدن بقلاع في سِتِّ جُمَع، كل جمعة يصلي في مدينة يفتحها، ووقائع الملوك كثيرة لا تحصر، ومن لم ينصره الله تعالى لم ينتصر، وقد اختصرنا هذا الفصل لئلا يطول فيه الكلام، والسلام.

انحرافات عن كثرة الكلام

حكاية [٤٥ب]: وقد ذكر لي بعض أصحابي أنه كان يروح إلى قبة يلبغا، والسلطان برقوق نازل عليها يحاصر دمشق، قال: (كانت أروح إلى عند أصحاب لي طباخين

---

(١) في الأصل: واتقع لا معنى لها.

السلطان، فأعجب شيء رأيت عدهم؛ أني كنت يوماً فشووا خروف للسلطان، ونحن منشرحين، وكان فيهم واحد كثير الكلام، وكانت خيمتهم قريب من خيمة السلطان، فلما استوى الخروف وضعوه في قصعة، فأخذ رأس الخروف الطبَّاخ الذي كلامه كثير، وكان معه رغيف فحطَّ الرأس على الرغيف وهو يضحك وقال: هذا رأس برقوق بدنا نأكله اليوم، وكان خلفه رجل من الكرك سمعه، فما استتمَّ كلامه حتى جذب سيفه وضربه فقطع رأسه عن بدنه. فلمّا رأيتُ هذا، قلتُ لبعض أصحابه: ما حمله على هذا الكلام الفاحش؟ قال: ما أظنُّه أراد رأس برقوق، وإنما أراد أن يقول «هذا رأس جردمر نائب الشام» فسبق لسانه فقال: «هذا رأس برقوق» لكن حتى ينفذ القضاء، والقدر فيه، وقد [٤٦أ] جعل الله تعالى لكل شيء سبب».

فتعجبتُ من هذا الأمر غاية العجب وقلتُ، (صدق الذي قال: لسانك أسدك، إن أطلقته افترسك، وإن حبسته حرسك). فانظر يا أخي إلى هذا، كيف قتله كثرة كلامه، وقد أجاد الشاعر حيث يقول في المعنى شعراً: [الكامل]

احْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ ... لا يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ
كَمْ فِي المَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ ... كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ

حكاية في المعنى

قيل: كان بعض الزهاد جالس في مكان يعبد الله تعالى فيه، وقريباً منه شجرة يأوي إليها عصفور طول نهاره يصيح ما يسكت إلاَّ قليل، فمرَّ به في بعض الأيام إنسان يرمي بالبندق فسمع صياحه، فجاء إليه وضربه فرماه فمات، فتعجَّب منه الرجل الزاهد وقال: (صدق ابن مسعود رضي الله عنه، حيث يقول: ما من شيءٍ أحقّ بطول السجن من اللسان، إن لم توثقه عدا عليك [٤٦ب] فقتلك).

فاعتبر يا أخي - وفَّقك الله تعالى - بهذا الكلام، وأقصر من الكلام، والسلام، وقد أجاد الشاعر حيث يقول شعراً في المعنى: [الطويل]

يُصَـابُ الفَتَـى مِـنْ عَثْـرَةٍ بِلِسَـانِهِ وَلَيْسَ يُصَـابُ المَرْءُ من عَثْرَةِ الرِّجْلِ
فَعَثْرَتُـهُ مِـنْ فِيْـهِ تَرْمِـي بِرَأْسِـهِ وَعَثْرَتُـهُ بالرِّجْـلِ تَـبْرَا عـلى مَهْـلِ

وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه لصاحبه الربيع: (لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالملكة ملكتك ولم تملكها).

هكذا ذكره الشيخ محيي الدين النواوي، رحمه الله تعالى، في كتابه (الأذكار)، اعلم يا أخي - وفَّقَكَ الله تعالى - أنه ينبغي لك لإنسان أن يحفظ لسانه عن الكلام، ولا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً وفيه مصلحة، وإلا السكوت أصوب).

ويروى عن أبي موسى الأشعري، رضي الله تعالى عنه، قال: (قُلتُ يا رسول الله ! أيُّ المسلمين أفضل ؟. [٤٧أ] قال: «من سلم المسلمون من يده ولسانه» حديث صحيح.
وعن سفيان بن عبد الله قال: (قلتُ، يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به، قال: «قل: ربي الله، ثم استقم» [(١)].

فقلت، يا رسول الله، ما أخوف ما يُخَافُ عَلَيَّ ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال [هذا] .)
قال الترمذي: (حديث حسن صحيح).

وعن عقبة بن عامر، رضي الله تعالى عنه قال: (قلت: يا رسول الله ما النجاة ؟ قال: «أَمسِكْ عَليكَ لِسَانَكَ، وليَسَعْكَ بيتك، وابكِ على خَطِيئَتِكَ» [(٢)].

---

(١) ورد الحديث في: سنن الترمذي ٢٤١٠، مسند أحمد بن حنبل ٣/ ٤١٣، سنن الدرامي ٢/ ٢٩٨، مستدرك الحاكم ٤/ ٣١٣، موارد الظمآن للهيثمي ٢٥٤٣، المعجم الكبير للطبراني ٧/ ٧٨، الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٣٤٧، السنة لابن أبي عاصم ١/ ١٥، كنز العمال للمتقي الهندي ٣٦٥٢٤، اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ٤٥١، الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٥٢٧، المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٣/ ١٠٥، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٩/ ٣٣٤، حلية الأولياء لأبي نعيم ١/ ٦٥.

(٢) ورد الحديث في: سنن الترمذي ٤٠٦، فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٤٤٧، ١١/ ٣٠٩، الأذكار النووية ٢٩٦، حلية الأولياء لأبي نعيم ٢/ ٩، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٨/ ٢٧١، تفسير القرطبي ١٠/ ٣٦١، أمالي الشجري ٢/ ١٩٩، الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٥٢٤، ٤/ ٢٣٢، اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٦/ ٣٣٩، ٧/ ٥٠، ٩/ ٢١٤.

قال الترمذي: (حديث حسن صحيح).

وعن معاذ، رضي الله تعالى عنه، قال: قلتُ: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنَّة، ويباعدني من النار؟

قال: «لقد سَأَلتَ عنَ عظيم، وإنَّه ليسير على من يَسَّرَهُ الله عليه [٤٧ب]. تعبد الله، لا تُشْرِكُ به، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»[١].

ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل تطفئ غضب الجبار[٢]».

ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

ثم قال: (ألا أخبرك بملاك ذاك كله ؟) قلت، بلى يا رسول الله. فأخذ بلسانه، ثم قال: (كُفَّ عليكَ هذا).

قال: قُلتُ: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به . فقال: «ثَكُلَتْكَ أُمُّكَ، وهل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ؟»

قال الترمذي: (حديث حسن صحيح).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله تعالى عنه، أن النبي (ﷺ) قال: «من صَمَتَ نجا».

وقد أجاد الشاعر حيث يقول في المعنى شعراً: [الكامل]

الصَّمْتُ زَيْنٌ، والسُّكُوتُ سَلاَمَةٌ فإذا نَطَقْتَ فلا تَكُنْ مِكْثَارَا
فَلَئِنْ نَدِمْتَ على سُكُوتِكَ مَرَّةً فَلَتَنْدَمَنَّ على الكَلاَمِ مِرَارَا

---

(١) ورد الحديث في: مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٢٣١، ٢٣٧، الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ٥١٧، ٣/ ٥٢٨، الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٤٧، ٢/ ٢٢١، تفسير ابن كثير ٥/ ٣٦٥، الأذكار النووية ٢٦٥، ٢٩٧.

(٢) ورد الحديث في: سنن الترمذي ٢٦١٦، مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٢٣٠، تفسير القرطبي ١٤/ ١٠٠، تفسير ابن كثير ٦/ ٣٦٥، تفسير الطبري ٢١/ ٦٤، موارد الظمآن للهيثمي ١٨/ ٣٥١، شرح السنة للبغوي ١/ ٢٥، الأذكار النووية ٢٩٧، ٣٦٥، الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٥٢٨.

وهذا القدر في هذا المعنى يكفي أهل البصائر، والسلامة في قلة الكلام، والسلام.

حصار دمشق - البقية

ثم نعود إلى كلامنا. ولما هلَّت السنة المباركة ركب السلطان وعساكره في نهار الإثنين [٤٨أ] ثامن شهر المحرم، وكان قد بلغهم أن برج عند باب الجابية قد وقع ولم يبق له أثر، فطمع السلطان ومن معه في الدخول إلى المدينة وقالوا: إن لم ندخل اليوم ما بقينا نقدر ندخل، وجاؤوا في همة عالية إلى باب الجابية ضحوة نهار.

وكان أمر هذا البرج عجيب، وذاك أنه كان قد انشقَّ لما احترقت الحوانيت الذي حوله إلى أول الليل وقع، وكان لوقوعه رجَّة عظيمة جفلت منه الناس، وفزعوا أهل المدينة، وأعلموا النائب، فصعب ذلك عليه وحضر هو، والأمراء، والقضاة فوقفوا عليه وخافوا على المدينة منه.

وفي الحال طلب الصناع، والبنائين وبناه على ضوء الشمع، والمشاعل، وهم يعملوا فيه شغل وهو يستحثهم طول الليل، ولم ينام أحد في تلك الليلة، وما طلعت الشمس حتى طلع البرج وارتفع كأنه ما وقع، وهذا من همم الملوك العالية، يبني برج على ضوء الشمع في ليلة.

وجاء السلطان [٤٨ب] وجماعته إلى باب الجابية وقاتلوا قتال شديد، ورأوا السور كما كان صحيح ما كأنه وقع، ولم يجدوا لهم طريق إلى المدينة، وقاتلوا أهل دمشق من أعلى الأسوار في ذلك اليوم قتال شديد، حتى إنه لم يقدر أحد من جماعة السلطان في ذلك اليوم يصل إلى السور ولم يزالوا كذلك إلى آخر النهار.

وقد قُتِلَ وجُرِحَ من الفريقين في ذلك اليوم خلق كثير.، وكان يوم مهول، وما كان في ذهن السلطان، وأصحابه إلا أنهم في ذلك اليوم يأخذون دمشق فإن المناحيس راحوا إليهم في الليل وقالوا لهم: قد وقع برج باب الجابية.

وإن لم تدخلوا إلى المدينة في هذا اليوم لم تقدروا بعده تدخلوا إليها. فلأجل ذلك ركب جميع عساكر السلطان، وأتوا إلى المدينة مثل كمشبغا، وإينال، وطرنطاي،

وينخاص، وكمشبغا الخاصكي، وقطلوا بك المنجكي، وأولاد منجك، وابن [٤٩أ] الشيخ علي، وفرج الله، والهيذباني، وابن المهمندار، وقجماس ابن عم السلطان، وابن أمير علم، وبكلمش، وإياز، وغيرهم من الأمراء، والعشرانات، والعربان، والكركيِّين[1] وغيرهم، واقتتلوا في ذلك اليوم قتال شديد ولم ينالوا مقصود.

وفي ذلك اليوم توجَّه طرنطاي إلى القنوات وفتح مخازن قمح ونهبها هو، والعوام، وكان فيهم قمح كثير ورُدَّ السلطان، وأصحابه إلى الوطاق وهو مغبون من أهل دمشق لما أبصر من قتالهم وشجاعتهم وصبرهم، وإقدامهم، ولم يكن في ظن أحد أنهم يكونوا هكذا، وصدق الذي قال: (الرجال مخبية في ثيابها ما يظهروا إلا وقت الحاجة).، وكان هذا اليوم آخر قتال السلطان، وأصحابه لأهل المدينة.

وقعة شقحب الثانية

وفي العشر الأول من المحرم تواترت الأخبار بقدوم السلطان الملك المنصور، والخليفة، والأمير منطاش ومعهم عساكر كثيرة، ففرحت أهل دمشق [٤٩ب] ودقت البشائر، وبقيت الناس بين مصدِّق ومكذب إلى نهار السبت، ثالث عشر لمحرم، رحل السلطان برقوق وجماعته من على قبَّة يلبغا إلى نواحي الكسوة، وضموا الذي ليس بهم به حاجة، وأحرقوه، وقد أحرقوا المنجنيق الذي كان عندهم يرموا به على دمشق.

ولَّما ارتحل عن قبَّة يلبغا إلى شقحب، ظنَّ شنتمر أنه خاف وتسحَّب، وخرجوا أهل المدينة إلى الوطاق، وأخذوا ما كان فيه من الأثاث، وأخشاب المنجنيق وغيرها، وفرحت الناس وشموا الهواء، ونهبوا الناس حارة الكلاب فإنهم كانوا مع السلطان، والناس منتظرين الأخبار.

وأما السلطان برقوق وعساكره؛ فإنهم نزلوا على شقحب وهم منتظرين عساكر مصر إلى يوم الأربعاء سابع عشر المحرم صابحتهم عساكر مصر فركب السلطان برقوق

---

(١) نسبة إلى الكَرَك وهي مدينة بالأردن اليوم وهناك في لبنان أيضاً بلدة تسمى الكرك.

وعساكره وصفّهم، ووقعت العيون على العيون، والتقى الفريقان، والتقت الأعلام بالأعلام، والنصر من عند الملك العلام.

وحمل منطاش ومن [٥٠أ] معه على الميسرة، وكان فيها كمشبغا وعساكر حلب، وأكثر الأمراء، فكسرهم منطاش، وولوا هاربين صوب المرج، فتبعهم منطاش وعساكر المصريين، ونجا من نجا وقتل من قتل. فأمَّا كمشبغا؛ فإنه نجا بأناس قلائل، وقصد حلب وظنَّ في نفسه أنهم انكسروا، وما بقي مع برقوق أحد.

وأما منطاش؛ فإنه تبعهم إلى المرج، وقد فرق جمعهم، وظن في نفسه أنهم انكسروا، وأن السلطان الملك المنصور يصبح يدخل المدينة، فقصد المدينة، ووصل إليها نصف الليل، وأعلموا نائب الشام جردمر أن منطاش على باب النصر، فقام إليه وسلم عليه، وفتح له باب النصر وسلَّمه المدينة، والقلعة، فحصل له الهناء، بلا تعب، ولا عناء. هذا جرى لمنطاش ولكمشبغا.

وأما السلطان الملك الظاهر برقوق؛ فإنه كان معه نحو خمسمائة مملوك من مماليكه الذي يعزوا عليه في ذيل الجبل، فلما أبصر عساكره قد انكسرت، وولى كمشبغا هارب وتفرَّقت عساكره [٥٠ب] صعب ذلك عليه، وقال: (لا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).، ونزل في ذيل الجبل وهو مكسور رائح إلى مكان يلتجي إليه، يلتقي في طريقه بالنصيب شيء ما كان في ذهنه؛ السلطان الملك المنصور، والخليفة، والقضاة واقفين في مكان وعندهم ناس قلائل، فحطم عليهم وضرب عليهم حلقة ومعه مماليكه.

فلما تحققوا أنه السلطان، والخليفة، والقضاة عرفوه، وقد عاينوا الموت فسلَّموا عليه فقال لهم: (لا تخافوا ما عليكم باس). فرمت مماليكه شطفاتهم[1] وحملوا رنك[2] منطاش. فبقت الناس تجيء إلى عند الملك المنصور، والخليفة يهنوهم بالنصر، يلتقوا برقوق واقف كأنه أسد وحوله تلك المماليك، منهم من ينزل يبوس ركابه، ويقف تحت

(١) الشطفة: العمامة.

(٢) الرنك: العلم والشعار، وهي فارسية معربة، انظر مصطلحات صبح الأعشى ١٦٣.

طاعته، ومنهم من يقتلوه مماليكه، واحتوى السلطان برقوق على الأموال، والخيام، والخيل، والجمال، والسلاح، والزاد.، وأخذ السلطان المنصور، والخليفة، والقضاة وجاء بهم، ونزل [٥١أ] في الخيام.

وهذا عجيب بعد أن كان هارب مكسور، انتصر وظفر بالمنصور، وبات السلطان برقوق، والخليفة، كما يقول العرب في لب القطيفة، وأما منطاش؛ فإنه دخل إلى دمشق وصار كما قال فيه الموّال:

مِنْطَاشُ، قد طَاشَ عَقْلَكَ وانذَهَلْ، فَنْحَبْ
مِنْكَ الذَّهَبْ قد ذَهَبْ، وابُعْدَكَ من تَصْحَبْ
وبا سَعِيدْ وحُرمَةَ من قَتَل مَرْحَبْ
رَدّ الخلِيفَةَ مع السُّلطَان، من شَقْحَبْ

وأما أهل دمشق؛ فإنهم أصبحوا في خمدة، لأنهم لم يدخل إليهم لا سلطان، ولا خليفة.، وأصحاب منطاش يُمَرّحوا، ويقولوا (السُّلَطانُ غداً يحضر، لأنه جاية من على صفد على البقاع)، ثم ظهر الأمر أن برقوق قد مسك السلطان المنصور، والخليفة، والقضاة، وأخذ الأموال، والخيل، وقد أطاعته عساكر المصريين، ورُدّ إليه بعض أصحابه الذي كانوا قد هربوا، وكثرت [٥١ب] عساكره، وأعطاه الله تعالى النصر.

وأمّا كمشبغا؛ فإنه استمرَّ هارب إلى حلب، وطلع إلى القلعة وحصّنها وقال إن السلطان يكون قد انكسر.

وأما منطاش؛ فإنه جمع عساكر الشام، والأعوام، وطلع إلى برقوق إلى شقحب فالتقاهم وكسرهم وفرّقهم، وقتل من العوام خلق كثيرة، وكانوا قد طلعوا طمعاً في المكسب، وردُّوا في أنحس حال، ثم إن منطاش طلع إليه بالناس ثاني مرة وثالثة فثار عليهم هواء ومطر وبرد فهلكت الناس ورُدُّوا خائبين.

وأما السلطان برقوق؛ فإنه ركب من شقحب وطلب القاهرة ومعه السلطان

المنصور، والخليفة، والعساكر، وقد قتل طرنطاي على شقحب، وإياز هرب إلى صفد في الوقعة وحصَّنها، وقعد هناك، وما صدق أن برقوق قد انتصر، وأولاد الشيخ علي، أمير محمد، وأمير أحمد، راحوا إلى الرحبة، وقد حصَّنوها وقعدوا فيها؛، وأولاد منجك راحوا إلى صفد إلى عند إياز.

ولم [٥٢أ] يبق مع السلطان برقوق من الأمراء سوى إينال ومماليكه، والباقي كلهم تفرقوا. فانظر يا أخي إلى هذا الأمر العجيب: بعد أن انكسر، وولَّى هارب، رزقه الله تعالى النصر، وقد قصد السلطان برقوق مصر، وانقطعت أخباره عن دمشق ولم يبق أحد يقدر يسافر، ولا يروح، ولا يجيء، والعربان تشعث في سائر المواضع، وقد طمع كلّ نحس.، وأمَّا منطاش؛ فإنه نزل في القصر، والمدينة، والقلعة في يده، لأجل الشمس، والطيبة.

وفي يوم الأحد حادي عشرين شهر الله المحرم حضروا تركمان من بلد قارا ومعهم فرج الله، وأخو طرنطاي، وجماعة من الهاربين. ولما أدخلوا فرج الله إلى قدام منطاش قالت العوام: (يا خوند ! لوجه الله تعالى أعتقه لنا فإنه عتقنا، وفرَّجَ عنا في جامع كريم الدين).

فقبل شفاعتهم فيه وخلع عليه وسلَّمه إلى نائب الشام جردمر يركب معه واستمرَّ منطاش في الشام، وقد أخرج أهل القلعة منها، وسكَّن فيها من جهته، وما [٥٢ب] عمل جردمر شيء أوحش من تسليمه لمنطاش القلعة، فإنه كان رأيٌ ليس بجيد.

ثم استهلَّ شهر صفر من السنة المذكورة، وقد فتحوا الناس دكاكينهم، وفتح منطاش أبواب المدينة، وفرَّجَ الله تعالى عن الناس وتوجَّهوا إلى بلادهم، وإلى ضياعهم، وحبّوا الناس منطاش بسبب ذلك، ورخصت الأسعار وكثر اللحم وطابت قلوب الناس، وكان أوَّل ما قدم الزهر وجرت لهم الأنهار، وطلعت الناس إلى الأزهار، وقضوا كلَّ ما فاتهم أيام الحصار، ورجع الماء إلى مجاريه.

وتبسَّم ثغر دمشق عن زهر روابيه، وفاضت غدران الرحمة على رياض الأمان فأنبتت

من المسرَّة نبات حسن، فالحمد لله الذي أذهب عنَّا الحَزَن. ولما فرج الله تعالى تلك الضائقة الشديدة نظم شرح حال دمشق الشيخ علاء الدين بن أيبك ـ أبقاه الله ـ وهي هذه القصيدة، فقال: [الكامل]

دُرْ مع زَمَانِكَ يا لَبِيبُ وَدارِي ... وَاعمرِ فَدَارُكَ للخَرَابِ وَدَارِي
نَفْسِيْ [٥٣أ] ونَفْسُكَ، والنُّفُوسُ جميعها ... يجري لها نَفَسٌ على مِقْدَارِي
والحُكْمُ حُكْمُ الله يَفعَلُ ما يَشَا ... والأمرُ أَمْرٌ مُقَدّرِ الأقدارِ
سَبقَ القضاءُ لِكُلِّ ما هُوَ كائِنٌ ... فاحذَرْ تُجادِلْ في القَضَا وتُمَارِي
واللهُ قد قَسَمَ الذي أعطى الورى ... مِنْ رِزْقِهِمْ وتَفَاوتُ الأعْمَارِ
واللَّوحُ مَكتُوبٌ بِهِ ما خَطَّهُ ... وَجَرَى بِهِ قَلَمُ اللَّطِيْفِ البَارِي
لا بُدَّ من فَرَجٍ وحُزْنٍ بَعدَه ... يأتي وَمِنْ يُسْرٍ وَمِنْ إعْسَارِي
والصَّفْو يَحْدُثُ بَعدَهُ كَدَرٌ وَهَلْ ... أبصرتَ من صَفْوٍ بِلاَ أَكْدَارِي
واعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَعْلَمُ كُلَّما ... نُبْدِي وَنُخْفِيهِ مِنَ الأَسْرَارِي
يَوْمَ [٥٣ب] المَعَادِ زَلازِلٌ تَنْسَى بِهَا ... اسمَاعَ عُودٍ وَمِزْمَارٍ، وأوْتَارِ
والنَّفْخُ في الصُّورِ الذي أَرْوَاحُنَا ... فيه خِلافُ النَّفْخِ في المزمارِي
لا تَبْخَلَنَّ على الفَقِيرِ بِدِرْهَمٍ ... أَوْدَعْتَهُ في الكِيسِ، أو دِينَارِي
والبِسْ لِبَاسَ الأتقِيَاءِ وَكُنْ فَتىً ... من لُبْسِ ثَوْبِ العَارِ جِسْمُكَ عَارِي
واصْحَبْ مِنَ الأصْحَابِ كُلَّ مُهَذَّبٍ ... واحْفَظْ صَدِيقَكَ وارْعَ حَقَّ الجَارِي
واذْكُرْ لِمَا قَدَّمْتَهُ وَنَسِيْتَهُ ... فَمَواعِظُ العُقَلاءِ في التَّذْكَارِ
ما هذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِكَ فاتَّئِدْ ... مِنْهَا وَقُلْ سُحْقاً لَهَا مِنْ دَارِي
فالمُلْكُ فيها للمُلُوكِ مُفَارِقٌ ... والمُلْكُ مُلْكُ الواحِدِ القَهَّارِي

يـا مـا جـرى في عَصْرِنَـا يـا مـا طَـرَا في ذَا الزَّمَـانِ مـن الـبَلاءِ الطَّـارِي
سَـنَةٌ عـلى سَـنَةٍ أَتَـتْ بِعَجَائِـب وَغَرَائِـبٍ ودَمَـادِمٍ ودَمَـارِي
ومَحَافِـلٍ [٥٤أ] وجَحَافِـلٍ وسَـنَاجِقٍ ويَبَـارِقٍ، وأَسِـنَّةٍ وشِـفَارِي
والظَّـاهِرُ المخلـوعُ جـاءَ مُجَيِّشـاً بِجُيـوشٍ هائِلَـةٍ لأخـذِ الثَّـارِ
وتَجَمَّعَـتْ قَـيْسٌ وعُربَـانُ الفَـلا وأَتَـوهُ كالعُقْبَـانِ في الأَوْكَـارِ
مـا بَـينَ دَارَيَّـا وقُبَّـةِ يَلْبُغَـا نَزَلُـوا عـلى الرَّوْضَـاتِ، والأَنْهَـارِي
وَأَتَـاهُ مـن حَلَـبَ الأمـيرُ كُمُشْـبُغَا بـالتُّرْكِ، والأكـرادِ، والأعجـارِي
وتَقَصَّـدُوا فـتحَ المدينـةِ عنـوَةً بالمُرْهَفَـاتِ وبِالقَنَـا الخَطَّـارِي
فَتَغَلَّقَـتْ أَبْوَابُهَـا وتَحَصَّـنَتْ بالصَّـخْرِ لا بالـدُّفِّ، والمِسْـمَارِ
كَانَـتْ دمشـقُ كَجَنَّـةٍ في حُسْـنِهَا فَاعْجَـبْ لِيَـومِ حَرِيقِهَـا بالنَّـارِ
والشَّـمسُ قـد عَلِـقَ الـدُّخَانُ بِخَـدِّهَا والـرِّيحُ يَكْحُـلُ عَيْنَهـا بِغُبَـاري
ودِمَشْـقُ قَلْعَتُهَـا عَـرُوسٌ تَـنْجَلِي تَحْـتَ الظَّـلامِ بِخَلْعَـةِ الأنـواري
خَلْخَالُهَـا [٥٤ب] المفتـولُ خَنْـدَقُ مَائِهَـا والسُّـورُ مَلْـوِيٌّ كَـلَيِّ سِـوَارِي
والمَنْجنيـقُ كَمرْكَـبٍ مِـنْ فَوْقِهَـا والقَلْـعُ مِقْـلاعٌ بِـرَاسِ الصَّـارِي
وَمَكَاحِـلٍ صَرَخَاتُهَـا كَرَواعِـدٍ تَرْمِـي صَـوَاعِقُهَا مِـنَ الأحجَـارِي
والجـيشُ يَزحَـفُ كَـالرُّبى، والنَّبـلُ قـد مَـلأَ الفَضَـا مـع جَـوِّه بجِـدَاري
والـتُّرْكُ مـن ظَهْـرِ الخُيُـوْلِ تَرَجَّلَـتْ وَعَوامُهَـا رَكِبَـتْ عـلى الأسـوَارِي
ومِـنَ المَقـاليعِ الفراقِـعُ أعلَنَـتْ وحجـارةٍ تَنهَـلُّ كالأمطَـارِي
والأرضُ فيهـا رَجَّـةٌ وزَلازِلٌ مـن ضَـجَّةِ التكبـيرِ في الأسـحارِي
والـبر قـد دَخَلُـوا المدينـةَ أهلُـهُ وتَسَـتَّرُوا بـالحُصْرِ بَعْـدَ بَـوَارِي

والمـــاءُ قَــدْ أَمْسَــى بِهَــا فِي قِلَّــةٍ وَغَــلا الـذي فِيْهَــا مـن الأسـعَارِي
وتَنَــاهَبُوا مــا فِي القُــرَى مــن غَلَّــةٍ خُزِنَــتْ وَمِــنْ غَـنَمٍ وَمِــنْ أَبْقَــارِي
والكِذبُ [٥٥أ] بينَ النَّاسَ أَصْبَحَ دَائِرَاً دَورَ الفــرَاشِ بِصِــدقِهَا للنَّــارِي
ورأيـــتُ كَــانُونَ الشِّــتَاءِ وَنَــارَهُ تَرْمِـــي المَـــواذِن شَرُهَـــا بِشَرَارِي
فَتكُــوا بِمَيْــدَانِ الحَصَى لَمَّــا عَصَى وبِــقَصْرِ حَجَّــاجِ بِــلاَ إِقْصَــارِي
وَبَنُــوا الشُّــويكَةَ نَــالَهُم شَرَكُ الأذى حتــى بَقــوا سُــمراً مــن الأســمارِي
وكــذلكَ الشَّــاغُورُ أصــبحَ شــاغِرَاً وخَلَــتْ عَمَائِــرُهُ مـــن العُــمَّارِي
ومَسَــاجِدٍ ومَــوَاذِنٍ قــد أُحْرِقَــتْ وَرَفَــارِفٍ وسَــقَائِفٍ وسَــوَارِي
وتَقَطَّعَــــتْ أَنْهَارُهَــــا وتَقَلَّعَــــتْ مِنْهَــا أَعَالِيهَــا مــن الأشــجَارِي
وقُصُــورُهَا صَــبَغَ الحريــقُ بَيَاضُــهَا بِدُخَانِــهِ المُســوَدِّ لَــون الغَــارِي
ويَقُــولُ كــانُونُ اهرُبُــوا وتَبَاعَــدُوا لا تَصْــطَلُوا عِنْــدَ الحَرِيــقِ بِنَــارِي
حَتَّـــى أرادَ اللهُ كَشْــفَ كُروبِنَــا مــن بَعْـدِ ضَـائِقَةٍ وطُـولِ حِصَـارِي
سَلَّط [٥٥ب] مُلوكَ على مُلُوكٍ فَجَيَّشَتْ وأَتَــتْ دِمَشْــقَ عَسَــاكِرُ الأَمْصَــارِ
بَعَثَــتْ إِلَيْنَــا مِصْرُ جُنْــداً أَقْبَلُــوا مِثْــلُ الــدُّبَا فِي جَحْفَــلٍ جَــرَّارِ
يـا وَقْعَـةً وَقَعَـتْ بِشَـقْحَب وانْجَلَـتْ عــن ضَرْبِ أعنـاقٍ وضِـيْقِ إِسَـارِي
وأَرْوَاحُ قــد رَاحَــتْ وَنَهْــبُ خَــزائن جَلَّـتْ عـن الإِحْصَـاءِ، والإِحْصَـارِ
في رابــعِ الــعشرِ المُحَــرَّمِ شَــهْرُهُ بَعْـدَ ارْتِفَـاعِ الشَّـمْسِ وَسْطَ نَهَـارِي
مَشَــتِ الجُيُــوشُ إلى الجُيُــوشِ كَـمَا مَشَـتْ أَصْـحَابُ أَخْـذِ الثَّـأرِ نحـو الثَّـارِي
وتَجَــاوَلُوا وتَضَــارَبُوا وتَعَــارَكُوا وتَقَــاتَلُوا بالسَّــيْفِ، والأطْبَــارِي
وانهلَّــتِ الأمطــارُ فَــوْقَ دِمَــائِهِمْ حَتَّــى انْثَنَــوا، والــبَرَ بَحــرٌ جَــارِي

والخَيْلُ [٥٦أ] فيه سَوابحٌ فكَأَنَّها سُفُنٌ ومِن سُمرِ الرِّماحِ صَوارِي
وخَوافِقُ الكُوساتِ رَعدٌ، والقَنا بَرقٌ أضا، والجيشُ غَيْمٌ سارِي
والنَّصْرُ كانَ مِنَ الإلهِ لِمَنْ يَشا هُوَ خالِقُ الأَخْيارِ، والأَشْرارِي
زَالَتْ بِحَمْدِ الله ضائِقَةُ الوَرَى وسَرَى الهَنا في سائِرِ الأَقْطارِي
وأتى الرَّبيعُ مُجَدِّداً أَفْراحَنا بالأَمْنِ، والفُرجاتِ في الأَزْهارِ
نَحْنُ العُصاةُ المُذْنِبُونَ، وما لَنا إلاَّ مَراحِمُ رَبِّنا الغَفَّارِي
هُوَ رَبُّنا وحَبِيبُنا، وأَمِينُنا وجِوارُهُ للعبدِ خَيرُ جِوارِي
هُوَ أَوَّلٌ هُو آخِرٌ هُو ظَاهِرٌ هُوَ باطِنٌ هُوَ قاصِمُ الجَبَّارِي
هُوَ مُحْسِنٌ هُوَ مُجْمِلٌ هُوَ مُنْعِمٌ هُوَ مُفْضِلٌ هُوَ كَاشِفُ الأَضْرارِ
وشفيعِنا [٥٥ب] وَقْتَ الشَّدائِدِ عِنْدَهُ تاجُ النُّبُوَّةِ خِيرَةُ الأخيارِ
الفَاتِحُ الماحي الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ طهَ أَبَرُّ الخَلْقِ عِنْدَ البَارِي
هُوَ المُصْطَفَى، والمُجْتَبَى، والمُرْتَضَى وَلَهُ الشَّفاعَةُ، والزِّنادُ الوَارِي
يا سَيِّدُ السَّاداتِ يا مَنْ لَمْ يَزَلْ مِقْدَارُهُ مِنْ أَرْفَعِ المِقْدَارِي
سَلْ رَبَّنا فَلَعَلَّ يَكْشِفُ ضُرَّنا ويُقِيلُنا من كَبْوَةٍ وَعِثَارِي
وبُنَيُّ أَبِيكَ في الشَّفاعةِ طامِعٌ وَقَدْ اسْتَحَى من كَثْرَةِ الأَوْزَارِي
فَاشْفَعْ لَهُ ولأَهْلِهِ وَلِصَحْبِهِ وَلِسائِرِ الغُيَّابِ، والحُضَّارِ
صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ ما رَقَّتْ ومَا رَاقَتْ بِمَدْحِكَ، والثَّنا أَشْعَارِي
وَعَنِ الصَّحَابَةِ كُلِّهِم أَهْلُ الرِّضَا مَهْما أَضاءَ في الليلِ نَجْمٌ سَارِي

حكم منطاش في دمشق

ثم نعود إلى كلامنا. واستمرَّ منطاش في دمشق وعيَّن نواب المدن إلى البلاد الشامية.،

وأما ابن الحنش؛ فإنَّه عصى في قلعة بعلبك هو [٥٧أ] وجماعته، وأحرقوا المدينة ونهبوها وسبوا حريمها وفعلوا كلّ قبيح، وجَّردَ إليهم منطاش عسكر مع محمد شاه بن بيدمر.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر صفر حضر من وادي التيم اثنين ومعهم جماعة من وادي التيم، وقد ذكروا أنهم وجدوهم جائين فمسكوهم فوجدوا معهم سبعة عشر كتاباً من السلطان برقوق إلى جماعة في دمشق من الأمراء. فأخذ منطاش الكتب منهم، وقرأهم وفهم ما فيهم؛ ثم إنه أمر العوام أن يقتلوهم فقتلوهم على باب النصر.

وخفيت أخبار السلطان برقوق وطال حصار قلعة بعلبك، وأخربوا البقاع العسكر، وبقي منطاش كل وقت يركب، ويتفقد الأسوار.

وفي أواخر الشهر وصل خبر من حلب أنهم مسكوا كمشبغا، وكان قد توجَّه إلى حلب نائب من جهة منطاش أخوه، ومعه زردخانة[1] من قلعة دمشق هائلة، ولم يصحَّ ذلك، ولا شيئاً منه، ثم استهلَّ شهر ربيع الأول وفتحت دروب المسافرين من بلاد الشام. وعمَّر منطاش أسوار المدينة وحصَّنَها.

وأما السلطان [٥٧ب] برقوق؛ ففي نهار الجمعة ثامن الشهر تواترت الأخبار أنه وصل إلى الصالحية الذي للقاهرة، وقد كتب كتاب إلى نائب الإسكندرية يقول له فيه: (إني قد انتصرتُ وكسرتُ منطاش، ومعي السلطان، والخليفة، وقد رضي الخليفة بي أن أكون سلطان، وقد عزل السلطان الملك المنصور، وإنكم تلتقوني ولكم الأمان، والإطمان، وكلَّما تريدوه من الخير).

ثم استهلَّ شهر ربيع الآخر وانقطعت أخبار مصر عن الشام. وفي يوم الثلاثاء حادي عشر الشهر، حضر بريدي من بعلبك وخبَّر الأمير منطاش أنهم أخذوا قلعة بعلبك، ومسكوا ابن الحنش، وابن قمر الدين، ومعهم خلق كثير، وأخذوا منهم شيء كثير من قماش، وسلاح، وأثاث وغيره، الذي نهبوه من بعلبك وغيرها.

---

(١) الزردخانه: كلمة معربة تعني مستودعات الأسلحة.

فلما سمع منطاش بهذا فرح، ودقَّت البشائر وفرحت الناس، واشتفوا في ابن الحنش لأنه كان قد أساء إلى أهل دمشق، وقطع عنهم المياه ونهبوا عشيره دمشق في أيام السلطان [٥٨أ]، وهو على قبة يلبغا. وبقيت الناس ينتظروهم إلى يوم الثلاثاء تاسع عشر الشهر وصل خبرهم أنهم واصلين وهم مع محمد شاه، وسمَّروهم تحت قبَّة سيَّار، وطلعت الناس إليهم يتفرَّجوا عليهم، وازدحمت الناس في الطرقات، وما بقي لأحد مكان يقعد فيه.

وطلع منطاش وعساكر الشام في خدمته وبقيت الناس قاعدين إلى قريب الظهر، فعند ذلك وصلوا المسمّرين؛ وفي أوائلهم ابن الحنش مسمّر على جمل، ورأس ابنه الصغير معلق في عنقه، وبعده الصارم ابن قمر الدين كبير بعلبك، وبعده نائب القلعة، وبعده سبعة وعشرين جمل كلّ اثنين مسمّرين على جمل مخالف، والباقي كلّ واحد على جمل. وكانت عدَّتهم مائة وعشرين مسمّر، ومنهم ناس في حبال مربّطين، فإنهم لم يجدوا لهم جمال، ومنطاش يريد يدخل بعدهم.

وأعجب ما جرى في ذلك اليوم أن شخصاً صيرفي خرج يتفرَّج مع الناس إلى جسر البطّ، والمسمّرين داخلين [٥٨ب] يستغيثوا العطش ولم يسقيهم أحد شيء، ويقولوا لهم: (ابن الحنش قطع الماء) يهزؤوا بهم. فقال الصبي الصيرفي: (الأمر يريده الله تعالى حتى ينفذ القضاء، والقدر، هذا ما يحلّ ما هم مسلمين). فقاموا إليه العوام مسكوه، وقد قست قلوبهم عليه، وقتلوه وشلحوه قماشه، ونهبوه وشحطوه صحبة المربّطين من بعلبك وقالوا: (هذا برقوقي) إلى تحت القلعة.

والعساكر تنجر مثل التراب، وكان يوم مشهود، ثم بعد ذلك رسم منطاش بتوسيطهم[1] تحت القلعة، وقد امتلت تحت القلعة منهم، والناس واقفين يتفرَّجوا عليهم. وطالع منطاش إلى القلعة وقدَّموهم وفكُّوا ابن الحنش، وابن قمر الدين

(١) التوسيط: ضرب الشخص بالسيف، ويقسم قسمين، وهي مصطلح جرى العرف به أيام العباسيين، ثم جرت عليه العادة لمعاقبة المجرمين.

وطالعوهم إلى القلعة حتى يستخلصوا منهم دراهم وفكّوا المسمّرين وقدَّموهم حتى يوسِّطوهم.

فكان أول من وسّطوه الصيرفي الذي مسكوه في جسر البطّ العوّام، وهذا عجيب، ثم إنهم وسطوهم كلهم، وكانت عدّتهم مائة وعشرين فصاروا مائتين، وأربعين قطعة، وعلّقوهم من حائط جامع [٥٩أ] يلبغا إلى جسر الزلابية، وقد تعجبوا الناس لأنهم ما رأوا شيء مثل هذا، وليس هذا بعجيب.

فقد ذكروا في بعض التواريخ أن مسلم ابن قتيبه، لما فتح مدينة جرجان ترك فيها عسكر من جهته، وتوجَّه إلى فتح طبرستان، فلمَّا فتحها، وعاد إلى جرجان، سمع عن أهل جرجان أنهم قد غدروا وقتلوا جميع عساكره الذي خلاَّهم عندهم، فعند ذلك نذر لله إن ظفر بهم ليطحن من دمهم قمح، ويأكله، ثم إنه ظفر بهم، وأخذ منهم اثني عشر ألف روح، ونزل بهم إلى وادي فيه نهر على طاحون، وقد وقفت من قلة الماء فضرب أعناق الجميع في ذلك النهر حتى دارت الطاحون من دمهم وطحنت قمح، ثم إنه أخذ ذلك الطحين عجنه وخبزه، وأكل منه حتى أوفى نذره، قبحه الله تعالى على هذا النذر.

فأهل دمشق عمرهم ما رأوا شيئاً من ذلك. فتعلَّم، يا أخي، أن مطالعة الكتب يطَّلع فيها الإنسان على أشياء وعجائب وغرائب.

ومن طالع في كتب التواريخ عرف ما جرى لمن مضى من الأمم الماضين، وأن الفتن قديمة فيهون عليه [٥٩ب] إذا أبصر شيء من هذا.

ثم نعود إلى كلامنا، ثم بعد أيام وسّطوا ابن الحنش، وابن قمر الدين، تحت القلعة.

وفي يوم السبت تواترت الأخبار أن المجردين الذي كانوا قد راحوا إلى صفد أرسلهم منطاش، وهم أربع مقدّمين: الصفوي، وابن طشتمر الدوادار، وسنجق، وأرغون شاه، وكان معهم ابن نائب الشام جردمر، راحوا إلى القاهرة إلى عند السلطان برقوق مثل ماهم، وردّ ابن جردمر هارب منهم في ناس قلائل، فصعب ذلك على منطاش كثير، وبعد أيام في يوم الخميس مسك منطاش نائب الشام جردمر، وولده جربغا، وسيّدي

ملك ابن أخته، نائب القلعة، وابن قفجق، وضاجت الناس وكثر القيل، والقال، وأخذ أموالهم، وقتل ابن قفجق بالمقارع حتى مات، فإنه كان من الظلمة الكبار، والمثل السائر يقول:، ولا ظالماً إلاَّ سيبلى بظالم.

ثم استهل شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة. وفي يوم الاثنين ركب منطاش إلى الميدان ومدَّ فيه سماط، وأكلت الناس [٦٠أ] منه ولعبت قدَّامه أرباب الملاعيب. وانشرح في ذلك اليوم.

وفي يوم الخميس رابع الشهر ركب منطاش، والعساكر، وخرج من دمشق ولم يعرف أحد إلى أين توجه إلى بعد يومين، جاء ومعه عرب وجمال وغنائم كثيرة.، وكان قد راح كبس عرب ونهبهم.

وفي يوم الخميس ثاني عشر الشهر حضر محمد شاه بن بيدمر ومعه فلاحين كثيره بنحو من ثلاثين أربعين نفر، وجدهم في مغارة مختفين في قرية بعقوبا فنهبوا ما كان عندهم ولقوا عندهم شيء كثير من النهب، ثم إن منطاش أمر بتوسيطهم فوسّطهم كلّهم.

حكم برقوق الثاني

ثم استهل شهر جمادى الآخرة، وكان يوم الاثنين، و [في] ذلك اليوم ظهر الخبر في دمشق بأن السلطان برقوق جلس على كرسي المُلْكِ بمصر وحكم بالقاهرة وقوت شوكته، ثم تولَّى السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق مرة ثانية، ولما جلس السلطان الملك الظاهر برقوق على الكرسي، وحكم وطاوعته الناس وفرحت به أهل القاهرة، وأصبح [٦٠ب] على كرسي مُلْكِهِ، كما قال فيه الشاعر وهو البستي شعراً[1]: [البسيط]

الحمـدُ لله زَاحَ الهَـمُّ، والفِكَـرُ ... وَرَدَّ كُـلُّ سُرُورٍ كَـانَ يُنْتَظَـرُ
عَـادَ الإمـامُ إلى مَعْهُـودِ صِحَّتِهِ ... فَعَـاوَدَ البِشْرُ، والأفـراحُ، والـيَسَرُ

(١) ديوان البستي ص

وكانَـــتِ الأرضُ في أيَّـــامِ غَيْبَتِـــهِ غَـبْرَاءَ فـانزاحَ عنهـا ذلـكَ الغَـبَرُ
فَـانْظُرْ إليهـا تَجِـدْهَا حيثُمَا نَظَـرَتْ عَيْنَـاكَ رَوْضَـاً أَنِيقـاً جَـادَهُ مَطَـرُ

ثم بعد ذلك أخرج من مصر إلى الشام عسكر إلى منطاش، وهم يلبغا الناصري، وألطنبغا الجوباني، وقرادمرداش، وسودون باق، وغيرهم من الأمراء، وإنَّهم وصلوا على الغور فخافت أهل دمشق، وضاقت صدورها من الحصار، والشر، وكان بطآ قد أخذ له القلعة من المناطشة، وإذا أرد الله تعالى أمراً بلغه، ويجعل لكل شيء سبب، فسبحان القادر على كل شيء؛ (يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء [٦١أ]، بيده الخير وهو على كل شيء قدير).

واستقام الأمر في القاهرة للسلطان الملك الظاهر برقوق واطمأنت أهلها وفرحوا به، وقد أجاد الشيخ علاء الدين ابن أيبك حيث يقول: [البسيط]

قَـدْ أَصْـبَحَتْ مِصْرُ في أَمْـنٍ وفي دَعَـةٍ وفي سُرُورٍ، وأَفْـرَاحٍ بِـلاَ حَـزَنِ
لاكِـنْ دمشـقُ مُقِـيمَاتٌ بِهَـا فِـتَنٌ وَنَسْـأَلُ اللهَ أَنْ تَخْلُـو مِـنَ الفِـتَنِ

ولما رُدَّ السلطان الملك الظاهر إلى مُلْكِهِ مَرَّةً ثانيةً، تعجبوا الناس لذلك غاية العجب وهذا ليس بعجيب. فما زالت الملوك تخلع من الملك وتُرَدُّ إليه، والخلفاء كذلك. فقد انخلع من الملك صاحب الغرب، وعاد إليه. ومن الخلفاء الأمين(١) وعادت إليه، والمقتدر وعادت الخلافة إليه، والقائم بأمر الله مرار، وعادت إليه الخلافة.

ومن ملوك الفرس سابور، وعاد إليه الملك، وبهرام جور، وعاد إليه الملك، ومن قيصر، وعاد [٦١ب] إليه الملك، ومن السلطان أحمد صاحب بغداد، وعاد إليه الملك. وفي دولة الترك؛ الملك الناصر مرَّتين، وعاد إليه، ومن لاجين، وعاد إليه، ومن المنصور، وعاد إليه، فليس بعجيب إذ خلع الملك الظاهر من المُلْكِ، وعاد إليه.

ولولا يطول الكلام وكتابنا مختصر، وإلاَّ ذكرناهم كما ينبغي. لكنَّ الجميع قد

---

(١) لم ترد الخلافة للأمين ولعله يقصد المأمون الذي خلع من الولاية، وعاد خليفة.

ذكرناهم كما ينبغي، كلّ واحد في موضعه، في كتابنا المُسَمَّى (دُرَر الأفكار في غرائب الأخبار) ولله الحمد.

مغادرة منطاش من دمشق

ثم نعود إلى كلامنا. ولما سمع منطاش بقدوم عساكر مصر إليه ركب يوم الخميس ودار حول السور يتفقّده، وقد خافت الناس أنه يغلق المدينة، ويحاصروها المصريين، وقد جاء معهم ناس كثيرة من الطَّماعين، والمناحيس، ووصلت أخبارهم أنهم قد وصلوا إلى بحيرة قدس.

وفي يوم الخميس حادي عشر الشهر، ركب منطاش من دار السعادة، وقد اجتمعت العساكر كلّهم ملبّسين سلاحهم وطلع بهم إلى قبّة يلبغا أعرضهم، وكان عسكر مليح جدّاً، وقويت قلوب أهل دمشق [٦٢أ] لما أبصروا تلك العساكر كلها وقالوا: إن المصريين ما هم قدّهم، وأنّه طالع إليهم.

ولم تزل الناس باهتين إلى ليلة الأحد رابع عشر الشهر المذكور ركب منطاش في الليل وجماعته، ولم يتخلّف منهم سوى ابن بيدمر محمد شاه، وقد أخذ منطاش من القلعة شيء كثير، ومن دمشق ما يحتاج إليه من السلاح، والمال وغيره وطلب نواحي بلاد الشمال. ونصر الله تعالى الملك الظاهر برقوق، وأصبحت المدينة خالية من المناطشة، وأراد الله تعالى خيراً بالمسلمين الذي خرج عنهم منطاش ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وقد أجاد الشاعر حيث يقول: [الخفيف]

كَانَتَا مُقلتَاكَ قَبلَ انكِفَافِهِمَا ... لِقِتَالِ الوَرَى تَسُلّ النِصَالْ

فَأمِنَّا قِتَالَهَا حِينَ كَفَّتْ ... (وكفى الله المؤمنينَ القتالْ)

وقد خمدت المناطشة وظهرت البرقوقية من كل مكان، ونادى الأمير أيتمش في المدينة بالأمان، والإطمان. وخرج كل من كان محبوس في القلعة من جهة السلطان

برقوق الذي [٦٢ب] كان لهم أجل، وسلموا من منطاش فإنه قتل منهم خلق كثير في القلعة، قبَّحَهُ الله تعالى، ما كان أهون قتل النفس عنده، أما علم أن القاتل، والمقتول يقفان بين يدي الله تعالى يوم القيامة فيقول المقتول: (يا رب هذا قتلني ظلماً). فإن كان قُتِلَ بعده بسيف الشرع الشريف فيقول القاتل، (يا رب قتلوني عِوَض ما قتلته).

فيقول الله تبارك وتعالى للقاتل: (أنا أمرتهم أن يقتلوك، أنت من أمرك بقتله ؟) يا ترى ما يكون جوابه، وما يكون عذره بين يدي الله تعالى: ﴿يوماً تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝﴾ [إبراهيم: ٤٢].

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾ [الحج: ٢].

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝ ﴾ [عبس].

أما علم أن الله تعالى ما خلق خلقاً أشرف من بني آدم، وأن العبد الطائع من بني آدم لله ولرسوله أشرف من الملائكة ؟ فما قولك في من هو أشرف من الملائكة كيف يذبح كما تذبح الأنعام، ولا يرقُّ لهم عليه قلب؟ اللهم [٦٣أ] لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا يا أرحم الراحمين!.

وقد فرحت الناس بهروب منطاش من دمشق، وقد خمدت الفتنة، وأن طنبرق، رأس نوبة منطاش، اتفق مع جماعة مماليك الناصري، والجوباني، وركبوا وراحوا إلى عند الناصري، والجوباني، وفرحوا بهم. ولمَّا بلغوا عسكر المصريين أن منطاش راح من دمشق وسيَّب القلعة فرحوا وركبوا ونزلوا على مكان يعرف بسعسع، وأرسلوا عرّفوا السلطان بما جرى كله.

ولما كان يوم الثلاثاء سادس عشر الشهر المذكور دخلت عساكر المصريين وفرحت الناس بهم، وأشعلوا لهم الشموع ودقَّت لهم المغاني، وكان لدخولهم يوماً مشهوداً.

ونزل ألطنبغا الجوباني نائب الشام في دار السعادة، وقد فرحت به الناس فإنهم كانوا

يحبُّوه، وقد أحسن إليهم، وكانت أيَّامه طيِّبة، رِخص، وأمن، وانباع الخبز في أيامه كما ذكرنا في توليته نيابة دمشق أيام طرنطاي. وحاشيته قوم أجواد ما يدرا بهم رحمه الله تعالى.، ونزل الناصري [٦٣ب] في القصر الأبلق، والميدان، فإنه كان رائح نائب حلب، وقرادمرداش فإنه كان رائح نائب طرابلس، وسودون باق نائب حماة، ونزلوا الأمراء في دمشق ونادت المشاعلية في المدينة بالأمان، والإطمان، والبيع، والشراء، ولا يذكر أحد برقوق، ولا منطاش، ولا قيس، ولا يمن، وقد عفا الله تعالى عن ما سلف. ومسكوا محمد شاه بن بيدمر وشالوه إلى القلعة.

وفي يوم الجمعة صلَّى الجوباني في الجامع الأموي، وأشعلوا له الشموع ودعوا له ودعا الخطيب على المنبر للسلطان الملك الظاهر برقوق، نصره الله تعالى، فإن منطاش لما كان في دمشق ما كان يقدر الخطيب يدعو له فإنه كان يدعي لحكَّام المسلمين، وطابت خواطر الناس.

وفي ثاني عشرين الشهر خلع ملك الأمراء على بجاس بنيابة قلعة دمشق، وقد كثرت الأخبار أن منطاش نازل عند العرب عند نعير على حمص أمير العرب فضربوا عساكر مصر، والشام مشورة فيما يعملوه، وقد اتَّفقوا على الخروج إليه على حمص[٦٤أ]، ويضربوا معه رأس، ويعطي الله تعالى النصر لمن يشاء.

ثم استهلَّ شهر رجب الفرد من السنة المذكورة وهي سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة. وفي هذا الشهر حضر بريديّ من عند السلطان، وعلى يده مرسوم إلى قاضي القضاة مسعودة؛ أنه يخلي المؤذنين في جميع المواذن بدمشق عقيب كل أذان يسلموا على رسول الله (ﷺ)، ويترضُّوا عن الصحابة، فقد ذكر أمير المؤمنين الخليفة أنه رأى النبي (ﷺ) في المنام وقال له: **«خَلِّ المؤذنين في الشام يسلّموا عليّ عقيب كلّ صلاة، وأذان، ويترضّوا عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين»**.

وهذه سُنَّة حسنة ليس لها نظير، وقد ذكرتُ فضل الصلاة على النبي (ﷺ)، كما ينبغي في أول كتابنا المُسَمَّى (درر الأفكار في غرائب الأخبار). اللهم صلِّ على سيدنا محمد،

وعلى آله !.

وفي عاشر الشهر حضر أمير عرب حارثة، ومعه من عرب الطاعة مقدار ألف فارس، لابسين الحديد كأنهم جنّ، وخلع ملك [٦٤ب] الأمراء على أميرهم. وحضر أيضاً خبر من عند نائب بعلبك كرجي؛ أن تركمان جبل كسروان قد أطاعوا، وأنه قد خلع على كبارهم وفرح النائب بهذا.

وفي يوم الأربعاء رابع عشر الشهر حضر من الأبواب الشريفة بَلاط[1]، وعلى يده مرسوم السلطان الملك الظاهر وتقليد الأمر نعير بالإمرة وتطييب قلب منطاش بأنه (إذا أطاع كان له الأمان، وأيّ بلدٍ اختار تكون له خلاف دمشق وحلب، وإن امتنع تحاربوه، ولا ترجعوا عنه).

وأما أخبار منطاش فقد تواترت أنه نازل على سلمية، وقد اجتمع عنده خلق كثير من عرب وتركمان وترك، وكل نحس، وأخذوا مغلاَّت البلاد كلها فنسأل الله أن يرد العاقبة إلى خير.

وفي يوم الجمعة سادس عشر الشهر توجَّه أقبغا الصغير، وأقبغا البزلاري بجماعتهم إلى ناحية البقاع يجمعوا عشير قيس.

وفي يوم السبت حضر بريدي، وعلى يده مرسوم من عند السلطان باستعجال العساكر إلى منطاش، وأن يحلّفوا الأمراء كلهم أنهم مع السلطان.

وفي [٦٥أ] يوم الاثنين تاسع عشر الشهر دار المحمل دوران خفيف وطلع ملك الأمراء، والعساكر كلهم بعده ملبسين إلى منطاش، والناس تدعي لهم، وبقي في دمشق نائب غيبة حاجب الحجّاب ألابغا، وغلّقوا أبواب المدينة وخافت الناس، وما بقوا مفتوح سوى باب الفرج؛ وباب النصر، وستروا القلعة وانتقلت الناس إلى المدينة وهم خائفين فنسأل الله تعالى أنْ يخمد هذه الفتنة.

---

(١) مراسل من صاحب البلاط وهذا المصطلح نادر الاستعمال.

وفي يوم الخميس ثاني عشرين الشهر، حضر دوادار الناصري من عند العسكر وخبَّر أن نائب الشام الجوباني نازل على القطيفة، والناصري شاليش، وأن منطاش نازل على حمص، وقد تواترت الأخبار من طرابلس بأنه قد نزل عليهم عسكر كثير من جهة منطاش تركمان، وعرب، وترك، وغيرهم يقصدوا أخذ المدينة.

فخرجت إليهم الناس من المدينة ورجموهم وكسروهم، وقد كمّنوا لهم كمين وهربوا قدّامهم فتَبعوهم، حتى عدّوا الكمين وردّوا عليهم، وخرج عليهم الكمين فقتلوا منهم خلق كثيرة، وحزنت الناس عليهم، وكانت هذه الوقعة نظير وقعة [٦٥ب] جامع كريم الدين في دمشق، وكان يوماً مشهوداً في طرابلس.

وقعة حمص

وفي نهار الخميس آخر الشهر المذكور كانت وقعة حمص: ركب عسكر الشام الجوباني، والناصري، وقَرَادمِرْدَاش واصطفَّت العساكر.، وركب منطاش ومن معه من العربان، والتركمان، والترك، وغيرهم.، وكان قرادمرداش في الميسرة، واقبغا الجوهري في الميمنة، والجوباني في القلب، والناصري يرتب الصفوف، ويحرِّض الرجالَ على القتال، ويزعق في الأبطال، كأنه أسد قد خرج عن الأشبال، وقد لبس آلات حربه وَصَالَ وجال، كما قال فيه الموّال مثمن:

يَـومَ الهِيَـاجِ ظَفِرْتُـوا بالعِـدَا لأَمِـينْ ... فَعَلْـتُ فـيهم فِعَـال الضَّـيْغَمِ النَّاجِـبْ
رَامُـوا الفِـرارَ فَوَلُّـوا وَاعْـتَرَاهُمْ شَـيْن ... مِنْ صَطْوَتِي ما حجَبْهُم في الفَلاَ حَاجِبْ
نَقَّطْـتُ بالـدفِّ أَظْهُـرْهُم كـنَقْط الـزَّين ... وَاشْكَلتُ [٦٦أ] فِيهِم بِحَدِّ السَّيف في
فَكُـلِّ نُقْطَـهْ بِجَـرْي الـدَّم تَحْكِـي عَـيْن ... وكُلِّ شَكْلِه حَكَتْ مِنْ فَوْقِهَا حَاجِبْ

والتقى الفريقان، وبان البطل من الجبان، وزعقت الأبطال، على الأبطال، وثار بينهم الغبار، وعمل فيهم الصارم البتار، وقد قاتل قرادمرداش في الميسرة قتال عظيم، حتى كسر منطاش ومن معه، وأرماهم إلى البيوت الذي للعربان، وأما الميمنة فإنها قاتلت

قتال عظيم فطلع عليهم عنقاء أمير العرب من كمين، ومعه عرب كأنهم شياطين.

ثم إن مملوك من مماليك الجوباني كان خلفه وهو يصطفيه، ضربه أرمى رأسه، وأفجع المسلمين فيه، ونكس إلى عند منطاش هو وجماعة مخامرين، من مماليك الناصري وكانوا متفقين، وأرادوا قتل الناصري فما قدروا عليه، ونجّاه الله تعالى فما وصلوا إليه.

ولمَّا قُتِلَ الجوباني، ووقعت الأعلام، في الحال انكسر عسكر الشام، وولُّوا [٦٦ب] هاربين الغلمان، ونهب العسكر العربان، وولُّوا الترك في الحال منهزمين، ووقع في يد العرب كلُّ قليلِ الحظ مسكين، وصارت الترك بين مقتول ومجروح، والعربان قد نهبوا جميع موجودهم، وقد أخذوا المال، والروح.

وانتصر منطاش، والعربان وردّت عساكر الشام في أنحس حال، حفاةً عراة ماشين، والذي سلم منهم راح على بعلبك، والبقاع شلحوه الفلاَّحين، وقد أجاد صاحب هذا المفرد حيث يقول: [الطويل]

ومـا الـدَّهْرُ إلاَّ هكـذا فَاصْـطَبِرْ لَـهُ   رَزِيَّـةَ مـالٍ، أو فِـرَاقَ حَبِيـبْ

ثم استهلَّ شهر شعبان نهار الجمعة. وفي يوم الجمعة وصلت ناس كثيرة من عسكر الشام مشلحين مجرّحين، وقد أخبروا بما جرى عليهم، وما هم فيه، وحالهم يغني عن سؤالهم. وهم كما قال المثل السائر: (وَفِي الإشاراتِ ما يُغْنِي عَنِ الكَمَلِ)، وفزعت أهل دمشق واشتدَّ الخوف.

وقالت الناس: إن منطاش [٦٧أ]، والعرب يريد يأخذ المدينة فإنه لم يبقَ قدَّامه أحد من العساكر. وسمعوا الناس بموت الجوباني فحزنوا عليه؛ فإنَّ أهل دمشق كانوا يحبُّوه، رحمه الله تعالى.

ووصل الناصري سالم وعدَّة أمراء، واختفى الجوباني، ومأمور، وقرادمرداش، والأشرفي، وأفبغا الجوهري فضاقت صدور الناس عليهم، وبعث الناصري جواسيس إلى المعركة يكشفوا أخبار الأمراء الذي فقدوا من عسكر الشام.

وفي يوم الأربعاء خامس الشهر وصل قرادمرداش راكب على هجين وهو لابس

مبطنة عتيقة وقدَّامه بدوي. ففرحت الناس به ودخل إلى دار السعادة ففرحت الأمراء به، وأخبرهم بما جرى وكيف كسر منطاش، ولو كان معه مائة فارس كان قتله. (ولَّما كُسر العسكر أرميت نفسي عن الفرس، وقلعت قماشي أرميته، ومشيت هارب فمسكني هذا لبدوي وقال: أنت كسبي، وأخذني بيدي إلى خيمته، وقد سلمت روحي إلى الموت فقال لعجوز عنده، يا [٦٧ب] أماه، خذي هذا كسبي وخبّيه حتى أحزر أمره. فأخذتني وخبَّتني داخل الخيمة.

ثم بعد ساعة جاء إلى عندي البدوي، وقال لي: يا وجه، من تكون من الترك ؟ فقلت له، مملوك من بعض المماليك، فقال: ما أنت مملوك، وحليتك حلية أمير، وعليك الحشمة، والنعمة بائنة، اصدقني، ويكون ذلك خيراً لك، فما عليك بأس، ولا يقربك أحد فأنت كسبي. فقلت له، أنا قرادَمِرداش، فتبسَّم وقال: صدقت أكرمت، وأطعمني شيء وقال: طَيِّبْ قلبك، وصرت عنده، ثم إنه ركب وركبني وجاء بي إلى دمشق وهذه حكايتي)، ثم إنه أحسن إلى البدوي كثير وردَّه إلى أهله.

وسألوه عن الجوباني وباقي الأمراء قال: (لم أعرف لهم خبر)، ثم تواترت الأخبار بقتل الجوباني في الوقعة، وأنهم أبصروه قتيل. وذكروا أن منطاش حزن عليه، وغسله، وكفَّنه، وصلى عليه ودفنه رحمه الله تعالى. ولما بلغ السلطان ما جرى على العساكر، وأنهم انكسروا وقُتِلَ الجوباني صعب ذلك [٦٨أ] عليه وتأسف عليه.

ولما كان يوم الجمعة ثامن الشهر نادت المشاعلية في المدينة: (معاشر الناس ! لا يتأخر أحد بعد صلاة الظهر عن الجامع حتى يسمع مرسوم السلطان).

فتجمعوا الناس في الجامع إلى بعد الظهر، فلما صلوا قُرِئَ مرسوم السلطان، (إنكم يا أهل دمشق لكم الأمان، والإطمان على أنفسكم، وأموالكم وعفا الله تعالى عن ما سلف، فإننا لا نؤاخذكم بما كان منكم، وأن الركاب الشريف عزَّ نصره، والخليفة، والعساكر المنصورة، واصلين إليكم وقادمين عليكم لأجل مصالح البلاد، والعباد، فسبيل كل واقف عليه من الخاص، والعام امتثال المراسيم الشريفة، وكف أيديهم عن

التلاق، وحظ النفس، وكثرة الكلام، والكذب، والمداخلة بين العساكر، ومن خالف بين ذلك فلا يلوم إلا نفسه). وفرحت الناس بهذا.

وفي يوم الخميس حادي عشرين الشهر حضر أبو يزيد بتقليد الناصري بنيابة الشام، ولبس التقليد [٦٨ب]، وأوقدت له الشموع، ودقَّت له المغاني، وفرحت الناس به، وكان له يوم مشهود، ودخل إلى دار السعادة على عادة النواب، وحكم بها، وأطلق له السلطان بُصْرَى، والحراك الشرقي، والغزالية[1] زيادة على إقطاعه، وأنه يستخدم بذلك رجال يكونوا في خدمته، فإنَّ عسكر الشام قد ضعف. وفتحت أبواب المدينة واطمأنت قلوب الناس ولله الحمد.

وقائع أخرى مع منطاش

وتواترت الأخبار بخراب البلاد الشمالية، وأن منطاش نازل على حلب يحاصرها، وأهلها في ضيقة شديدة معه، وأن كمشبغا بنى أسوار حلب وصانها من العدو، وهذا من حسنات كمشبغا، ومن همم الملوك العالية، وقد بناه في مدة يسيرة. وصان حلب، وأهلها عن العدو، والأمر كله إلى الله تعالى فإنه الفعال لما يريد.

ثم استهل شهر رمضان المعظم يوم السبت. وفي ثامن الشهر نادى نائب الشام في دمشق: أن إذا ركب نائب الشام لا يتخلف عنه أحد، ومن خالف ذلك كان ماله وروحه للسلطان.

وفي يوم [٦٩أ] الاثنين عاشر الشهر ركب ملك الأمراء وعساكر الشام إلى بلاد الشام الشمالية نجدةً لكمشبغا إلى حلب.

وفي يوم الخميس تواترت الأخبار ودقَّت البشائر، وأن عسكر حلب قد كسر منطاش، وأن العرب قد وقع الخلف بينهم وبين منطاش، والناس ما لهم شغل إلاَّ

---

(١) الحراك: بلدة شرقي درعا اليوم، والغزالية قرية على طريق دمشق الأردن اليوم، ويطلق عليهاخربة غزالة، وفي الأصل الغزلانية وهي قرية شرق دمشق اليوم وأظنها لم تكن آنذاك عامرة أو موجودة.

الكذب، والكلام زائد وناقص لا أصل له، فنسأل الله تعالى أن يُصْلِحَ أحوال الناس.

ثم تواترت الأخبار أن منطاش على حلب، والعربان، وأهلها في ضيقة، وأنه قد كسَّر حجارة الطواحين وهلكت الناس من الجوع، وخربت بانقوسا كلها، وبقيت كيمان، والناس في دعاء إلى الله تعالى وابتهال في مثل هذا الشهر الشريف ليسكنوا عن الفتن.

وفي يوم الجمعة حضر مملوك الناصري وخبَّر أن ملك الأمراء قريب حلب، وأنه يريد يلتقي منطاش، وخافت الناس عليه، وعلى عساكر الشام.

وفي يوم الجمعة ثامن عشرين الشهر، حضر مملوك النائب وخبَّرَ أن ملك الأمراء قد رُدَّ إلى دمشق [٦٩ب] بالعساكر، وأنه نزل على المرج، وعيَّد برَّا البلد، وفرحت الناس كثير برجوعه وبرجوع العساكر سالمين، والحمد لله.

ثم استهل شهر شوال. وفي ثالث الشهر دخل النائب إلى المدينة، وأشعلوا له الشموع، ودخل إلى دار السعادة، وحضر في ذلك اليوم بريديّ من القاهرة بخلعة مليحة للأمير أيتمش، ونزل، وركب مع ملك الأمراء، وكان له زمان في القلعة.

وفي نهار السبت سابع الشهر، دقت البشائر لحضور أميرين وهم سندمر نائب حماة، والأمير إسماعيل ومعهم جماعة، وكانوا عند منطاش ففرح بهم النائب وذكروا أن منطاش هرب هو وجماعته، وما يعرف لهم خبر، وخافت الناس أيضاً [إن] طلع من دمشق فإنَّه شيطان.

وأعجب ما جرى في هذه السنة المباركة؛ أنه دخل في شوال عشرة أيام، ولا تحرَّك حجَّاج، ولا انتصب تحت القلعة حوض على عادته، ولا جاء أحد من الروم، فلا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا تعين أمير حاج، وبقيت الناس [٧٠أ] حاملين همَّ كيف ينقطع الحاج إلى بيت الله الحرام، وقد قال النبي (ﷺ): «**حجوا قبل أن لا تحجوا**»[1].

---

(١) ورد الحديث في: السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٣٤٠، ٣٤١، الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ٢٩، كنز العمال للمتقي الهندي ١١٨١٩، ١١٨٢٠، ١٢٣٩٠، حلية الأولياء لأبي نعيم=

والناس في خوف وضيق وشدة. وقال بعض المؤرخين: إن الحج انقطع ولم يحج أحد في سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، وفي سنة تسع وسبعين وسبعمائة كان فيها فتن ثائرة ولم يقدر أحد يروح.

ثم إن المحمل طلع يوم الخميس في تاسع عشر الشهر كأنه جنازة غريب لا خلفه، ولا قدَّامه، وليس معه شيء من السبيل، ولا سنجق سلطاني، إلاَّ المحمل، وناس قلائل، وطلع أمير الركب جندي حلقة، وسافروا وهم متوكلين على الله تعالى.

وفي يوم الاثنين عاشر الشهر حضروا أولاد منجك من القاهرة أمير إبراهيم مقدَّم ألف، وأمير عمر طبلخاناة. وخلع النائب في ذلك اليوم على جقمق بنيابة حمص.

وفي خامس عشرين الشهر حضر من حلب مماليك السلطان طالبين القاهرة نحو سبعين نفر.

ثم استهل شهر ذو القعدة يوم الاثنين. وفي يوم [٧٠ب] الخميس ثامن عشر الشهر نادى ملك الأمراء في دمشق على الأجناد، وأصحاب الضياع، أنهم يتوجهوا في خدمة والي الولاة إلى بلادهم، وكل من له بلد يعمّره، ويجلب أهله وفلاحيه، ويزرعوا البلاد على ما جرت به العادة، ولهم الأمان، والإطمان. وحضر من القاهرة بريدي، وعلى يده مرسوم شريف بطلب محمد شاه بن بيدمر إلى القاهرة.

وفي خامس عشرين الشهر سرح النائب إلى الزبداني، وقد أمنت الناس وطابت قلوبهم، وعمَّر كل أحد ما خُرِّبَ له وخرجت الناس إلى برِّ المدينة إلى أملاكهم. فنسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين. لكن الأسعار كانت غالية؛ القمح بمائتين وزيادة كل غرارة، واللحم كل رطل بأربعة، وكل شيء غالي. اللهم أرخص أسعار المسلمين، وأخمد الفتن يا رب العالمين !.

=٤/ ١٣١، كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤١٨، الضعفاء للعقيلي ٢/ ٢٨٦، ٤/ ١٣٥، العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٧٣، تاريخ أصبهان لأبي نعيم ٢/ ٧٧، السلسلة الضعيفة للألباني ٥٤٤، سنن الدار قطني ٢/ ٣٠٢.

ثم استهل شهر ذو الحجة يوم الخميس؛، وقد رد النائب من السرحة[1] وفي يوم الخميس نادت المنادية في المدينة: أن لا [٧١أ] يتخلف أحد عن الركاب الشريف إذا ركب، وكان سبب ذلك أنه حضر مملوك نائب حلب بأخبار ما هي طيبة، وأن عسكر حلب تجرد إلى عينتاب إلى منطاش، فكبس عليهم منطاش وقتل منهم جماعة ورجعوا إلى حلب في أنحس تقويم، وما نالوا غرض فأرسل يقول؛ (إنك تجيء إلى عندي حتى أروح أنا، وأنت إليه، ونكون عوناً عليه بعساكر الشام).

وكان قد حضر مرسوم السلطان بطلب كمشبغا من حلب إلى القاهرة.

وفي سابع عشر الشهر حضر كمشبغا من حلب، وحضر بريدي من القاهرة، وعلى يده مرسوم السلطان بخروج عساكر الشام إلى حلب ونائب الناصري.

سنة ١٣٩١/٧٩٣ ـ معركة في بلاد الشمال

ثم استهلت سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة يوم السبت وفي يوم الأربعاء رابع عشر الشهر، حضر بريديّ من بلاد الشمال يستعجل عساكر الشام، وخرج الناصري، والعساكر يوم الجمعة بعد الصلاة، وبقيت العساكر تنجر خلفه ثلاثة أيام. ونادى أن العرض يكون [٧١ب] على القطيفة، ومن تأخر انقطع خبزه.

وفي يوم الخميس حادي عشرين شهر الله المحرم، وصل إياس من صفد بعسكر صفد إلى دمشق، وطلع خلف نائب الشام وانقطعت أخبار العسكر عن دمشق، وكثر القيل، والقال بين الناس، والكذب زائد وناقص، ولم يصحَّ منه شيء ودخل المحمل إلى دمشق ثامن عشرين الشهر وفازوا بها فلله الحمد.

ثم استهل شهر صفر من السنة المذكورة. وفي يوم الجمعة منه حضر بريديّ من عند الناصري من حلب إلى نائب الغيبة، حاجب الحجّاب بأخبار العساكر أنهم طيِّبين، فدقَّت في الحال البشائر، وأظهروا الفرح.

(١) السرحة: المقصود بها: النزهة أو المغادرة لحاجة هي مسافة قصيرة.

وشاع الخبر، أن سولي مسك منطاش، ومنهم من قال إنه هرب. واختلفت الأقوال بين الناس في الكذب، وبقيت قلوب الناس خائفة باختلاف الأخبار. وثاني يوم نادوا المشاعلية أن يطلعوا الأمراء المتحلِّقين في المدينة، والأجناد، ولا يتخلَّف أحد يلحقوا نائب [٧٢أ] الشام الناصري، فخافت الناس أكثر، وأكثر، ولا بقي كبير يصدق، ولا صغير، فنسأل الله أن يرد العاقبة إلى خير.

وقد قال لي من كان مع نائب الشام الناصري؛ أنه لما دخل إلى حلب في خامس عشرين المحرم فرحت به أهل حلب كثير فإنهم يحبوه، وكان لدخوله يوماً مشهوداً.، وركب من حلب هو وعساكر حلب وقصدوا منطاش إلى مرجع مرعش، فوجدوه على مرج مرعش نازل، فركب وصافقهم، ووقع بينهم قتال عظيم، وقُتِلَ من الفريقين جماعة ولم يقدروا عليه ورُدُّوا إلى حلب خائبين.

وكان ذلك في كانون الأصم وهلك خلق كثير من البرد، لاسيما البرد الذي في بلاد الشمال، فإنه يَهْرِي كما قال فيه الشيخ عثمان الحكري هذا البُلّيق.

أَلْشِتَا هَجَم عَلَيّه كُنْتُ غَارِق في مَنَامِي
قُمتُ قِيم عَلَيه ثَاير اسْتَخَبَّا في عِظَامِي
أَلْشِتَا طَلَّبْ وَجَاني في غَمام بوجهِ عَابِسْ
دَقّ [٧٢ب] كُوسْ الرَّعْد بَرقُوا وَحَمَلْ رَاجِلْ وفَارِسْ
لَحِقَتني مِنْهُ زَمْعَهْ صِرت وَاقِفْ قَرْن يَابِسْ
بَقَتْ أسناني تَطَقْطِق صِرتُ غُتِمي في كَلاَمِي
وَقَوَامِي كَان مُقَوَّمْ انعوَجْ مِنِّي قَوَامِي
حِينْ لَقِيت وَجْهُ مُعَبِّس رُحت مِنْ خوفي اسْتَخَبِّيتْ
والمَرِيسْ، والزَّمهَرِيري فَتَّشُوا وَجَوْنيَ البَيْت

وَبقَــــا الغَـــــرِبِي يُشَـــعِّث بِنشَـــــافْ الغَـــــربْ جَنَّيْــــت

قُلــــتُ لا تَـــــنْخَسْ مِنُّـــــه قُمــــتُ لُـــو بِجَمْـــر حَــــامِي

انطفَـــا جَمــــرِي فِي نَفخَـــه وَصَرَعْنِـــــي فِي مَقَـــــامِي

ألشِـــــتَا شِـــــدَّه وسُـــــلْطَان لآ يُطـــــــاق، ولا يُعَانَــــــــدْ

إقتَصَــــدْ حَــــرْبِي وجَــــانِي قُلــــتُ لُـــو حِـــينْ جـانـي قَاصِــدْ

يـــا سَـــقِيعْ أيـــش ذي الســـقاعة جيتنـــــي يـــــا بَـــــردْ بَـــــارِدْ

مـــا أنـــا يـــا بَـــرد قَـــدَّكْ لآ يَغُـــــركْ مِــــنْ لِثَــــامِي

أنـــا قـــد أرميـــتْ سِـــلاَحِي جـــيرنَي وَرْعَــــا ذِمَـــــامِي

يـــا شِـــتَا قَويـــت عَلينَـــا مـــا تَـــرُوْح تَقـوَى عـلى أصـحابْ

القُـــماش [٧٣أ] الثِقْـــل، والجُـــوخ وَفِـــــرَى ألــــوان وســـــنجابْ

قـــالَ رُحـــت أَقْـــوَى عَلَـــيْهِمْ كَرْكَبُـــــونِي مــــن وَرَا البـــــاب

دَخلُـــوا جُـــوًّا البَشَـــاخِينْ(١) صِرتُ حَـــــاير في الظلامــــــي

في الزُقَـاقْ أصـفر عَـلِيَّ الـرِّيح كِنِّـي في الظُلْمِـــــــــه حَرَامِـــــــي

يـــا شِـــتَا عَرِّيـــت الأغصَـــانْ مِــــنْ حُـــــلى أوراق الأغصـــــانْ

قـــال صـــحيح لكنِّـــي اكْسِـــيتْ للرِّيَـــاض ديبـــاج عـــلى ألـــوَانْ

وأيـــــادي سُـــــحْبُ غَيثِـــــي جَارِيـــــه بِكُــــــل إحْسَــــــانْ

وتقـــــول عَنِّـــــي مُعَـــــبِّسْ مـــــا تـــــرى الـــــبرق ابْتِسَـــــامِي

وَتُغُــــــورُ الأرض تضــــــحَكْ عِنْــــــدَمَا يَبْكِــــــي غَمَامِــــــي

واعلم يا أخي أن البرد شدة يقتل إذا حكم على الإنسان. وقال رسول الله (ﷺ):

(١) البشاخين: ستور في البيوت للوقاية من البعوض ونحوه، المقفى الكبير ٢/ ٦٧، ٥/ ٤٥٦.

«الشتاء شدَّة ولو كان رخاء، وهو من بعض عذاب الله تعالى[1]».

وقد قال رسول الله (ﷺ): «أشدُّ ما تجدوه من البرد، وأشد ما تجدوه من الحر فهو من جهنم[2]».

ـ أجارنا الله تعالى منها ـ فإنها تتنفس في كل عام مرتين، نفس في الشتاء، ونفس في [٧٣ب] الصيف.

وقد قيل إن الله تعالى عذَّبَ الحَجَّاج عند موته بالبرد العظيم في المرض الذي مات فيه، حتى إنهم كانوا يقرِّبوا النار إلى لحمه فيكاد يحترق، ولا يحسّ بالنار، فلعنه الله. فإنه كان من الظَّلَمَةِ الكبار قبَّحه الله تعالى، وقد ذكرنا له ترجمة مليحة كما ينبغي في كتابنا (درر الأفكار في غرائب الأخبار).

ثم نعود إلى كلامنا. وبقي عندهم برد ومطر وغلاء كثير في حلب، وهم في أشدِّ حال. وهرب منهم أكثر الغلمان، والأجناد مما قاسوا من البرد.

ثم استهل شهر ربيع الأول وهم في حلب. وفي خامس الشهر حضر بريدي من القاهرة، وعلى يده مرسوم السلطان بإحضار عساكر الشام من حلب، وأن كل نائب يُرَدُّ إلى بلده، فردّت الناسُ ودخل نائب الشام إلى دمشق، وأشعلوا له الشمع، وكان له يوم مشهود.

وقائع في دمشق

وفي هذا الشهر حضر مرسوم السلطان، بأن يخربوا الباب الجديد الذي كان قد جدَّده منطاش خارج باب النصر، وكان باب مليح. وقيل إنه [٧٤أ] غرم عليه أكثر من ألف دينار مع جاه العمل، فأخربوه حتى لا يُسَمَّى بمنطاش، ولا يبقى له ذكر، فإن عدو المرء مَنْ عَمِلَ بعمله، فخرَّبُوهُ إلى الأرض حتى لم يبق له أثر.

وأعجب ما جرى في خرابه أن رجل متعدي وهم يخرِّبوا فيه فقال: (لأي شيء

(١) ورد الحديث في: كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٩.

(٢) لم يرد الحديث بهذه الصيغة.

يخربوه؟، والله كان باباً مليحاً). وصدق، فقاموا إليه مماليك السلطان برقوق ومسكوه وقالوا: (هذا منطاشي)، وقتلوه حتى كاد يموت. ولم يشتفي لهم قلب فحملوه إلى القلعة ولم يطلع له خبر بعدها، فلله در هذا الرجل قُتِلَ مظلوم على كلمة صدق قالها، وأرجو أنه مات شهيد رحمه الله تعالى.

ثم استهل شهر ربيع الثاني وفي هذا الشهر طُلِبُوا إلى القاهرة بمرسوم السلطان المحبوسين في القلعة الذي من جهة منطاش وهم، جردمر نائب الشام أخو طاز، وولده جربغا، وابن أخته سيدي ملك نائب القلعة، ومحمد شاه بن بيدمر، وعلاء الدين ألطنبغا استاددار جردمر [٧٤ب]، وشهاب الدين الزردكاش، والقاضي فتح الدين ابن الشهيد، والقاضي شهاب الدين ابن القرشي، وغيرهم.

وفي يوم الخميس توجَّه الجميع نحو القاهرة وهم مُقيدين محترز عليهم، وتجرَّد صحبتهم حاجب الحجاب ألابغا، ووصلهم إلى غزَّة، ثم وصلوا إلى القاهرة فأحضرهم السلطان إلى بين يديه، وعاتبهم على ما وقع منهم في حقِّه، ولم يسلم منهم إلاَّ شهاب الدين الزردكاش.

وقتل السلطان الجميع وظفر بأعدائه كلهم، وسلَّطه الله تعالى عليهم، وتحكم فيهم، وهذا عجيب، لكن بهذا حكم الله تعالى وهو الفعال لما يريد.

ثم استهل شهر جمادى الأولى. وفي يوم الاثنين رابع الشهر المذكور خلع نائب الشام على كزل حاجب ميسرة عوض أقبغا البزلاري.

وفي يوم السبت تاسع الشهر طلع النائب إلى المرج على عادة النوَّاب، واستمرَّ في المرج مدَّة، ثم نزل إلى دمشق.

وفي خامس عشرين الشهر سَعَّرَ الخبز أحمد الحاجب ابن البريدي بإشارة النائب رطل، وأوقية الخبز الخاص، وفرحت الناس كثير.، وأما ما دونه رطل وثلث إلى رطل ونصف. ففرح الفقير بذلك؛ ومشت أحوال الناس. فنسأل الله أن يرخص أسعار المسلمين، واطمأنت قلوب الناس وخمدت الفتن، وتراجعت الناس إلى بلادهم، وإلى

أملاكهم، والناس في نعمةٍ من الله تعالى، وقد هلكت الناس من بيع الخبز بالأواق، وقد أدمنوا على الغلاء.

ثم استهل شهر جمادى الآخرة. وفي نهار الأحد دخل حاجب الحجاب ألابغا فإنه كان قد راح مع المحبوسين في القلعة، وأشعلوا له الشمع ودقَّت له المغاني، وكان له يوم مشهود في دخوله.

وفي يوم الإثنين رابع عشر الشهر حضر إلى عند النائب جقمق نائب حمص، وكان النائب قد طلبه؛ فلمَّا حضر مسكه وحبسه في القلعة.

وفي يوم الاثنين حادي عشرين الشهر أمر النائب أن يُنَادَى على العسكر بالخروج في نهار الجمعة بعد الصلاة [٧٥ب] إلى صوب الكسوة[1]، والإقامة شهر، ثم شاروا عليه بعض الأمراء أنه يبطل هذه السرحة فإنَّ الأوقات ما هي طيِّبة فبطّل.

وفي نهار الأربعاء ثالث عشرين الشهر حضر بريديّ من ناحية بلاد الشمال، وعرّف نائب الشام الناصري أن منطاش قد جاء على البرّية صوب حماة وحمص ومعه خلق كثير من تركمان وترك وغيرهم، ثم إنَّه وصل إلى حماة فهرب نائب حماة ابن المهمندار.

ووصل الخبر إلى النائب الناصري أن منطاش وصل إلى حماة فصعب ذلك عليه وقال: (لا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !) وفي الحال طلب المشاعلية، وأمرهم أن ينادوا أن العسكر يتجَّهز للخروج بعد صلاة الجمعة؛ فلمَّا سمعت الناس هذا الخبر وقعت الأراجيف، والخوف في الناس، وطلب نائب القلعة الناصري وقال له: (أنا طالع من المدينة، حصّن القلعة واجعل بالك).

وطلع النائب يوم الجمعة وخافت الناس وانتقلوا أكثر الناس [٧٦أ] إلى جُوَّا المدينة، وغلقوا الأبواب وستروا القلعة وظهر خبره أنه نازل على حَسْيَا[2]، وأنه ابن هلال الدولة نزل على الزبداني، وكبس حارة قيس، وقتل منهم كثير.

---

(١) الكسوة: بلد من أعمال دمشق إلى الجنوب حوالي ٢٥كم.

(٢) حسيا: بلد على طريق حمص اليوم.

وأما ابن يهمر التركماني فإنه أخذ طرابلس. وتواترت الأخبار أن منطاش على بعلبك، وقد هرب نائب بعلبك إلى صفد. وتوجه الناصري وعسكر الشام إلى صوب البقاع قاصدين منطاش.

وبقي حاجب الحجّاب ألابغا نائب الغيبة، وبقيت الناس في حديث كثير زائد وناقص، وقد ستّروا القلعة، وقد أشعلوا حولها مسارج، ووصلت الأخبار إلى المدينة عند عشاء الآخرة أن أكثر عسكر منطاش قد نزل على المزَّة وباتت الناس في ليلة رديَّة خائفين من الحصار، وما قد جرى عليهم في أيام السلطان وهو على قبَّة يلبغا، والناس بين مكذِّب ومصدق.

الكفاح لدمشق

ثم استهل شهر رجب الفرد، وأصبحت الناس بينما هم في البيوت إذ سمعوا ضجةً عظيمةً، وطبلخانات تضرب حربي، فثارت الناس ونزلوا من بيوتهم ينظروا ما الخبر فوجدوا منطاش، وشكر أحمد، وعساكرهم، ومعهم ناس مثل التراب. وجاءوا إلى الميدان، ونزل منطاش في القصر الأبلق، وبقيت الناس حائرين في أنفسهم لأن عسكر الشام لم يطلع له خبر. وغلقوا أبواب لمدينة ودقوا في القلعة حربي، وهرب حاجب الحجاب إلى داخل المدينة، وبقيت الناس في خوف وضيق.

وأما العوام الذي هم برًّا المدينة؛ فإنهم راحوا إلى عند منطاش إلى الميدان وسلَّموا عليه، وفرحت به المناطشة وبقوا الناس داعين لهم، ثم إن منطاش نادى في الحال بالأمان، والإطمان، ولا يأخذ أحد لأحد شيئاً.

ثم ركب شكر أحمد، وركب معه جماعة من عسكرهم، وأتى إلى باب الصغير وهو مغلوق، ثم توجه إلى باب كيسان ففتحوا له الناس ودخل شكر أحمد، والمناطشة إلى المدينة على ساعة واحدة.

وهذا عجيب كيف تؤخذ دمشق على ساعة، ويدخلوا إليها المناطشة، والسلطان [١٧٧أ] برقوق يحاصرها شهرين، أو ثلاثة ما يقدر أحد منهم يصل إلى سورها.

وقيل إن الذين فتحوا باب كيسان كانوا من جماعة البيدمرية أصحاب أحمد شكر، فإنه منهم، ويسَمَّى بهم. ودخل أحمد شكر من الباب المذكور في جماعة كثيرة معه، والعوام حوله بالسيوف مسلولة، والناس يدعو له ولمنطاش. وطلع حاجب الحجاب إلى القلعة خوفاً على نفسه.

ودار أحمد شكر في المدينة، والعوام يدلُّوه على أصاطبل بيوت الأمراء، ويفتحوا أصاطبل الناس، ويأخذوا خيولهم، وقد أخذوا خيل كثير وسلاح، ولم يأخذوا سوى الخيل، والسلاح فإنهم كانوا معتازين إليهم، فإنَّ خيولهم كانوا ضعاف.

وفي الحال قويت شوكتهم وركبوا الخيول الملاح، ولبسوا أحسن السلاح. وركبت الناس معهم، وجاء أحمد شكر إلى بيت بيدمر سلَّم عليهم، وركب معهم أمير أحمد بن بيدمر، وأكثر البيدمرية، وقالوا في أنفسهم أنهم قد تملكوا المدينة، وقد راحت على الناصري.

وفي الحال طلب [٧٧ب] أحمد شكر إياس مملوك ابن الغاوي، وأعطاه ولاية المدينة، وركب الزعيفريني معهم، وأراد أن يصير قاضي قضاة دمشق، وأوعده منطاش بذلك، وأن يكون أحمد شكر نائب دمشق. ودار أحمد شكر في المدينة وخرج من باب الفراديس إلى الميدان وتخلَّفت المناطشة، وكان عندهم عيد بدخولهم إلى المدينة، وقد طمس الله تعالى على قلوبهم، ولا يذكروا عواقب الأمور لكن هذا كله حتى ينفذ القضاء، والقدر. وفي الحديث: «**إن الله تعالى إذا أراد إنفاذ قضائه وقدره، سلب أهل العقول عقولهم، سبحانه لا إله إلا هو**».

وكان حكمهم في المدينة دون نصف يوم، فإنَّ الأمور وصلت إلى غير أهلها، فلهذا كانت مدَّتهم يسيرة، أحمد شكر نائب الشام بعد بيدمر، وإياس، والي المدينة بعد ابن الغاوي أستاذه، والزعيفريني قاضي قضاة بعد ابن جماعة وغيره، وكتبوا مناشير كثيرة لأمراء، وأرباب وظائف، والناس [٧٨أ] طماعون، قتلهم حب الدنيا.

وفي تاريخ ابن كثير نظير هذه الحكاية:

قيل إنه لما تولَّى الخلافة المقتدر بالله، وعمره ثلاثة عشر سنة، في سنة خمس وتسعين ومائتين قالوا كبار الدولة؛ هذا صغير ما يصلح يكون خليفة فعزلوه، وولُّوا عبد الله بن المعتز يوم السبت فثارت غلمان المقتدر ولم يوافقوا على ذلك، وقامت معهم أكثر الناس.

قال الحاكي، (دخلتُ في ذلك اليوم على الإمام الطبري رحمه الله فقال لي: ما الخبر؟ فقلت، عزلوا المقتدر بالله، وولوا عبد الله بن المعتزّ الخلافة، قال: ولمن ولُّوا القضاء ؟ قلت: لأحمد بن يعقوب، قال: ولمن ولُّوا الوزارة ؟ قلت، لمحمد بن داود، فقال، هذا أمر لا يتم، فقلت، ولِمَ ذلك ؟

قال: لأن كل واحد قد فوضوا إليه منزلةً لا يستحقها، ولا هو من أهلها، وإذا وصلت الأمور إلى غير أهلها ما تدوم . فكان الأمر كما قال الشيخ:

عُزل ابن المعتز وقتل، وكانت خلافته يوماً وليلةً وقتل الوزير [٧٨ب]، والقاضي، وردّ المقتدر بالله إلى الخلافة). فهذا نظير ما جرى لهؤلاء الجماعة، والأمر كله إلى الله تعالى وهو الفعَّال لما يريد.

ثم نعود إلى كلامنا وبقيت الناس في خوف، والمناطشة في المدينة دائرين ينهبون إلى العصر، وإذا بغبار قد ثار حتى سدَّ الأقطار، وذكروا أن الناصري وعسكر الشام قدوصل من ناحية المزَّة، ففي الحال ركب منطاش، وركب عسكره وطلع من كان في المدينة منهم، ووصل الناصري إلى تحت القلعة، والعساكر ودخل إلى الميدان وتقاتلوا ساعة ولم يقدر عليهم. ودخل الليل وخرج الناصري إلى عند باب إصطبل السلطان عند تربة أرغون شاه، مفكر كيف يعمل. وباتت الناس في أشرِّ ليلة، وأكثرُ الترك باتوا على ظهور الخيل مُلبسين، وكذلك منطاش، وأعوانه.

ثم إن المناطشة أحرقوا دار يلوا، وربع الناصري الذي على باب الميدان، ونهبوا خام الناصري كله، فإنه كان في الحاصل الذي على باب الميدان، وصار لهم خام وخيول وسلاح [٧٩أ]، وقويت قلوبهم وانضاف إليهم كثير من العوام الطماعين الذين لا

عِرْضَ لهم، ولا دين، وأحرقوا أيضاً بيت يلوا.

وصارت النار تعمل في تلك النواحي طول الليل ولم يقدر أحد يروح إليها من المناطشة، وحفروا المناطشة خلف باب الميدان حفيرة حتى لا يقدر أحد إليهم منها، وقعد عندها أحمد شكر وجماعته يحمون الميدان، ونصبوا في المسجد الذي على باب الميدان مدفع، وصاروا يرموا على الناس به، ورُدَّت الناس إلى حصار وقتال وحريق كما كانوا، الذي خافوا منه وقعوا فيه: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

وبقي الناصري واقف عند تربة أرغون شاه طول الليل، وأصبحوا ثاني يوم تقاتلوا قتال عظيم، وقتل من الفريقين وجرح كثير، وبقي عند منطاش في الميدان بيع وَشِرى، والناس رائحين وجائين إليهم، وجابوا معهم أغنام كثيرة أخذوها من بلاد البقاع، وبقي عندهم اللحم ما يرضى أحد يأكله، وبقوا ينزلوا الصوالحة يتعيشوا [٧٩ب] عليهم، وأكثرهم يقاتلوا معهم، وكذلك أهل الشويكة، وكل نحس صار عندهم حتى يأخذوا أشياء من الناس بغير استحقاق، وأصبحوا المناطشة ثالث الشهر أحرقوا بيت ابن شرشي، وصارت القلعية ترمي عليهم بالمكاحل، والمناجنيق، والمدافع، ولا يفكّروا فيهم، وكل ما لهم في زيادة، وملكوا جامع يلبغا وصعدوا فوقه يقاتلوا.

واشتدَّ الأمر على الناس.، وأصبح نهار الخميس دقُّوا البشائر في القلعة، وذكروا أن نائب صفد إياس جايه نجدة إلى نائب دمشق الناصري ففرحت الناس، وبقوا في هرج ومرج، كما قال ابن حجة في المعنى شعراً: [الوافر]

رَأَيتُ مُعَذِّبي في المَرْجِ يوماً فَقَوَّتْ أَضْلُعِي نيران وهَجي
وَصِرْتُ أُكَابِدُ الأحزَانَ وَحْدِي وكُلُّ الناس في هَرجٍ ومَرَجي

وبقيت الناس في كلام كثير الصدق فيه قليل. ونصب أيضاً منطاش مدفع في التربة الذي بجنب جامع يلبغا، وصاروا يرموا على الناس بها ما تخطئ [٨٠أ] إلا تقتل واحد، أو اثنين، فإن الناس كانوا كثيرين تحت القلعة متفرِّجين ومقاتلين كوم لحم.

ونصب الناصري مدفع على جسر الزلابية وصار يرمي عليهم تجيء في الجدران قبل أن تصيب أحداً منهم. ونصبوا في القلعة على برج الكبش على جامع يلبغا يطلبوا خرابه ليلاً ونهار.

ونصبوا في القلعة أربعة مناجنيق في برج النارنج الذي على [٨٠ب] باب دار السعادة واحد، وفي برج الخليلية واحد، وفي برج الخليلية الذي على باب الحديد واحد، والذي في برج الكبش، هذا غير المدافع، والمكاحل، والأسهم الخطائية. ونصب الناصري مدفع على عمارته يرموا منه على جامع يلبغا وحدرة ملكآص، ووقت على باب الميدان، وأحرقوا المناطشة بيت ملك آص، ودار الغنم، وما حولها إلى عين دار البطيخ.

وصاروا المناطشة كلما قتلوا أحداً من البرقوقية يرموه في نهر الخندق، أو بردى، وصارت المكاحل تصرخ ليلاً ونهاراً، والمناجنيق ترمي حجارة كبار، وصارت الناس بين قتيل في الماء غريق وآخر يستغيث الحريق، كما قال المثل: (حريق وغريق وضرب منجنيق). وقال الشاعر في المعنى، وأجاد حيث يقول:

والأَرْضُ قد رَجَفَتْ بِصَرْ ... خَاتِ المَكَاحِلِ أَيَ رَجَّهْ

والخَلْقُ بالتَّكْبِيرِ قَدْ ... رَفَعُوا لَهُمْ فِي اللَّيلِ ضَجَّهْ

والناس في دعاءٍ إلى الله تعالى أَنْ يُفَرِّجَ عنهم هذه الضائقة وهلك الفقير وانكشف حال الغني، ولا بيع، ولا شِرَى، والناس منتظرين رحمة الله تعالى. وبقيت الناس على هذا الحال إلى ثاني عشر الشهر دقَّت البشائر في القلعة.

وذكروا أن ابن الحنش، ونائب القلعة [٨١أ] الذي لبعلبك دنكزبغا جايين، ومعهم عشران وغيرهم، نجدة إلى نائب الشام. فلمَّا سمع منطاش بذلك أرسلهم إليهم في الحال شكر أحمد وخليل بن القلانسي، وابن هلال الدولة بعشيره، ومعهم جماعة كثيرة، يلاقوهم إلى الطريق. فلاقوهم على عقبة الطينة فوق عين المنتنة[1]، وحملوا على بعضهم

(١) لعلها عين التينة، بلد من أعمال القلمون بدمشق.

بعض. فانكسروا القيسية أصحاب ابن الحنش على ساعة، وهرب ابن الحنيش ونائب بعلبك، ونجا من نجا بنفسه.

وقتل من الفلاَّحين مقدار ألف روح، كسبوا منهم سيوف ودرق كثير، وجابوا معهم مقدار مائتين نفس من القيسية مربّطين في حبال إلى الميدان إلى عند منطاش، ومسكوا ثمانية من أجناد نائب بعلبك فرسم بحبسهم، وكان حبسه طاحون الجوباني.

والحبَّاس أمير اسمه بوري أمير غضب، أي من غضب عليه ودُّوه إلى عنده ما يطلع له خبر.

وأما العشير القيسية؛ فإنَّ الميمنة عشير [٨١ب] ابن هلال الدولة تحكموا فيه، وما قولك في من يتحكم في عدوه، وما له دين يردّه ؟ ولهم عليهم ثار فعرُّوهم ثيابهم وسيوفهم، ودارت اليمنية حولهم بالسيوف كل من يلحق واحد يضربه يقتله. وهو عريان ولم يرقَ لهم عليهم قلب، قبحهم الله تعالى، ما أنحسهم، وما أجهلهم، وما أقلَّ دينهم، حتى امتلأ الميدان منهم، ثم إنهم جرُّوهم، وأرموهم في نهر الخندق، وجافت تلك الأرض منهم.

وذكر لي من أثق به أن عشير قيس ما جاءوا إلاَّ حتى ينهبوا دمشق كما فعلوا في أيام السلطان وهو على قبة يلبغا، فكانت هذه نيَّتهم ففعل الله تعالى بهم ما فعل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦].

ولما كان نهار الاثنين دقَّت البشائر وذكروا أنَّ إياس واصل من صفد، وأنه جايه على باب شرقي ومعه عسكر صفد. ففرحت الناس به، ووصل إلى تحت القلعة وركبت عساكر الشام وتقاتلوا قتال عظيم حتى أبصروا [٨٢أ] إياس شيء هاله من المناطشة، ورمت القلعة بالمدافع، والمناجنيق وقتل ناس كثير في ذلك اليوم، وقامت الحرب على ساق إلى غروب الشمس فردّ كلّ فريق إلى فريقه، وعمل نائب الشام زحَّافات تجري على الأرض مثل العجل وعليها جلود.

وركب ثاني يوم إياس، والناصري، والعساكر، وبقي إياس وجماعته يقاتلوا من تحت

القلعة للذي في جامع يلبغا، والناصري وعساكر الشام يقاتل عند تربة أرغون شاه إلى باب الميدان، وسودون باق وبعض عسكر الشام عند حكر السماق إلى قريب جامع تنكز، وجرى بينهم في ذلك اليوم حرب عظيم، ورمي مدافع، وحجارة مناجنيق، وصياح وضجات، ورمي نشاب.، وكان يوماً مهولاً، والناس بين قتيل وجريح.

وأحرق سودون باق في ذلك اليوم بيت الصارم البيدمري، وجامع تنكز، وحكر السماق، وعملت النار في تلك النواحي كلها، وكان [٨٢ب] حريق عظيم. وصعب ذلك على الناس كيف احترق بيت الله تعالى وفيه مصاحف، وكتب علم وحديث وغيرها، لكن الأمر كله لله تعالى.

وقتل في ذلك اليوم ابن الغزاوي، وبقيت تقاتل إلى غروب الشمس، [فـ] ذهب كل فريق إلى فريقه، وباتت النار تعمل في جامع تنكز وتلك النواحي، ولا يقدر أحد يطفيها، ولا يصل إليها.

وفي ثالث يوم، ركب الناصري، وإياس، وأتت إليه العساكر وطلب القضاة وقال لهم: (ما تقولوا في هذا الأمر؟ قد طال الشرح على الناس وغيرهم، وغريم السلطان ما يطلع من البيوت حتى ينتصف واحد منه، وقد هلكت الناس).

فقالوا له: (ارسم أن ينادى في المدينة ظاهرها وداخلها بأن لا يتخلف أحد من العوام، وأرباب الصنائع، لا صغير، ولا كبير، حتى يخرج يجهد بنفسه في نصرة السلطان الملك الظاهر برقوق، ومن تخلف راحت روحه وماله ونهبت دياره). فنادت المشاعلية بتلك المناداة في المدينة وبرَّاها [٨٣أ]، وخرجت حتى اليهود، والنصارى، وألزموهم بالقتال.

واجتمعت كل طائفة بطائفتها، وكل سوق بسوقه، وكل حارة بحارتها، بقسي ونشاب وعُدد وسلاح، وكل من له مكنة على قدر حاله، واجتمعت ناس كثيرة برَّا المدينة.

ولما سمع منطاش أن الناصري قد جمع عليه العوام نادى في نواحيه، (يا عوام أي من

ضرب بحجر، أو بعصاة قتل ونهب، ولا تدخلو بيننا وتفرَّجوا علينا !) فحارت الناس بينهم.

وكان أكثر الصوالحة مع منطاش فإنهم كانوا في ناحيته، وبقوا يداروا عن أصحابهم، وأرواحهم، وأموالهم، وأعراضهم. وفي الحديث عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت، قال رسول الله (ﷺ) «ذُبُّوا بأموالكم عن أعراضكم»[1].

حديث حسن. وقال أبو الحسن عفيف البوشنجي، فجعلته نظماً، شعراً: [الكامل]

قَـولُ النَّبـي المُصْطَفَى لَـكَ حُجَّـةً ... فقَبّلْـهُ بالتَقْبيـلِ لا الإِعْـرَاضِ

إِنْ [٨٣ب] قَـالَ في تأْدِيبِـهِ أصحابَهُ ... ذُبُّـوا بمالكـم عـن الأَعْـرَاضِ

وحارت الناس بينهم وتقاتل الفريقان في ذلك اليوم قتال عظيم، ولم يبقوا الترك، والعوام في ذلك مجهود، وقتل ناس كثير وجرح إلى المغرب تفارقوا، وكل من راح إلى جهته، ولم يبلغوا منهم غرض، والزعيفريني في جامع يلبغا يحرِّض المناطشة على القتال وقاتلوا المناطشة في ذلك اليوم قتال عظيم، ثم إن المناطشية بعد يومين ملكوا عمارة بهادر ونصبوا عليها مدفع وبقوا يرموا به إلى باب النصر، وحصل للناس منه أذى كثير فإنه ما يجيء إلاَّ في الناس، قليل أن يخطئ، وأهل القلعة ومدافع الناصري يرموا على الهواء وطال الشرح.

وخلت نواحي وادي الشقراء من سكَّانها، ونزلوا المناطشة فيها، وأخربوا تلك النواحي، وأما الميدان؛ فقد بقي كيمان، وقد عبرت الشقراء في الميدان، والبلق فقد قاسا كل [٨٤أ]الهوان، وأين عين ابن المعمار، وقد نظم فيهم الأشعار حيث يقول في وادي الشقراء، والميدان: [السريع]

قُولـوا لِمَـنْ قَـدْ جَاءَنَـا يَـدَّعِي ... بِحُسْـنِ مِصْرٍ وَهـوَ لَمْ يَصْـدُق

(١) ورد الحديث في: إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٦/ ٢٨٨، السلسلة الصحيحة للألباني ١٤١٦، تاريخ أصبهان لأبي نعيم ٢/ ٢١٣، تاريخ جرجان للسهمي ٢٣٣، كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤٨، ٥٠٢.

إنْ كُنْتِ فِيمَا تَدَّعِي صَادِقاً هَا دُونَكَ الشَّقرَا، والأَبلَق

وأين عين صدر الدين ابن الوكيل يراها في هذه الحالة، وقد قال فيها: [الكامل]

ومَنَازِلٍ بالنَّيْرَبَيْنِ عَهِدْتُهَا تُهْدِي إِلَيْكَ الرُّوحَ، والرَّيحَانُ

يَا مَنْ يَقِيْسُ بِهَا مَنَازِلَ غَيرِهَا هَا دُونَكَ الشقرَا، والمَيْدَانُ

واستمرَّ هذا الحال، ليل ونهار قتال، والناس في ضيقة وشدَّة، والذي كانوا برًّا المدينة فإنَّهم كانوا أطيب من الذي كانوا في المدينة، فإنَّ الشيء كان موجوداً عندهم، فقلتُ عند ذلك، (يا ربَّ الحرم، والبيت؛ انظر إلى حال أهل المدينة !) .

وفي نهار الخميس خامس عشر الشهر، دقَّت البشائر في القلعة وظهر الخبر أنَّ قرادمرداش نائب حلب واصل إلى الشام نجدة [٨٤ب]، وأنه على خان لاجين، ففرحت الناس ولم يكن له صحة.

وفي ثامن عشر راح جماعة من عسكر منطاش أخذوا خيل من وادي التيم وكانوا مقدار ثلاثمائة رجل، فلما سمع الناصري هذا الخبر بعث في الحال من عسكره مقدار ألف فراس إليهم، فلقوهم وكسرهم عسكر الناصري، فإنهم كانوا أكثر منهم، وأخذوا الخيل منهم وجابوهم إلى الناصري ففرقهم على العسكر.

وفي نهار السبت عشرين الشهر تقاتل الفريقان، ورسم ملك الأمراء الناصري لأهل الصالحية أن ينزلوا يقاتلوا معهم وحاروا بينهم، ورسم بغلق الطواحين الذي في الصالحية، وهلكوا الناس بين الطائفتين.

وفي يوم الأحد حادي عشر الشهر ركب ملك الأمراء وطلع إلى قبَّة يلبغا على أن منطاش يطلع إليه إلى الفضاء فلم يطلع.

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرين الشهر أخذوا جماعة الناصري من المناطشة عمارة [٨٥أ] بهادر الذي خلف دار الغنم على غفلة وقتلوا منهم ثلاثة، وأخذوا المدفع الذي كان عليها، وفرحت الناس كثيراً بأخذها من المناطشة، فإنه كان يحصل منها أذى كثير

وضرر للمسلمين. ورتب عليها الأمير الناصري الأمير البزلاري، ومعه جماعة كثيرة بعُدَد يحفظوها من المناطشة وتسلطوا على جامع يلبغا منها فإنها قريبة إليه، وصعب ذلك على المناطشة كثير كيف راحت منهم العمارة.

وفي رابع وعشرين الشهر حضر من القاهرة من عند السلطان أبو يزيد ومعه أمير من صفد، ومعه خزانة مال من عند السلطان حتى ينفقوها على العساكر، وذكر أنَّه فارق السلطان وعساكر مصر في غزَّة وفرح النائب، والناس ودقَّت البشائر. وبطل في هذا الشهر دوران المحمل، والموسم، وبقيت الناس في شدة وخوف وغلاء، وطال الشرح على الناس، وكثرت [٨٥ب] القتلى في الشوارع، ولا أحد يقدر ينام من صرخات المدافع، وما جرى على فرعون الذي طغا، ما جرى على جامع تنكز وجامع يلبغا، جَنَوا عليه، وما جنى، ورموه بالحجارة، وما زنى، وقد قال شرح حالهم الشيخ علاء الدين ابن أيبك حيث يقول: [الكامل]

يا ما دَهَى بالأمسِ جامِعَ تَنْكزٍ ... مِنْ شَرِّ يَومٍ كانَ بالمِرْصَادِ

مِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ السِنينَ وخَمْسِهَا ... في الذِّكْرِ، والصَّلَواتِ، والعُبَّادِ

وتَرَدُّدِ التَّسْبِيحِ في الأَسْحَارِ إنْ ... قَامَ المؤَذِنُ بالصَّلاَةِ يُنَادِي

أَلْقَوا بِهِ النِّيْرَانَ حتى أحْرَقُوا ... ما فيه مِنْ خَشَبٍ وَمِنْ أعوادِ

فَرُخَامُهُ ونُحَاسُهُ مُتكَسِّرٌ ... مُتَفَتِّتٌ كَتَفَتُّتِ الأَكْبَادِ

وتَسَاقَطَتْ أحجارُ مَأذِنَةٍ لَهُ ... كَتَسَاقُطِ الصَّخْراتِ مِن أطوَادِ

والنَّهرُ مِنْ بَعْدِ الصَّفَاءِ مُكَدَّرٌ ... فَكأَنَّهُ ما كان يَرْوِي الصَّادِ

ونَضَارَةٍ [٨٦أ] كانت على نَارِنْجَهُ ... لَبِسَتْ مِنَ الأَحْزَانِ ثَوْبَ حِدَادِ

والمَقَرُّ العَالِي عَلَيْهِ كَآبَةٌ ... مِمَّا جَنَى مِنْ فَوْقِهِ بِرَمَادِ

وَعَمَائِرٍ مِنْ حَولِهِ فَتَحَرَّقَتْ ... بَعْدَ الصَّلاَحِ تَبَدَّلَتْ بِفَسَادِ

وكَــذَاكَ جَــامِعُ يَلْبُغَــا قَاســاَ الــبَلاَ   مِـــنَ مَنْجَنِيـــقٍ هَـــادِمٍ هَـــدَّادِ
ومَــــدَافِعٍ كَرَوَاعِـــدٍ بَصَــــوَاعِقٍ   تَــنْقَضُّ مِــنْ سُــحْبٍ عَلَيْــهِ غَــوَادِ
رَجَمُــوهُ بالأَحْجَــارِ وَهْــوَ فَــمَا زَنَــى   لَكِــنْ تَحَصَّــنَ فِيْــهِ جَــيْشُ أَعــادِ
يـــا، ويـــحَ قُبَّتَـــهِ وَقُبَّـــةِ تُرْبَـــةٍ   قَـــدْ كَـــانَ سَـــاكِنُهَا مِـــنَ الأَجْـــوَادِ
والنَّـــارُ تَرْمِـــي نَحْـــوَهُ شَرَرٌ لَهَـــا   حُمْـــراً وصُـــفْراً مِثْـــلَ رِجْـــلَ جَـــرادِ
فَكَأَنَّـــــهُ وكَـــــأَنَّ جَـــــامِعَ تَنْكِـــــزٍ   وَدِمَشْـــق قـــد كَـــانُوا عـــلى مِيَعـــادِ

وصارت في الناس شدة وضائقة، اللهم فرج ضائقة المسلمين !

ثم نعود إلى كلامنا. وفرحت الناس بهذا الخبر وفرق الناصري الذهب الذي جاء مع أبي يزيد على العساكر على قدر مراتبهم، وبقيت الناس منتظرين قدوم السلطان.

وفي ثاني يوم أخذوا المناطشة عمارة [٨٦ب] بهادر من الناصري وقاتلوا عليها قتال عظيم، قتال من خرج عن نفسه، وطلعوا المناطشة إليها ورموا أرواحهم الذي كانوا على العمارة من جهة الناصري إلى دار البطيخ، وكانت ساعة لم ير أحد مثلها، وأحرقوا المناطشة دار البطيخ، وما حولها، وعادوا إلى ما كانوا عليه أولاً من الأذى، قبحهم الله ما كان أكثر أذاهم ! وصعب ذلك على نائب الشام كثير فإنهم كانوا يرموا عليه منها صوب تربة أرغون شاه وباب النصر.

وكان لهم مدافع آخر في المسجد الذي على باب الميدان يرموا منه إلى باب الحديد، وكان هذا المسجد من العجائب يخربوه جماعة الناصري بالنهار إلى الأرض، ويبنوه المناطشة في الليل ما يصبح إلاَّ معمور، وهم يرموا منه. هكذا فعلوا به مرار حتى سمُّوه مسجد الجنّ، وقد كانوا جماعة منطاش ما يصطلى لهم بنار قد خرجوا عن أرواحهم مثل الأُسود الضارية، والناس على هذا الحال فنسأل الله أن يرد العاقبة إلى [٨٧أ] خير.

ثم استهلَّ شهر شعبان يوم الثلاثاء فجاءَ إلى ملك الأمراء الناصري صبي من العوام كان عند منطاش في الميدان، وقد عرف الذي يروحوا إلى عند منطاش، ويجوا إلى الميدان

من أهل المدينة، وهم مناطشة وقال له: (يا خوند ! خليني أقعد جُوًّا باب النصر أمسك لك المناطشة الذي هم في المدينة الذي يروحوا إلى عند منطاش إلى الميدان، فإني أعرفهم كلّهم ولي مدّة عند منطاش في الميدان، وكل من يروح إليهم أعرفه).

فقاعده الناصري جوًّا باب النصر وَخَلَّى عنده جماعة من الظلمة إيش ما قال لهم يسمعوا منه، وأيّ من قال لهم (أمسكوه) يمسكوه في الحال، ويأخذوا كلّ ما كان عليه ومعه، وإن اعتنوا به حبسوه، وإلاَّ قتلوه. وحصل للناس الخوف من الصبي الذي كان يروح، والذي ما كان يروح توهم أن يشبهه بغيره يحترق في الحال، ويهلك بنارهم، حتى بقي أكثر الناس ما يطلع، ولا يعبر خوف من الصبي، ورتب له النائب كلّ يوم خمسة [٨٧ب]، وقعد على هذه الحالة مدَّة، والناس في ضيقة منه يتمنُّوا أنهم يبصروه خارج البلد حتى يقتلوه، ولم يقدر أحد عليه وصار له هيبة في قلوب الناس يخافوه أكثر من نائب الشام.

الناس منادون للتوبة

وفي يوم ثالث الشهر رأى رجل صالح من المسلمين النبي (ﷺ) في منامه، فقال له: (يا رسول الله ! ما ترى ما الناس فيه من الشدة، والنهب، والحريق وكثرة الفتن ؟) فقال رسول الله (ﷺ): «**اذهب إلى نائب الشام الناصري، وقول له إنه يرسم لخطيب جامع بني أمية أن يعظ الناس، فإنهم يجدوا بعد ذلك العفو بعد السخط، والرضا بعد الغضب**».

فجاء الرجل إلى الناصري وقصَّ عليه القصة كما أبصر في المنام، ثم إن الناصري رسم للخطيب أن يوعظ الناس في الجامع، فلما صلَّى الخطيب صلاة الظهر صعد المنبر واجتمعت الناس إليه فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، وعلى نبيه محمد (ﷺ)، وذكر الجنة، وما أَعَدَّ اللهُ تعالى فيها [٨٨أ] لأهلها وذكر النار، وما أَعَدَّ اللهُ تعالى فيها لأهلها ـ أجارنا الله تعالى منها ـ، ثم قال:

(يا معشر المسلمين ! إنما وقعت بنا هذه النازلة العظيمة لكثرة ذنوبنا، وارتكابنا

المعاصي، وكثرة الكذب، والفجور وقِلَّةِ الأمانة، واتِّبَاعِ الباطل، وأكل الحرام، وشرب الخمور، ومنع الزكاة، وترك الصلاة، وقِلَّةِ الحياء، وقِلَّةِ الخوف من الله تعالى، واتِّبَاعِ الهوى، ونِيَّاتِكُم الفاسدة، ولا ترحموا صغير لِصِغَرِ سِنِّهِ، ولا كبير لِضَعْفِ قُوَّتِه، ولاسيما في مثل هذا الشهر الشريف، شهر شعبان، الذي تتضاعف فيه الحسنات، وتُكَفَّرُ فيه السيئات، وقد ضيَّعْتُمُوهُ بما أنتم عليه من الهوان، فلا حولَ، ولا قُوَّة إلا بالله العلي العظيم.

وقد أمركم سيدنا رسول الله (ﷺ)، بالاسترجاع عمَّا أنتم عليه، والتوبة، والإنابة إلى الله تعالى وكثرة الاستغفار، فإن رجلاً من الصالحين أبصر نبيكم في نومه، وأمره أن يقول لنائبكم، إنه يقول لخطيبكم، إنه يعظكم وهانا قد وعظتكم وحذرتكم امتثالاً لما أمر به رسول الله (ﷺ).

فإيَّاكم [٨٨ب] إيَّاكم، والحذار الحذار من المخالفة، والعصيان، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النور: ٣١].

وإنْ لم تستدركوا ذلك بالتوبة الحقيقية وكثرة الاستغفار، والابتهال إلى الله تعالى، والدعاء، والتضرُّع إليه، وإلاَّ نزل بكم ما هو أشدُّ مِمَّا أنتم فيه، فقد وقع بكم الخوف، وسفك الدماء، وحظ النفس، واتِّباع الهوى، واحترقت دياركم، وبَطُلَتْ أسبابكم، وَسَبَوْا حريمكم ولعب الشيطان بكم، وبلغ منكم أُمنيته، وقد نزلت بكم هذه المصائب، وإنما أخشى عليكم ما هو أعظم من ذلك وكم أهلك الله تعالى من قبلكم من القرون الخالية، والأمم الماضية، وما كانوا في بعض ما أنتم عليه في هذا الوقت ن فاستيقظوا عبادَ الله من رقدتكم، وتوبوا إلى الله واستغفروه، وأكثروا من التوبة، والاستغفار، والاسترجاع بقول، لا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . أقولُ قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المسلمين). فحصل للناس الخشوع، والندم، والتوبة بما سمعوه في [٨٩أ] ذلك اليوم.

تجديد المنازعات مع منطاش

ثم إن الناصري يوم الثلاثاء، ثامن الشهر، جمع العوام قدَّام أبي يزيد، حتى يعرِّفه أنهم يقاتلوا مع السلطان الملك الظاهر برقوق، وما يبقوا مجهود، كلّ حارة بحارتها، وكل سوق بسوق، وحمل بهم على منطاش حملة هائلة، ووقع القتال، وعملت العوام في ذلك اليوم عمل هائل، وقتل منهم وجرح كثير إلى آخر النهار، وقد أعجبَ أبا يزيد فعل العوام ومدافعتهم عن بلدهم، وشكرهم على ذلك، وردَّ كل ناس إلى مكانهم.

وفي هذا اليوم مسكوا أربعة منهم بارود من طرابلس تركمان جائزين به إلى منطاش فوسَّطهم الناصري، والناس على هذا الحال لا يناموا ليلاً، ولا نهار، ولا يستلذُّوا بمنام إلا مكاحل تصرخ ليلاً ونهار، حتى ترجّ الأقطار، والناس حائرين في افتكار.

وفي هذا اليوم وصل نائب طرابلس أقبغا الصغير وابن الحنش، نجدة لنائب الشام في خلق كثيرة مثل التراب، وفرح بهم نائب الشام [٨٩ب]، والناس، والتقاهم إلى القابون[١] وفرحت بهم الناس كثير، وقالوا: عسى أن يكون على يدهم فرج، وقد هلكت الناس ودقّت البشائر، ودخل في مهرجان عظيم ونزلوا في المصلّى وميدان الحصى.

وذكروا أن نائب حلب جايه خلفهم نجدة، ففرحت الناس أكثر، وأكثر وخافت المناطشة منهم، وصبروا حتى دخل الليل.

وركب شكر أحمد وابن القلانسي ومعهم جماعة كثيرة طماعين، وجاءوا من على الشويكة إلى المصلّى، وقد كسروا الأبواب ودخلوا إليهم مثل الجنّ وهم تعابى، وقد أمنوا على أنفسهم وناموا وقلعوا سلاحهم، فحطوا فيهم المناطشة بالسيف فقتلوا منهم كثير، وأخذوا منهم سلاح وقماش وخيل كثير، وردُّوا تحت الليل إلى الميدان.

ولما أصبح الصباح وسمع النائب ما جرى على الطرابلسيين جاء إليهم ونقلهم إلى

---

(١) القابون: قرية من أعمال دمشق.

داخل المدينة، وارتصت العساكر من باب الجابية إلى باب الفرج في الدكاكين، والطرقات، وهم في أنحس تقويم، وأصبحوا الناس خامدين بسبب المناطشة وعسكر [٩٠أ] طرابلس.

وأما المناطشة؛ فقد أخذوا شيء كثير وتسلَّطُوا عليهم وخافوا منهم الطرابلسين، فإنهم عرفوا غرماءهم، وما حلَّ بهم تحت الليل، وما بقوا يقابلوهم واستمرُّوا الناس على حالهم كما كانوا في قتال كل يوم من بعيد إلى بعيد، وطال الشرح على الناس. وكانوا قد قالوا في أنفسهم لَمَّا دخل عسكر طرابلس أنهم يصبحوا يدوسوا المناطشة دوس لا يقفوا قدَّامهم لكثرتهم، لكن أرعبوهم، والأمور كلها إلى الله تعالى حتى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد في عباده، سبحانه لا إله إلا هو.

وفي يوم الخميس عشرين الشهر دقَّت البشائر عند المناطشة في الميدان وفرحوا، وكان السبب أن عنقاء أمير العرب قد وصل إليهم في ألف فارس، وخافت الناس منهم.

وفي السبت، ثاني عشرين الشهر، ركب الناصري، والعساكر كلها وتفرَّقوا على المناطشة ثلاث فرق، فرقة إلى تحت القلعة وجامع يلبغا، والعمارة، وفرقة مع النائب عند باب الميدان، وفرقة [٩٠ب] إلى القنوات إلى عند تربة ابن خمار. وعمل الحرب بينهم، وأرموا بالمدافع، والمناجنيق من القلعة، وجرى بينهم قتال في ذلك اليوم تشيب منه الأطفال.

وقتل في ذلك اليوم خلق كثير وجرح أكثر، وكان يوماً مهولاً، وأبصر عنقاء شيء ما أبصره عمره، وخافوا على أنفسهم وندموا الذي جوا إلى عند منطاش، ولم يزالوا على هذا الحال إلى غروب الشمس، ردَّ كل فريق إلى فريقه، ولم ينالوا غرض من بعضهم بعض، والناس تهلك بينهم، وعمائر تحرق وتخرب، وناس تنهب وتقتل، لا غير، حتَّى يفرِّجَ الله تعالى. وهم كل يوم في قتال.

تراجع منطاش ونهب الصالحية

وفي يوم الأربعاء، سادس عشرين الشهر، تقاتلوا إلى الظهر، وإذا بأخي منطاش

تمتتمر جاء إلى عند الناصري مخامر طائع للناصري، ففرح به وخلع عليه ومعه عشرة أنفس، ثم جاء بعد ساعة أمير يقال له خوضر، ولما سمع منطاش أن أخاه خامر عليه وخوضر، خاف [٩١أ] لئلا يخامر كل من معه، فركب في الحال هو ومن معه من العساكر بين الظهر، والعصر ومعه عنقاء قدَّام الناس، ودقَّ حربي، وخرج من صوب المزَّة، وجاءت الناس أخبروا الناصري بذلك، فركب الناصري وتبعه فلم يقدر عليه، ومسكوا من كان قد تخلَّفَ ومن كان غائب وعبر منطاش ومن معه إلى اللجاة(١) وحال بينهم الليل، وردّ الناصري ومعه جماعة من المناطشة.

وأما العوام فإنهم لمَّا راح منطاش من الميدان، دخلت الناس إليهم، وأخذوا الذي تركوه المناطشة ما لهم به حاجة، وطلعت الناس، والتركمان من طرابلس وعشير جبّة عسال(٢) وترك، وكل نحس ما له عرض نهبوا الصالحية، وأخذوا منها شيء كثير، وأفسدوا وقتلوا وخربوا وفعلوا كل فعل قبيح، وما لهم ذنب، قبحهم الله تعالى، حتى بكيت الناس عليهم. هذا بإرادة الله تعالى، وهو الفعَّال لما يريد، وباتت الناس حاملين هَمَّ أهل الصالحية، وما جرى عليهم [٩١ب] ودعوا عليهم الناس، وكان أكثر من نهب الصالحية الطرابلسيين، والصفديين وعشير من تلفيتا(٣) من الجبّة وبعض أهل دمشق الذي ما لهم عرض، ولا دين.

وأمَّا ملك الأمراء الناصري؛ لما رد من خلف منطاش في الليل جاءه الخبر أن الأمير نعير وعربه نزلوا على عذراء(٤) وضمير وشعثوا على الناس، فركب في الحال، وركب

---

(١) اللجاة: منطقة جنوب شرق دمشق وعرة وحصينة بشكل طبيعي.

(٢) المقصود بها عسال الورد شمال دمشق على حدود مع لبنان، وبجانبها قرية الجبة من أعمال القلمون.

(٣) تلفيتا: بلد من أعمال دمشق إلى الشمال الشرقي منها حكم دمشق أحد أبنائها وهو القاسم التراب عدة سنوات.

(٤) عذراء: قرية شرق دمشق، وقد مرَّ بها خالد بن الوليد عند ذهابه إلى اليرموك كانت من أماكن الغساسنة في الجاهلية.

معه العساكر كلها، الطرابلسيين، والصفديين وهم تعابى موتة، وطلع بهم تحت الليل إلى نعير يواقعه، وجهل الناصري بالعسكر، وحمل على نعير قبل أن تجتمع العساكر وهم تعابى وخيولهم موتى، وهم على آخر روح، فحملت العربان عليهم حملة واحدة، فما وقفوا قدَّامهم إلا وانكسر الناصري، والعساكر وردّ هارب.

ونجا كل من كان له نصيب فيما عليه وتحته.، وكان نهار الخميس، وردّت العساكر ودخلوا إلى المدينة وبعدما صحّوا من الخمار، كلّ اثنين راكبين على حمار، مكشفين الرؤس، قد زهقت [٩٢أ] منهم النفوس، وقد قال الشيخ علاء الدين ابن أيبك شرح حالهم في هذه القصيدة شعراً: [البسيط]

يـا وَقعـةً في ضُـمَيرٍ مـع نُعَـيْرٍ جَـرَتْ ... بـالأَمسِ مـا بـينَ أتـراكٍ وعُرْبَـانِ

يَومَ الخَمِيسِ التَقَوا وَقْتَ الهَجِيْرِ وَقَدْ ... تَمَـاوَتُوا بَـينَ عَطْشَـانٍ وتَعْبَـانِ

تَصَادَمُوا فَوقَ جُرْدِ الخَيْلِ واخْتَلَطُوا ... مِثْـلَ اخـتِلاطِ شَـوَاهِيْنٍ وعِقبَـانِ

والبِيضُ حُمْرُ الدِماء في وَقْعِهَا سَفَكَتْ ... وَأفجْعَتنَـا بأشْـيَاخٍ وشُـبَّانِ

والسُّمْرُ سُمْرُ القَنَا للسِّتْرِ قد هَتَكَتْ ... بِكُـلِّ رُمْـحٍ تَلَـوَّى مِثْـلَ ثَعْبَـانِ

وَفَرَّقَـتْ بَـينَ أَجْسَـادٍ، وأنْفُسِـهَا ... فَأَصْـبَحَتْ كَبُيُـوتٍ هَـدَّهَا البَـانِ

وبَعْـدَمَا أَكَلُـوا لَحْـمَ الظِّبَـا أَكَلَـتْ ... لُحُـومَهُم أَضـبُعٌ سُـودٌ وغِربـانِ

هذا [٩٢ب] قضاءٌ قَضَاءُ الرَّبُ مِنْ قِدَمٍ ... فَـمَا تَفضَـوا لَنَـاء، والأَمـرُ رَبـانِ

ورجعت التركُ مكسورين، وراحت العرب منصورين، ومن أعظم العظائم، أن تفوز العرب من الترك بالغنائم، وقد أجاد الشاعر حيث يقول مفرد: [الطويل]

بِـذَا قَضَـتِ الأَيَّـامُ مَـا بَـيْنَ أَهْلِهَـا ... مَصَـائِبُ قَـوْمٍ عِنْـدَ قَـوْمٍ فَوَائِـدُ

ثم نعود إلى كلامنا. وقالوا الناس: ما جرى هذا كله على العسكر إلا بخطية أهل الصالحية، فإنهم نهبوهم وليس لهم ذنب، وهكذا جرى عليهم، ونهبوهم المُغْل أيضاً لَمَّا دخل قازان إلى دمشق، وكان نهبهم في يوم السبت خامس عشر شهر ربيع الآخر سنة

تسع وتسعين وستمائة.

وكان سبب نهب الصالحية؛ أنه كان عندهم أمير من المغل يحميهم فوجد امرأةً في جامع المظفري فمدَّ يده إليها ومسكها، فاستغاثت بالناس فرماه بعض أهل الصالحية بحجر في رأسه فقتله، فوصل خبره إلى قازان وشكوا على أهل الصالحية حاشية الأمير.

فقال [٩٣أ] قازان، (أهل الصالحية حسبناهم في طاعتنا، وقد ظهر بأنهم باغين علينا، فقد وقع عليهم السيف وحُكْم سياسة التتار !) فعند ذلك أمر بنهبهم، واحتاطت المغل بهم، ونهبوا أموالهم، وسبوا حريمهم، وأحرقوا أملاكهم، وقتلوا رجالهم، واستأسروا أولادهم، وجعلوا الصالحية دَكّاً إلى قرية المزَّة، وقد فعلوا كلّ فعل قبيح ما هو مليح، وقيل أنهم أخذوا من بنات الصالحية الأبكار ما ينيف على ألف بنت بكر.

ثم إن الشيخ تقي الدين ابن تيمية طلع إلى قازان ملك المغل وهو نازل خارج دمشق في مكان يسمى مرج عذراء يخبره بما جرى على أهل الصالحية، فلم يمكنه الوزير سعد الدين من الدخول إلى قازان وقال له: (ما هو مصلحة فإن جيش الملك ما حصل لهم شيء من المكاسب، وهم يرون فائدة، والملك يريد رضاهم، فإن حدثته فيهم شيء ما يسمعه، وأخاف أن يغضب، ويلحق أهل دمشق أذية بسببهم). فعاد الشيخ تقي الدين ولم [٩٣ب] يدخل إلى قازان.

وقد ذكرنا دخول قازان إلى دمشق وكيف كسّر الملك الناصر على وادي الخزندار، وعود الملك الناصر إلى دمشق، وكيف كُسِرَ قازان، وما جرى لهم في دمشق من الحوادث، كما ينبغي في الجزء الثاني من كتابنا (درر الأفكار في غرائب الأخبار) في أيام الملك الناصر محمد بن قلاون رحمه الله تعالى.

ثم نعود إلى كلامنا، وركب الناصري يوم الأحد، وقد تجمَّعوا بعض العساكر وراح بهم إلى صوب الكسوة يكشف الدروب، والطرقات، وقد رحل نعير، والعرب عن البلاد وبعث يعتذر إلى نائب الشام، ويقول: (أنا مملوك السلطان) قول زورٌ من وبهتان.

وقتل في هذه الوقعة خلق كثير منهم أمراء مثل ابن منجك أمير عمر، وابن الحنش،

وابن الغزاوي، وكرجي، وأحمد، والي البرّ، وغيرهم. وقيل: قتل في هذه الوقعة ألف ومائين وستين، ما بين جندي، وأمير وغلام، وغيره من الفريقين.

وفتح [٩٤أ] الناصري أبواب المدينة ونادى بالأمن، والإطمان، وانشرحت الناس وراحت العساكر إلى بلادهم، وطلعت الناس إلى بيوتهم وفتحوا دكاكينهم، ولطف الله تعالى بعباده وفرج عنهم، وقرب شهر رمضان المعظَّم، والناس في غفلة عنه من عظم ما هم فيه.

ثم استهل شهر رمضان المعظَّم. وفي نهار الاثنين حضر إلى عند النائب مملوك قرادمرداش، وذكر أنه خلَّى السلطان الملك الظاهر في غزَّة، ودقَّت البشائر وفرحت الناس. وحضر بعد أيام رجل وخبَّر أن منطاش على الأزرق[1]، وقد وقع بينه وبين عنقاء.

وحضر بعد أيام خبر أن منطاش راح إلى عند نعير وهو معه. وقرب السلطان إلى دمشق، ووصل إلى الغور، وطلعت الأمراء تلاقيه، وطلع نائب الشام الناصري إلى السلطان يلتقيه، واحتفلت الناس لدخول السلطان، ونصبوا السقائف.

وفي يوم الخميس ثاني عشرين شهر رمضان المعظَّم سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة [٩٤ب]، دخل السلطان الملك الظاهر برقوق إلى دمشق، والناصري حامل القبّة، والطير على رأسه، وشموع موقودة، ومغاني تضرب، وبسطوا له الشقق من باب المصلى إلى باب السر على عادة الملوك، وبقيت الناس تدعوا له، والنساء تزغلط، ولم يزال إلى باب السر. ودخل معه إلى القلعة، وقد عَمّر نائب القلعة أكثر مواضعها، وبيَّضها، وفرّشها.

ونزل السلطان على كرسي الملك، ووقفت أرباب المناصب كلّ واحد في موضعه في خدمة السلطان وفرح بدخوله إلى القلعة، بعد أن كان في قلبه من الدخول إليها غصَّة،

---

(١) الأزرق: نسبة إلى نهر الأزرق بالأردن اليوم.

وقد أخرجه الله تعالى من السجن كيوسف في الأزمان، وردَّ عليه مُلْكَهُ كما ردَّ المُلكَ على سليمان، وهذه أجلُّ الكرامات، فعند ذلك مدحه الشيخ شمس الدين الزرخوني بهذه الأبيات شعراً: [البسيط]

مَا [ ] في البَرِيَّةِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ ... مِثْلُ المَلِيكِ الذي يَعلُو على الرُّتَبِ
المَالِكُ الظَّاهِرُ المخفي حَاسِدُهُ ... أبو سعيد الذي قد جَادَ بالذَّهَبِ
لَيثُ الحُرُوبِ ولَيْلُ النَّقْعِ مُعْتَكِراً ... إذا الأَسِنَّةُ تَبدُوا فيه كالشُّهُبِ
سَلْ عَنْهُ يَومَ اللِّقَا مَنْ كَانَ حَاضِرهُ ... يُخْبِرْكَ ما حَلَّ بالأَعْدَاءِ من عَطَبِ
أَبَادَهُمْ بِالقَنَا الخطي عَنْ عَجَلٍ ... وصَيَّرَ التُّرْبِ تَنْعيهم إلى التُّرَبِ
وَحَلَّ فَوْقَ سرير الملكِ في حُلَلٍ ... مِنْ نَصْرِهِ بَعْدَ حَلِّ العَقْدِ، والكُرَبِ
وحَقَّهُ السَّعْدُ، والإِقْبَالُ جاءَ لَهُ ... والنَّاسُ في فَرَحٍ أضحَوا وفي طَرَبِ
وأهلكَ اللهُ من أعداءِ دَوْلَتِهِ ... من طاشَ مِنْهُمْ ولم يَرْجِعْ ولم يَتُبِ
هذا الذي نشرَ العدلَ المُبِينَ وَمَنْ ... طوى المَظَالِمَ بالعلياءِ، والحَسَبِ
هذا الذي تَمْلأُ الدُّنيا مَهَابَتُهُ ... هذا الذي فيه قَصْدُ المرءِ لَمْ يَخِبِ
هذا الذي ما رَأَيْنَا مِثْلَ سِيْرَتِهِ ... ولا سَمِعْنَا عَنِ المَاضِيْنَ في الكُتُبِ
هذي أُمُورٌ رَأَيْنَاهَا مُعَايَنَةً ... صِدْقَاً فَدَعْ عَنْكَ ما قَالُوا مِنَ الكَذِبِ
أَتَتْ إِلَيْهِ مُلُوكِ الأرضِ قاطِبَةً ... يَبْغُونَ قَتْلَتَهُ مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبِ
رُدُّوا بِهَمٍّ وَذُلٍّ بَعْدَ عِزَّتِهِمْ ... ولم يَنَالُوا خِلافَ الذُّلِّ، والتَّعَبِ
هَيْهَاتَ أَنْ يَقتُلوا مَنْ كَانَ قَتْلَتُهُمْ ... على يَدَيْهِ وذا مِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ
اللهُ يُنْجِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ أَبَداً ... اللهُ يُعْطِيْهِ ما يَخْتَارُ مِنْ طَلَبِ
واللهُ يُبْقِيهِ في أَمْنٍ وفي دَعَةٍ ... طولَ الزَّمَانِ بِلاَ هَمٍّ، ولا نَصَبِ

مـــا دَامَ فَـــوْقَ سَرِيـــرِ المُلْـــكِ جَلسَـــتُهُ ومـــا دَعَونَـــا لَـــهُ في آخـــرِ الخُطَـــبِ

[٩٦ب] وخلع السلطان على الأمراء على عادة الملوك، وقعدت أرباب الوظائف في مراتبها، ودخلت بعد دخوله الأطلاب، والترك ملبّسين، حتى انذهلت الناس من حسن العساكر الذي دخلت مع السلطان، وكان يوم مشهود ما أبصر أحد مثله، ونادى في المدينة بالأمان، والإطمان، وأن لا يتعرَّض أحد [٩٧أ] إلى أحد، ومن له مظلمة يقف يشكي حاله لمولانا السلطان، وزيِّنُوا المدينة، والعصر طلع السلطان إلى الطارمة[1]، وقعد فيها وبقي يتفرَّجُ على الناس، فسبحان من يعزّ، ويذلّ، ويغني، ويفقر، لا إله إلا هو، ورمى على الناس كواغد الفضَّة من الطارمة، وبقيت الناس تدعوا له.

وتفرَّقوا المصريين في المدينة وجامعهم كلّ نحس وفاجر، وتسيبوا على أهل دمشق حتى أهلكوا الناس، وكان أكثرهم لصوص يأخذوا مالك وعينك في عينهم، وقد جرى لهم مع أهل دمشق فصول في نوع الحرام.

منها ما قد حكى لي من أثق به؛ أنه نزل في خان برًّا المدينة، وكان من أهل بعلبك، وكان في الخان نفر السلطان وهم كبار اللصوص قال: (وكان معي حمار فبقيت خائف عليه منهم، فخرجت في بعض أشغالي، وقد وصيت الخاني على الحمار، فقضيت شغلي وجئت إلى الخان فلم أجد الحمار في مكانه، ففتشت عليه في الخان فلم أجد، ووجدت النفر قد [٩٧ب] خرجوا من الخان بالجمال، فقلتُ، يا خاني أين حماري فقال: ما خرج أحد بحمار قدَّامي، قلت، فأين هو ؟ قال: ما أعرف، قلت: لا يكون أخذوه النفر، قال: ما خرجوا بحمار، لكن الحقهم الساعة كما خرجوا .

فخرجت خلفهم ولحقتهم عند باب النصر وقلت لهم، يا جماعة الخير ! الحمار أين هو؟، قالوا: أي حمار، نحنا ما معنا حمار، قلت: من إحسانكم ولكم الحلاوة، وتذلَّلت لهم، وقد قالت الفضلاء، لا باس بالتذُّلل في طلب الإفادة ودخلت عليهم قالوا: هات !

(١) الطارمة: شرفة مرتفعة.

فوزنت لهم عشرين درهم، فلمّا أخذوا الدراهم برّكوا جمل عليه خيش التبن، وشالوا الخيش، وإذا بالحمار مربوط على الجمل كأنه خروف، فحلُّوه، وأخذته ورديت انتقلت من الخان).

وهذا يكفي السامع من أوصافهم القبيحة، والذي عنده ذكاء، فإذا كان هذا في حمار سرقوه وخبُّوه حتى عجز صاحبه أن ينبشه، فما الذي يعملوا في قماش ودراهم وفلوس؟، وقد ذكر الشيخ كمال الدين المعروف [٩٨أ] بابن الأعمى في مقامته التي هي في عشرة من المحارفين، كلّ واحد له حرفة يصفها، منهم لصّ قد وصف صناعته.

قال الشيخ، (فعندما سمع اللص مقال صاحبه البحري وثب قائماً وجعل يقول بلسان جريء وجنانٍ قويّ، ولا يفكر فيما يقول، ولا يدري ما إليه أمره يؤولُ، وقال يا هذا، لقد قلت فأبطأت، وتكلمت فأخطأت، ويحك !

أما سمعت بجوّال السباسب، وخواض الغياهب، السالم من المعايب، المعروف في المشارق، والمغارب، أما علمت أني قليل العدد، كثير المدد، خفيف الرِّجْلِ، واليد، كما قد أطلقتُ قفلاً موثقا، وفتحتُ باباً مُغلقا، وأورثت الحزن، والكآبة، وورثت صاحب المال من غير قرابة، كم وسّعت من نقوب، وضيقت من قلوب، كم استَبَحت حِمَىً منيعا، وبلغت مكاناً رفيعا، وأعجزتُ الوُلاةَ ونُوَّابها، وركبتُ من الطرق صعابها، لا أخشى نوائب المحذور، ولا أفكر في عواقب الأمور [٩٨ب]، لا يهولني الإقدام، ولا تعتريني الأوهام، ولا تغيُّرني الأيام، واستوى عندي الحلال، والحرام، لا أستعين بمحاذي، ولا رفاق، ولا يفوتني درب، ولا زقاق، فمن ذا يبارزني، أو يناضل، في هذه الخصائل ؟) وهو كما قال فيه المؤَّال:

أفـدي لِلـصِّ غـداً بَـيْنَ الـوَرَى يـا زَيْـن
هَجَّـام في اللَّيـل شَـاطِرْ مـا يَخَـافُ الحَـيْن
يَنْشُـلْ بـبطء، حقيقـةُ صِـدْقِ مـا هُـو مَـيْنْ

وَيَمْسَحُ الكُحْلَ سَرْعَةً مِنْ سَوَادِ العَيْنِ

قَبَّحه الله تعالى على هذه الخصائل الردية المذمومة.

مسألة في المعنى

سأل بعضهم بعض المشائخ فقال له: (كيف يكون دية اليد في الشرع، فإنها نصف دية ستة آلاف درهم، فإذا سرق الرجل وجب قطعها على ثلاثة وثلث). فقال له الشيخ، (اعلم يا ولدي أن اليد لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت)، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة: ٣٨].

وقال رسول الله (ﷺ): «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه [٩٩أ] فقد أوجب الله تعالى له النار، وحرم عليه الجنة**[١]».

فقال رجل: (وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟) قال: «**وإن كان قضيباً من أراك**»[٢].

حكاية:

قال بعض أهل العلم: (رأيت فلان البياع في النوم بعد وفاته فقلت له، ما فعل الله بك؟ قال، أنا محبوس عن الجنة، قلت، بماذا ؟ قال، كنت أبيع في الدكان، ويزدحمون الناس فآخذ دراهمهم أضعها في فمي، فإذا تفرّغت وزنتها، وأعطي كلّ واحد حقّه، فاختلط في فمي درهمان، فوزت الواحد، وأعطيته لغير صاحبه.

وكان زائد حبّة، فلمّا حوسبت بقي علي حبّة . فقلت له، ادفع له الحبّة وتتخلص، فجعل يقلب كفيه، ويقول، أين هي، أين هي ؟ مراراً). وقال بعضهم (أنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه).

حكاية:

ويروى أن أنوشروان كان له معلّم أحسن تأديبه فعلّمه أكثر العلوم، فضربه المعلّم

---

(١) ورد الحديث في: سنن النسائي (المجتبى)٨/ ٢٤٦، أبو عوانة ١/ ٣٢، الدر المنثور للسيوطي ٢/ ٤٥.

(٢) لم يرد الحديث بهذه الصيغة.

يوماً من غير ذنبٍ فأوجعه فحقد أنوشروان على معلِّمه، فلمَّا وَلِيَ الملك أنوشروان قال يوماً لمعلِّمه، (ما حملك على ضربي في يوم [٩٩ب] كذا وكذا ظلماً ؟) قال له معلِّمه، (رأيتك ترغب في العلم رجوتُ لك المُلْكَ بعد أبيك فأردتُ أن أذيقك طعم الظلم كيلا تظلم أحداً).

قال: (جزاك الله خيراً)، وأحسن إليه، فكان أعدل أهل زمانه، حتى صار يُضْرَبُ به المثل في العدل، وقيل: كان مكتوب على بساط إيوانه هذه الأبيات، وقد أجاد الشاعر حيث يقول: [البسيط]

لا تَظْلِمَنَّ إذا ما كُنْتَ مُقْتَدِراً   فالظُّلْمُ مَقْدرَةٌ تُفْضِي إلى النَّدَمِ

تَنَامُ عَيْنَاكَ، والمظْلُومُ مُنْتَبِهاً   يدعو عليكَ وعَيْنُ الله لَمْ تَنَمِ

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقد وصفه الله تعالى بالظلم، وقال ميمون، (كفا بهذه الآية وعيداً للظالم). اللهم ادفع عنا شرَّ الظلمة يا رب العالمين !

السلطان في حلب... حكم سودون باق الشرير في دمشق

ثم نعود إلى كلامنا. وفي يوم الجمعة ثامن الشهر، صلَّى السلطان وبرز إلى برزة، وطلعت العساكر كلها، وطلع الناصري معه طالبين بلاد الشمال بلاد حلب، وأعمالها، وبقي في دمشق نائب الغيبة سودون باق، ويوم [١٠٠أ] الأحد رحل عن برزة السلطان.

ويوم الثلاثاء ثاني عشر الشهر حضر إياس من صفد، وفي يومه خرج يلحق السلطان وبقي نائب الغيبة سودون باق في دمشق يحكم عسَّاف، ولا حكم قراقوش، حتَّى خافت الناس منه كثير، فإنه كان ما يفرق بين الظالم، والمظلوم.

وفي يوم الاثنين ثاني عشرين الشهر خرج المحمل جريده، وليس معه سبيل، ولا

طبلخانات، ولا راوية[1]، إلاَّ أناس قلائل، وكان أمير الركب أقبغا البزلاري.

وفي ثالث عشرين الشهر مسكوا رجلين شباب من تحت القلعة بعد عشاء الآخرة، وجابوهم إلى سودون باق فضربهم ورسم بتسميرهم في الحال، سمّرهم لكون أنهم وجدوهم تحت القلعة بعد عشاء الآخرة، عملوهم مناطشة وسلقوهم. وبقي يحكم أحكام ردية حتى أقعد أهل دمشق، ولا بقي أحد يضارب أحداً، فإنه كان أي من دخل إليه ضربه سواءٌ كان ظالم، أو مظلوم، وجرى له مع أهل دمشق حكايات كثيرة [١٠٠ب] لا حاجة لذكرها فإنه ظالم، والسلام من كبار الظلمة.

وفي يوم السبت آخر الشهر وصلت الأخبار إلى دمشق مع مملوك نائب الشام، أن السلطان الملك الظاهر قد دخل إلى حلب، وفرحت الناس به، وأشعلوا له الشموع، وكان لدخوله يوماً مشهوداً، ثم إنه جرَّد الناصري نائب الشام، وأيتمش، وكمشبغا، والأمير بُطا إلى البيرة، وبقي هو ومماليكه في حلب وبقية الأمراء وبقي في حلب غلاء عظيم، كل رطل خبز بدرهمين، والشعير، والتبن ما يوجد، وبقيت أهل حلب معهم في شدة، وقد خرجوا وخرَّبوا أكثر بلاد حلب.

ثم استهل شهر القعدة، والسلطان في حلب، وفي يوم الثلاثاء ثالث الشهر أمر سودون باق أن ينادي في المدينة وخارج المدينة؛ أن أصحاب الدكاكين، والبيوت، أن كل منهم يعلق على دكانه، أو بيته قنديل، وفي كل طاقة قنديل، ومن خالف أكل الضرب، والإهانة فعلقوا الناس خوفاً [١٠١أ] منه، فإنه ظالم ما يعرف لعب، حتى بقيت دمشق بالليل توقد من كثرة الضوء وبقي مهرجان، ويركب هو بنفسه في الليل، ويدور في المدينة، ويتفقَّد أزقتها وحاراتها، وينادي أن لا يخرج أحد من بيته بعد عشاء الآخرة تروح روحه.

وخافت الناس منه وانذعروا، ومسك مؤذيين كثير، وأتلفهم، وبقيت الناس على

---

(١) الراوية: وعاء من جلد للماء، وفي الأصل: زاوية لا معنى لها، وأعتقد أن الكلمة الصواب: راية لتناسب السياق.

هذا الحال في المدينة إلى آخر الشهر.

ثم استهلَّ شهر ذو الحجة. وفي ثاني يوم حضر بريديّ من عند السلطان من حلب، وذكر أن السلطان مسك الناصري نائب الشام وعدَّة أمراء كانوا قد اتَّفقوا على قتل السلطان، فلما سمع سودون باق هذا الكلام انتقل في الحال إلى دار السعادة ومماليكه، وأعوانه، وطمعته نفسه أن يكون نائب الشام، فإنه كان يقرب إلى السلطان، والملوك أقرب من عندهم أبعد من عندهم وحكم في دار السعادة على عادة النواب، ومسك بعض الأمراء كان أمير عشرة وضربه وسمَّره لكون [١٠١ب] أنه منطاشي، فإنه ما كان يفتر في أحد، وخافت الناس منه كثير، إلى خامس الشهر حضر بريدي من عند السلطان من حلب، وذكر أن السلطان أنعم على بُطا دواداره بنيابة الشام، وأن المتسلِّم الذي له أقبغا الفيل، وأنه قد وصل إلى خان لاجين. فلمَّا سمع سودون باق هذا الكلام ما هان عليه وانتقل من دار السعادة إلى بيته، وهذا كان من ألطاف الله تعالى الخفية بأهل دمشق الذي ما تولَّى عليهم، فإنَّه كان يخرِّب دمشق لكنَّ الربَّ كريم.

ودخل متسلم الأمير بُطا إلى دار السعادة[١] وغيَّروا الرنوك[٢] في الحال، وفرحت الناس كثير برواح سودون باق عنهم ومجيء الأمير بطا إليهم نائب، فإنه كان مشهور بالجودة وشابّ حسن وشكل مليح، ووصل إلى خان لاجين وطلعت الناس التقوه، ودخل إلى دمشق يوم الاثنين ثامن الشهر لابس التقليد، وأشعلوا له الشمع، والمغاني على عادة النواب، وفرحت الناس به ودخل إلى دار السعادة وحكم بها، وكان لدخوله [١٠٢أ] يوماً مشهوداً، وكان حاكم جيد كثير.

وحضر أيضاً بريدي بعد يومين، أو ثلاثة، وذكر أن السلطان قد خرج من حلب طالب الشام، وأنه وصل إلى حماة، ودقَّت البشائر لقدوم السلطان، وقد حكى لي من أثق

---

(١) في الأصل: السيادة لا معنى لها.

(٢) الرنوك: الشعارات، وهي كلمة فارسية معربة وتعني أيضاً اللون، انظر تأصيل ما ماورد عند الجبرتي من الدخيل.

به من كبار الناس أن السلطان لما مسك الناصري في قلعة حلب، عاتبه على أشياء غير واحدة وقعت منه في حق السلطان؛ منها أن قال له: (أنت قلعة حلب لما عصت عليك أخذتها في ثلاثة أيام كان لك غرض، ومنطاش يعصي عليك وهو في الميدان بينك وبينه رمية حجر وعندك عسكر الشام وصفد وطرابلس، وأهل دمشق، لكن ما كان لك غرض في مسكنه، لكن جرى لك كما قال المثل شعراً: [البسيط]

وَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي في العِلْمِ فَلْسَفَةً   حَسِبْتَ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

ثم إنه أمر بقتله فقتل وطرح في بغداد، فإنَّ في قلعة حلب جبٌّ اسمه بغداد، وكان أكثر المنجِّمين يقولون له، (تقتل وتدفن في بغداد)، وكان يتعجَّب من كلامهم فإنه كان في [١٠٢ب] هذا البلاد، وأين هو، وأين بغداد ؟ وهذا اتفاق عجيب.

انحرافات عن مصادفات غريبة

حكاية في المعنى ذكرها الحريري في (درَّة الغواص)

أن عبيد الجُرْهُمِي عاش ثلاثمائة سنة، وأدرك الإسلام فأسلم ودخل على معاوية بن أبي سفيان بالشام، وهو خليفة، فقال له: (حَدِّثني بأعجب ما رأيت في عمرك)، فقال: (مررت ذات يوم بقوم يَدْفنون ميّتاً لهم، فلما انتهيت إليهم عزّيتهم وذرفت عيناي بالدموع فتمثّلت بقول الشاعر أبيات كانت على ذهني شعراً: [البسيط]

أَقُولُ، والقَلْبُ بالأحبَابِ مُغْتَبِطٌ   إذ صارَ في الرِّمسِ تعْفُوهُ الأَعَاصِيرُ

يَبكِي الغريبُ عَلَيهِ ليسَ يَعرِفُه   وذوُا قَرَابَتِهِ في الحَيِّ مَسْرُوُرُ

فقال لي رجل من القوم: أتعرف صاحب هذه الأبيات؟ فقلت: لا. فقال: إن قائل هذه الأبيات الذي دفنّاه الساعة، وأنت الغريب الذي تبكي عليه، والذي خرج من قبره هو قرابته وهو أشد الناس فرحاً بموته. فقال له معاوية: [١٠٣أ] لقد حكيت عجيباً وهذا من غريب الاتفاق.

حكاية عن عز الدين أيدمر السناني الدوادار

أنشد القاضي تاج الدين أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبي كاتب السرّ عندما خدم بديوان الإنشاء في أيام الملك الظاهر بيبرس أوّل اجتماعه به، ولم يكن يعرف اسمه، ولا اسم أبيه، فأنشد هذه الأبيات[1]: [البسيط]

كانَتْ مُسَائَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخبِرُني   عن أحمدَ بْنَ سَعيدٍ أَحْسَنَ الخَبَرِ
ثُم التَقَينَا فَلا، واللهِ مَا سَمعَتْ   أُذني بأَحْسَنِ ممَّا قَد رَأى بَصَرِي

فقال له القاضي تاج الدين: يا مولانا ما تعرف هذا أحمد بن سعيد؟ فقال: لا، والله ما أعرفه، فقال: المملوك أحمد بن سعيد. فتعجبنا من غريب هذا الاتفاق، أقول إن البيتين المذكورين لابن هانئ الأندلسي، والله أعلم.

عودة برقوق إلى دمشق

ثم نعود إلى كلامنا، ثم إنَّ السلطان، والعساكر وصلوا إلى عَذْرَاءَ وَضَمِيْر[2] وطلعت الناس يلتقوا السلطان.

وفي يوم الجمعة ثامن عشر الشهر دخل السلطان إلى دمشق، والعساكر، وكان لدخوله يوماً [١٠٣ب] مشهوداً، وفرحت الناس ودخل إلى القلعة على عادته وحكم بها، ونادى في المدينة بالأمان، والإطمان، ونزلت العساكر في أماكنها في المدينة على عادتها.

وفي يوم الخميس خامس عشرين الشهر: مسك السلطان من على السماط ألابغا حاجب الحجاب، وسودون باق، وكان هذا الأمر عاقبة ظلمه، قبحه الله تعالى، ومسك أيضاً لأقباي ولجبجق، مسك هذه الأربعة وشالهم إلى برج في القلعة ولم يطلع لهم خبر بعد ذلك اليوم، وجعل أقبغا المنجكي حاجب الحجاب في دمشق، وكان حاجب جيد،

---

(١) ديوان ابن هانئ الأندلسي ص ١٦٥ مع اختلاف الرواية.

(٢) عذراء وضمير: من أعمال دمشق بالشرق منها على طريق بغداد.

حاكم مليح، رجل عاقل، عارف بمصالح الناس، وحبّوه أهل دمشق، وولى أرغون شاه نيابة صفد عوض إياس، وولى قاضي القضاة أحمد الباعوني، وولى ابن منجّا قضاء الحنابلة، وأقام حرمة الشرع الباعوني كثير، فإنه كان قاضي مليح.

وتولى خطابة الجامع الأموي، وكان خطيب مليح، ينظم الخطب الملاح من رأس القلم، وخافت منه الفقهاء وضرب منهم جماعة كبار بمرسوم السلطان وجرّسهم[1] على جمال في دمشق [١٠٤أ]، وأشهرهم، وكان قد الشُّغل إذا قام في أمر أنهاه، وكان السلطان يميل إلى قوله، ويحبّه، وبغضوه أكثر الفقهاء وحطّوا عليه، وبقوا يرافعوه حسداً منهم، والسلطان لا يلتفت إلى كلامهم.

إعدام المناطشة

ثم أن السلطان يوم الحادي، والعشرين من الشهر طلب المحابيس في القلعة الذين هم من جهة منطاش، فأحضروهم إلى بين يديه، وهم الأمير أحمد بن بيدمر، ومصطفى البيدمري خال أمير أحمد، ويلبغا العلائي، وابن أمير علي نائب الشام، وطشتمر رأس نوبة ابن قفجق، وبرصبغا نائب حمص، وأجبغا حاجب حجاب طرابلس، وأزدمر أبو دقن مملوك إينال، وبيبغا نائب حماة، وقرابغا العمري، وجلبان المحمّدي، ورأس نوبة الناصري، وجماعة من الأمراء، والمماليك وغيرهم، وكان عدّتهم عشرين نفس.

وفي الحال أمر بتسميرهم وتوسيطهم[2] فنزلوا بهم من القلعة، وفي أرقابهم الجنازير، حفاة إلى إسطبل [١٠٤ب] السلطان، وأحضروا في الحال عشرين جمل وعملوا عليها لعب، وأحضروا المسامير، وكان ذلك اليوم قد مطرت في الليل، وأصبح طين كثير وزلق، وطلع السلطان قعد في الطارمة حتى يتفرج عليهم.

وقد امتلت تحت القلعة من الناس، وأهل المسمّرين واقفين يتباكوا عليهم، وأم أمير أحمد بن بيدمر وجوارهم حفاة مهتكين يتباكوا، والناس تبكي لبكائهم. فلما تنصف

---

(١) جرَّسَهم: التجريس عقوبة كنوع من التعزير.

(٢) التسمير والتوسيط: نوع من العقوبات.

النهار أخرجوهم من إسطبل السلطان مسمّرين كلهم تسمير عطب، وداروا بهم دورة المدينة في ذاك الوحل، والزلق وهم يستغيثوا ما يغاثوا وتهتكت أهلهم عليهم، ولا خاصة أمير أحمد بن بيدمر فإنّه من أولاد المدينة، وشاب حسن وليس له إلى أحد أذيّة، وكل أحد كان يحبّه فإنّه كان قريب من الناس، وأبصروه الناس مسمّر في تلك الحالة، وأمه وجوارهم قد قتلوا أرواحهم عليهم.

وقد أجاد الشيخ علاء الدين ابن أيبك يرثي أمير أحمد بن بيدمر [١٠٥أ]، وما جرى عليه، وكيف بقيت الناس تبكي، وكيف ما قبل السلطان شفاعة فيه، فأنشد عند ذلك شرح حاله يقول شعراً: [البسيط]

خَلّوهُ في لُعبَتِهِ عَرِيسَاً بلا دُفُوفٍ، ولا شُمُوعِ
لكنّ عُيُونُ الوَرَى عَلَيْهِ لَه انتَثَارٌ مِنَ الدُّمُوعِ
وَكُلُّ قَلبٍ يَذُوبُ حُزْناً بِلوْعَةٍ دَاخِلَ الضُّلُوعِ
فَيَا لَهُ مِنْ شِهَابِ حُسْنٍ قَدْ غَابَ عَنَّا بِلا طُلُوعِ

وجابوهم إلى عند جسر الزلابية، والسلطان ينظر إليهم من الطارمة، ثم إنّهم نزّلوهم من المسامير وصاروا يوسطوهم واحد بعد واحد، وبقي إلى آخرهم أمير أحمد بن بيدمر، فلما أبصر ما حلّ بأصحابه ولم يبق إلا هو، تنفس الصعداء، وأنشد هذا البيت المفرد: [الطويل]

أرَى الموتَ بينَ السّيفِ، والنّطعِ كَامِناً يُلاحِظُني مِن حيث ما أتلفتُ

ثم إنهم وسطوه، وأخذوا أهل الموسطين كل ناس أهلهم يدفنوهم [١٠٥ب]، وأحضروا نعش، وأخذوا فيه أمير أحمد، ومصطفى أربع قطع إلى تربتهم، وغسلوهم وخيطوهم وكفنوهم وصلّوا عليهم ودفنوهم.

انحرافات في الصبر

وما جرى على نساء هذا الزمان، ما جرى على قلب أمه من الأحزان، ولا على

الخنساء لّما فقدت أخاها، فإن الخنساء فقدت أخاها لا غير، وهذه فقدت ولدها، وأخاها، وأباها وزوجها، وخربت ديارها، ولما فقدت أخت صخر أخاها رثته بهذه الأبيات تقول[1]: [الوافر]

ألا يا صَخْرُ لا أَنْسَاكَ حَتَّى ... أُفَارِقَ عيشَتي، وأَزُورَ رَمْسِي

ولَوْلا كَثْرَةُ البَاكينَ حَوْلِي ... عَلى أحبَابِهِمْ لقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلكِنْ ... أُسَلِّي النَّفسَ عَنْهُم بِالتَّأسِي

ولّما قتل قابيل أخاه هابيل قالت حواء: (ويه، ويه)، فقال لها آدم عليه السلام: عليك، وعلى بناتك لا عليّ، ولا على بنّي، فللرجال الحزن، والصبر الجميل وللنساء البكاء، والعويل.، وأجاد القائل مفرداً: [الطويل]

خُلِقْنَا [١٠٦أ] رِجَالاً لِلتَجَلُّدِ، والأسى ... وتلكَ الغَوانِي للبكاءِ، والمآتمِ

وقال رسول الله (ﷺ) لما مات ولده إبراهيم: «**إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإني بفراقك يا إبراهيم لمحزون، ولا أقول إلا ما يرضي ربنا**[2]».

حكاية في المعنى

قيل: إن الإسكندر (رضي الله عنه) كتب إلى أُمّه في المرض الذي مات فيه كتاباً يقول لها فيه: إنك تجمعي نساء كبار البلد وتعملي لهم وليمة، وتمدّي لهم سماط، فإذا تقدموا للأكل قولي لهم، لا يأكل أحد من سماطي ممن هو محزون، تري العجب)، فلما وصل الكتاب إليها عملت ما قال لها، ومدّت السماط وقدّموا الناس ليأكلوا، وقفت على رأس السماط وقالت لهم: لا يأكل منْ سماطي هذا محزون، فلما سمعوا كلامها تقدموا كلهم عن السماط، فلما رأتهم قد تأخروا قالت لهم: ما بالكم تأخرتم ؟ قالوا [١٠٦ب] لها: ما فينا

---

(١) ديوان الخنساء ص ٣٢٦، والأبيات مشهورة في معظم كتب الأدب.

(٢) ورد الحديث في: إن العين تدمع والقلب يحزن: صحيح البخاري ٢٠/ ١٠٥، شرح السنة للبغوي ٥/ ٤٢٩، مشكاة المصابيح للتبريزي ١٧٢٢، الأذكار النووية ١٣٤، الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ١/ ٨٩

أحد إلا وهو محزون، كل ناس على قدّهم.

هذه مات ولدها، وهذه مات أخوها، وهذه مات زوجها، وهذه خرّبت ديارها، وهذه ماتوا أهلها، وما يخلو أحد من الحزن، فلما سمعت هذا الكلام منهم تعجبت، فعند ذلك عرّفوها أن ولدها الإسكندر قد مات رحمه الله تعالى، فصبرت واحتسبت.

فلله درّ هذه المرأة أم أمير أحمد أصيبت بهذه الأحزان كلها، وقد أجاد الشاعر حيث يقول شعراً شرح حالها في المعنى: [الخفيف]

يا لَهَا حُرْمَةٌ أُصِيبتْ بِسَهْمٍ سَاقَهُ حَادثُ الزَمَانِ إليهَا

لَمْ يَصُبِ القَضَا على أختِ صخرٍ بَعضَ ما صَبَّهُ القَضَا عَليهَا

فصبرها الله تعالى فصبرت واحتسبت، فلله درها من امرأة، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٧].

وقد [١٠٧أ] قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

ويروي أن النبي (ﷺ) سئل عن الإيمان فقال: (الصبر، والسماحة).

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المعارج: ٥].

قيل إنّه الصبر الذي لا شكوى فيه لا بثّ.

وقال علي عليه السلام: (الصبر ستر من الكروب، وعون على الخطوب).

وسئل بعضهم: ما حدّ الصبر؟ قال: تجرُّع المرارة من غير تعبيس، وقال بعض السلف الصالح: إن صبرتَ جرى القلم، وأنت مأجور، وإلا جرى، وأنت مأزور، وقد أجاد الشاعر حيث يقول مفرد شعراً: [الكامل]

وإذَا أَتَتكَ مُصِيبَةَ فاصْبر لَهَا عَظُمَتْ مُصِيبَةُ مُبْتَلى لا يَصبِرُ

وقد أجاد قائل هذا البيت المفرد حيث يقول: [البسيط]

الصَّبْرُ مِثْلُ اِسمِه مُرٌّ مَذَاقَتُهُ لَكِنْ عَوَاقِبَهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ

وقد أجاد الشاعر [١٠٧ب] حيث في المعنى: [البسيط]

إِذَا ابتُليتَ فَثِقْ بِالله وَارْضَ بِهِ إِنَّ الذي يكشِفُ البَلْوى هُوَ اللهُ

إِذَا قَضَى اللهُ فاسْتَسْلِم لِقُدْرَتهِ مَا لامرِئٍ حِيلَةٌ فيمَا قَضَى اللهُ

وفي الصبر أيضاً: [الهزج]

إذا مَا خَانَكَ الأَمُر فَكُنْ بالصَّبْرِ لَوَّاذاً

وإلا فَاتَكَ الأَجرُ فلا هذَا، ولا هذَا

واعلم يا أخي ـ وفقك الله تعالى ـ أنَّ الصبر على ثلاث طبقات، صبرٌ على الطاعةِ، وصبرٌ على النائبةِ، والبليةِ، وصبرٌ على المعصيةِ، وهو أرفع الدرجات، فالصبر على الطاعة مثل الصبر على الصوم في يوم حرّ، ومثل الوضوء في يوم البرد، وما أشبه ذلك، وهو بثلاثمائة درجة، والصبر على النائبة، والبلية مثل موت الولد، وفقد الأخ، وذهاب المال، وخراب الديار، وما أشبه ذلك، وهو بستمائة درجة، والصبر على المعصية مثل الرجل الذي يحبّ الخمر وتاب عنه لوجه الله تعالى، أو يحبّ الزنى وتاب عنه خوفاً من [١٠٨أ] الله تعالى، وما أشبه ذلك، وهو بتسعمائة درجة، وهو أعلاه.

وقد كتب بعض الصحابة إلى عمر بن الخطاب يقول له: يا أمير المؤمنين أيّنا أفضل، رجل كان في المعاصي وتركها لوجه الله تعالى، أو رجل ما ارتكب معصية وهو مقيم على توبته، وما هو فيه؟ فكتب إليه عمر يقول: إن الذين كانوا يرتكبون المعاصي وتركوها لوجه الله تعالى، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة، وأجر عظيم.

حكاية في المعنى

قيل كان لعلي بن أبي طالب (ﷺ) جارية تخرج تقضي أشغالهم، فكان يتعرض لها

رجل يقول لها: والله أنا أحبك، فقالت لعلي عنه، أنه يقول لها: والله أنا أحبك، فقال لها علي رضي الله عنه: إذا قال لكِ، والله أنا أحبك، قولي له: والله، وأنا أحبك، وانظري ما يقول وعرفيني، قال: فخرجت الجارية على عادتها فأبصرها ذلك الرجل فقال لها: والله أنا أحبك، قالت له: والله، وأنا أحبك، فقال [١٠٨ب] لها: نصبر حتى يوفينا الله الذي ﴿يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

فجاءت الجارية وقالت لعلي (ﷺ) ما قال لها الرجل، فبكى علي لما سمع قولها وقال لها: أطلبيه إلى عندي، فخرجت إلى مكان الرجل وقالت: أجيب سيدي، فقام، وأتى معها إلى عند الإمام علي (ﷺ) فقال له: خذها قد وفاك الذي ﴿يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

فانظر يا أخي إلى هذه الحكاية ما أعجبها في هذا الفصل، واعلم أنَّ الصبر من أرفع الدرجات عند الله تعالى، وأن الله تعالى قد ذكره في كتابه العزيز في أكثر من سبعين موضع، ومن أعظم الأدعية (اللهم أفرغ علي صبراً وتوفني من المسلمين).

فلله درّ هذه المرأة، أم أمير أحمد، كيف عرفت أنَّ الصبر من أرفع الدرجات، وأن الله تعالى يعوض الصابرين لا سيما من صبر على البلية في الدنيا، ويعوضه الله تعالى في الآخرة بالجنة، واعلم أنَّ [١٠٩أ] الله تعالى قال في كتابه العزيز لأهل الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

وهذه البشارة تكفي الصابرين من الله تعالى، والسلام!.

وقد أجاد الشاعر حيث يقول شرح حال هذه المرأة على فقد ولدها شعراً: [الكامل]

أَضْحَتَ بِخَدّي للدُّموعِ رُسُومٌ ... أَسَفاً عَلَيكَ وفي الفُؤاد كُلُومُ

والصَّبْرُ يُحمدُ في العواقِبِ كُلّها ... إلا عَليكَ فإنَّهُ مَذْمُومُ

وقد أجاد الشاعر أيضاً في المعنى حيث يقول: [الطويل]

أقُولُ، وقد فَاضَتْ دُمُوعِي حَسْرَةً ... أَرَى الأرضَ تبقَى، والأحبّاءُ تَذْهَبُ

أَحبّـاي لـوْ غَـيْرَ الحِـمَامِ أصَـابَكُم   عَتَبْتُ ولكـنْ مـا عَـلى المـوْتِ مَعْتَـبٌ

وقد أجاد الشاعر أيضاً في المعنى حيث يقول: [الوافر]

فَـوَا أَسَـفي عـلي زَمَـنٍ تَـقَضَّى   ونَحْـنُ مِـنَ الحَـوادِثِ في أَمَـانِ

فَشَـتَّتَ شَـمْلَنَا صَرْفُ اللَّيـالِي   وَفـرَّقَ بَيْنَنَـا رَيـبُ الزَّمَـانِ

وقد [١٠٩ب] أجاد صاحب هذا الفرد حيث يقول: [الطويل]

أقُـولُ، وقـد أَفْكَـرْتُ في جَمْـعِ شَـمْلِنَا   سَلامٌ على العيشِ الـذي كـانَ وانقضَـا

وقد ذكرنا هذا الفصل في الصبر في هذا المكان عسى الله تعالى ينفع به من قرأه، ويحصل لنا الأجر إنْ شاء الله تعالى.

ثم نعود إلى كلامنا، وفي يوم الاثنين ثاني عشرين الشهر طلع السلطان الملك الظاهر برقوق من قلعة دمشق، ومعه عساكر مصر، متوجه إلى القاهرة المحروسة في خير وسلامة، وخلّى محمود أستاذ داره في دمشق يستخلص الأموال من أهلها وهم في شدّة فالله تعالى يفرج عن المسلمين.

سنة ٧٩٤/ ٩٢ - ١٣٩١

ثم استهلّت سنة أربع وتسعين وسبعمائة، اللهم اجعلها سنةً مباركة على المسلمين!، وكان أوّلها يوم الاثنين، وكانت الأسعار في دمشق عالية، والناس تحت لطف الله تعالى فنسأل الله تعالى أن يردّ العاقبة إلى خير، ويرخص أسعار المسلمين.

ولّما كان يوم [١١٠أ] الثلاثاء سابع شهر الله المحرّم حضر بريدي إلى نائب الشام الأمير بُطا وعرّفه أن عنقاء قد قُتل، وسببه أن السلطان أرسل له فداوية قتلوه، واستراحت المسلمين منه كثير، فإنّه كان قد أسرف وزاد، وأخرب بلاد حوران، وكان ما يصطلى له بنار، وعربه أنحس العربان، وكان قتلته رحمة لبلاد المسلمين.

ولو عاش كان أتعب الناس، فإنّه كان منطاشيّ، وانضاف إليه كلّ فاجر، وكل زنديق، وكل نحس من قطّاع الطريق، وقصده ونيته للناس كلّ شرّ، فلمّا علم الله تعالى

منه ذلك أرمى كيده في نحره، وأهلكه، وقد قال الله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الانفال: ٥٣].

وقال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾ [الزلزلة: ٨].

وقال النبيّ (ﷺ): «إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى».

حكاية في المعنى لمن أضمر لأخيه المسلم شرّاً فانقلبت حيلته عليه

وقد [١١٠ب] ذكر الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة المعروف بالتلمساني، في كتابه المسمّى (السكردان) أنّ أحمد بن طولون دخل على أبيه يوماً وهو شابّ فقال له: بالباب قوم فقراء فلو كتبت لهم بشيءٍ؟ فقال: إئتني بدواة، فذهب حتّى يجيب الدواة فأبصر في دهليز القصر حظيّة من حظايا أبيه قد خلا بها خادم، فأخذ الدواة ولم يتكلم بشيءٍ، وخشيت الجارية أن يسبقها أحمد المذكور إلى طولون أبيه، ويقول له، فجاءت إليه وقالت له: ابنك أحمد راودني على نفسي، فصدّقها.

وكتب كتاباً إلى بعض نوّابه يأمره بقتل حامل الكتاب من غير مشورة، وقال لولده أحمد: خذ هذا الكتاب، ووديه إلى فلان. فأخذه وخرج من على الجارية المذكورة فقالت له: إلى أين؟ فقال: بهذا الكتاب إلى فلان للأمير، ولم يعلم ما فيه، فقالت له: أنا أرسله إليه ولي بك حاجة، فدفع إليها الكتاب حتى ينفذ القضاء، والقدر، لا مردّ لحكم الله تعالى. فدفعته إلى الخادم الذي [١١١أ] كان معها في الدهليز، وقد علّمها ما قالت لطولون وقالت للخادم: اذهب بهذا الكتاب إلى فلان وردّ جوابه.

وإنّما قصدت أخذ الكتاب من أحمد حتّى يزداد أبوه عليه غضباً، فلما وقف نائب الأمير على الكتاب، امتثل أمر مخدومه وقطع رأس الخادم، وبعث به إلى الأمير طولون، فلما أبصره رأس الخادم، تعجّب واستدعى أحمد ولده وقال له: اصدقني ما الذي رأيت، وإلا قتلتك.

ورأى رأس الخادم قدّام أبيه مقطوع فما أمكنه إلا أن يقول الصدق، فأخبر أباه قصة الجارية، والخادم فقتلها وحظي أحمد عنده ونشأ على سيرة حسنة، وطلب العلم، وسمع الحديث، واستقلت به الأحوال حتى صار حاكم مصر، والشام بعد أبيه طولون، وكان حكمه في آخر عمره من الفرات إلى بلاد المغرب.

ولما مات خلّف ثلاثة وثلاثين ولد، منهم سبعة عشر ولد ذكر [١١١ب]، وخلّف من الذهب ألف ألف دينار، ومن المماليك سبعة آلاف مملوك، ومن الغلمان، أربعة وعشرين ألف غلام، ومن الخيل سبعة آلاف فرس، ومن الحمير، والبغال ستة آلاف، ومن الجمال عشرة آلاف جمل، ومن المراكب مائة مركب في البحر، وكان خاصُّه في كلّ سنة أربعة آلاف ألف دينار. فانظر يا أخي إلى هذا الأمر العجيب كيف طلبوا قتله فانقلبت حيلتهم عليهم، وقتلوا وهو ينظر إليهم.

ثم نعود إلى كلامنا، وفي يوم الخميس تاسع الشهر ركب النائب وسُيِّر تحت القلعة، وأركب، ورجع من الموكب، وقد توجّع ولزم الفراش، وأتت إليه الحكماء وبقي ضعيف في دار السعادة إلى يوم الثلاثاء حادي عشرين الشهر، توفي إلى رحمة الله تعالى، وحزنت الناس عليه كثير، فإنّه كان نائب جيّد، وشابّ حسن، قريب من الناس، وكانت مدّة نيابته في دمشق أحد، وأربعين يوماً، ودفن في المدرسة التي ليونس في الشرف الأعلى [١١٢أ] جوار المدرسة الطاووسية.

وفي خامس عشرين الشهر دخل المحمل وحده لا خلفه، ولا قدّامه، ومسك حاجب الحجاب أمير الركب أقبغا البزلاري وشاله إلى القلعة بغباره لم يدخل إلى بيته.

وقد تاسع عشرين الشهر حضر بريديّ من الديار المصرية وذكر أنّ السلطان دخل إلى القاهرة في خير وسلامة، وجلس على سرير الملك وفرحت به أهل القاهرة، وزيّنوا المدينة لقدومه وحكم على عادته، وقد أجاد قائل هذه الأبيات الزهريّات يمدح بها السلطان حيث يقول: [الكامل]

وبدَا لِنَرْجسهِ الجَنيّ مِنَ الهَوَى   عَينٌ مُسَهَّدَةٌ وقَلبٌ يَخْفِقُ

واحمـرَّ وَجـهُ الـوَرْدِ حتـى قـالَ لي		عَـرَقٌ عَـلى عَـرَقٍ وَمِـثلي يَعْـرقُ
مَـا بـانَ فَضْـلُ البَـانِ إلا أنّـهُ		أبـداً لَـهُ قُـدّام جَـيشِي سَـنْجَقُ
إنْ كُنْـتُ بَعْـدَ الزَهـرِ جِئـتُ فـإنَّ لي		كَالظّـاهِرِ السـلطانِ جَيشًـاً يَسْـبقُ
مَلـكٌ جَنَائِبُـهُ الجُنـوبُ تَـودُّ لَـو		أمْسَـتْ بِـذيَل غُبَارِهـا تَتَعَلَّـقُ
ما[١١٢ب]شُرِّفَتْ في مِصْرَ أَرْضٌ إذ غَدَا		ونَـدَاهُ مِنْـهُ مُغَـرِّبٌ ومُشَرِّقُ
لازالَ مُخْضَرَّ الجَنـابِ وَبِيضُـهُ		يَصْـفَرُّ مِـنْهنَّ العَـدُوُّ الأَزْرَقُ

ثم استهل شهر صفر من السنة المذكورة، وفي يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر خرجت مماليك نائب الشام بُطا، وخيله، وجماله، وقماشه، إلى القاهرة ومعهم خلق من أهل دمشق تجّار وغيرهم.

وفي يوم الجمعة سادس عشر الشهر نادى حاجب الحجّاب على الجلابة أنّهم يسافروا، ويجلبوا البضائع وهم طيّبين القلوب، ولا خوف عليهم، وإنّ الدروب طيّبة.

عصيان في القلعة

وفي يوم الأحد خامس عشرين الشهر، وكان برد وهواء ومطر، فبينما الناس آمنين في بيوتهم بعد العصر ركب نقيب القلعة وساق إلى بيت الحاجب الكبير تمربغا، وقال له: إن القلعة قد أخذت، فقال: ومن أخذها ؟ قال: أقبغا البزلاري، والمحبسين خرجوا من الحبوس، والناس غافلين، وهاشوا على القلعة هربوا فغلّقوا أبوابها واختفى نائب القلعة. فعند ذلك أمر حاجب [١١٣أ] الحجّاب بركوب العساكر في الحال فلبسوا السلاح وجفلت الناس وغلّقوا أبواب المدينة وخافت الناس كثير، ولا بقي أحد يعي على أحد، وبقي خوف وبرد وهواء، ولا بقي يلتقى رغيف خبز، ولا غيره، وقفلوا الناس الدكاكين، وعبر الليل وثارت المناطشة، وكل نحس على عادتهم، وبقوا فراحى، ويقولون إن ابن القلانسي، والعشير يصابحوا القلعة صباح، ويطلعوا إليها، وتخثر[1]

(١) تخثر: تشدد.

الفتنة، ويشتدّ الحرب، والناس كلّما فرغوا من شدّة دخلوا في شدّة حتّى يفرج الله تعالى.

وأما المناطشة الذي في القلعة، فإنهم لَبسوا من سلاح القلعة، ووقفوا على شراريف[1] القلعة وهم خائفين، فإنّهم ناس قلائل، وتمزّق شمل أهل القلعة وتخبّوا في الأبخاش، وركب عسكر الشام وفي الحال دقّوا حربي وجاؤوا إلى القلعة ولم يعرفوا من أين يدخلوا إليهم، ودخل الليل وجاء حاجب الحجّاب إلى باب الحديد يكسره فلم ينكسر، والمناطشة من أعلى القلعة يرموهم بالنشاب [١١٣ب]، والحجارة، وأشعلوا المشاعل.

ثم إنّهم أحرقوا باب الحديد ودخل حاجب الحجّاب وبعض العسكر، والقلعيّة عند نصف الليل وهون الله تعالى عليهم، وفرّق الله تعالى شمل المناطشة ودخلوا بالمشاعل، والفوانيس وتكاثروا عليهم، وكان في ظنّهم أنّهم ملكوا القلعة، وما بقي أحد يقدر يصل إليهم وكانوا دون المائة، وأصبح الصباح وخرج نائب القلعة فإنّه كان مخبّي وفرحت الناس كثير الذي فرّج الله تعالى هذه الشدّة عن الناس ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وخمدوا المناطشة حتّى ما بقي يسمع لهم أحد حِس، فنسأل الله أن يخمد الفتن، وأرسل حاجب الحجّاب تمربغا يعرّف السلطان بما جرى كلّه.

وأما أقبغا البزلاري وابن عطاء مقدّم القلعة، فإنّه كان محبوس، وهو خبير بالقلعة وبمواضعها، وأبواب سرّها، فجاء إلى باب سرّ وفتحه وخرج منه هو، وأقبغا البزلاري تحت الليل، وخرجوا من الخندق ورحلوا ولم يعرف لهم خبر، فإنّه كان لهم بعدُ [١١٤أ] أجل وحياة في الدنيا، فلهذا سَلمُوا، والأمر كلّه إلى الله تعالى وهو الفعال لما يريد.

ثم إنّ حاجب الحجّاب وسّط الذي مسكوهم في القلعة كلّهم إلا أميرين فإنّهم كانوا قد أرموا أنفسهم من الخليلية[2] الذي فوق باب القلعة، ما وافقوا أصحابهم على ما

---

(١) شراريف: ج شرفة، اللسان (شرف).

(٢) الخليلية: البرج وهي كلمة عامية.

عملوا وقالوا: نحن ما قدّ الشغل، ولا نحن مناطشة، نحن مماليك السلطان، ولما وسّطوهم علّقوهم على شراريف القلعة، وأصلحوا باب الحديد كما كان، والحمد لله تعالى كانت الشدّة هيّنة ولطف الله تعالى بعباده الذي أخذوا القلعة في ليلتها، وإلا كان اتّسع الخرق، وجرى أمور غير واحدة، لكن نحمد الله تعالى على ذلك وهو الفعال لما يريد.

وبقت هذه الواقعة حكاية على قلعة دمشق، أن أعداء يملكوها نصف يوم ونصف ليلة لا غير، وملوك كثيرة نزلت عليها وحاصروها أيّام وشهور وسنين ما يقدروا عليها، فإنّ ما في بلاد المسلمين قلعة أعصى منها، ولا أحسن فإنّها تسمّى حصن، فإن القلعة التي تكون على رأس جبل، والتي على [١١٤ب] الأرض تسمّى حصن، اللهم اجعلها دار إسلام إلى يوم القيامة يا ربّ العالمين!

ثم استهل شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وفي يوم الخميس دخل متسلّم نائب الشام سودون الطرنطاوي، وأصلح أحوال دار السعادة، وغير الرنوك، وذكر أن نائب الشام جايه على مهله يوطئ البلاد، ويردّ الفلاحين، ويصلح أمور المسلمين، وهذه عادة الحكّام، وطلعت الناس إليه مثل أرباب الوظائف، كاتب السرّ وناظر الجيش، على عادتهم، وطلعت الأمراء، وأكثر الناس، فلمّا وصل إلى غزة كان نائب الشام صارم، ونزل على بلاد القدس، والخليل إلى الغور، والناس تقدم له التقادم على قدر أحوالهم، وأقعد البلاد.

ثم استهلّ شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، في يوم الاثنين ثاني الشهر حضر بريديّ من عند السلطان ومعه خلعة هائلة إلى حاجب الحجّاب تمربغا أطلسين، فلبسها، وأشعلوا له الشموع ودقّت له المغاني، وجرى له يوماً هائلاً، وكان سبب الخلعة ما فعله في القلعة مع [١١٥أ] المناطشة، وأنّه أبذل مجهوده فأعجب السلطان ذلك منه، وأرسل له هذه الخلعة.

وفي يوم الاثنين عاشر الشهر دخل ملك الأمراء سودون الطرنطاوي إلى دمشق،

وأشعلوا له الشمع ودقّت له المغاني على عادة النّواب، وكان يوماً مشهوداً، ودخل إلى دار السعادة وحكم بها على عادة النوّاب.

وفي يوم الأربعاء تولّى الحسبة ابن الصائغ، وباشرها إلى يوم الجمعة أرماه النائب في دار السعادة وضربه وجرّسه على حمار في المدينة، هذا جزاه، وأقلّ جزاه من يباشر الحسبة ولم يعرف يباشرها، والأصحّ أنه كان قد أوعدهم بشيء من الذهب وعجز عن حمله إليهم فهذا كان سبب ضربه، ثم طلب الشريف وكيل بيت المال، وولاّه الحسبة.

وفي هذا الشهر في آخره جابوا رأس أقبغا البزلاري ومملوك آخر وعلقوهم تحت القلعة على جسر الزلابية.

ثم استهلّ شهر جمادى الأولى وفي يوم الاثنين رابع عشر أعرض [١١٥ب] نائب الشام العساكر في دار السعادة وقطع ما ينيف على سبعمائة إقطاع حلقة كانوا أهلها غائبين.

وقد حكى لي بعض الأجناد الذي أعرضوا أن جماعة من الأجناد أعرضوا بفرد قبا وكلوتة وسيف، كلّما طلع واحد من قدّام النائب يلبسهم لآخر، ويدخل، فإنّهم معذورين، البلاد كانت خراب، ومغلات ما تَمّ، والناس مستورين.

وفي هذا الشهر انباع الخبز رطل بدرهم، وفرحت الناس كثير، وطابت قلوبهم، اللهم أرخص أسعار المسلمين!

ثم استهلّ شهر جمادى الآخرة، وفي يوم الخميس ثاني الشهر رسم نائب الشام للحاجب الكبير، والقضاة أن لا يحكم أحد في جندي من جهة دَيْن، ولا يرسم عليه، فإنّ الإجناد لهم نحو أربع سنين مغلاتهم تنهب، والغنيّ فيهم انكشف حاله، والفقير مات.

وفي عاشر الشهر حضر إلى دمشق المقرّ الأشرف المخدومي الصلاحي [١١٦أ]، ولد المقرّ المرحوم الناصري، ولد المقرّ الأشرف تنكر - رحمه الله تعالى - من القاهرة، بسبب عمارة جامع جدّه، وما حوله الذي أحرقهم سودون باق، وفرحت المسلمين بحضوره

لأجل عمارة الجامع وشرع يعمر فيه.

وفي آخر الشهر خرج النائب بعساكر الشام إلى العرب.

وفي هذا الشهر تولّى كاتب السرّ الحمصي، وخلع عليه نائب الشام وباشر الوظيفة كما ينبغي، فإنّه رجل عالم عارف، وشكالةٌ حسنةٌ، وقريب من الناس، ينظم الشعر الفائق، فريد عصره في علم الإنشاء، ولم يباشر أحد هذه الوظيفة بعد ابن مزهر - رحمه الله تعالى، وقد مدحه بعض الشعراء، وأجاد حيث يقول شعراً: [الطويل]

وكَاتِمُ سِرٍّ لَمْ تَرَ النَّاسُ مِثلَهُ ... لَهُ هِمَّةٌ تَعلُو على الكَوكَبِ الدُّرِّي

كَفَاهُ [١١٦ب] افتخَاراً كتْمُ سِرِّ خليلُه ... وقد جاءَ خَيرُ النَّاسِ مُسْتودِعُ السرِّ

حريق في دمشق

وفي يوم السبت سادس عشرين الشهر حضر بريدي من القاهرة وخبّر النائب أنّ الأمير إينال توفّي.

ثم استهلّ شهر رجب، وفي هذا الشهر احترق سوق كنيسة مريم من أول السوق إلى آخره، وراح للناس فيه شيء كثير.

وفي يوم الخميس ثاني عشرين الشهر دار المحمل ولم يطلع النائب من دار السعادة على عادته، واندار المحمل مليح غاية.

وفي هذا الشهر حضر مرسوم السلطان بأن يطلع أقبغا الصغير كاشف الكشّاف، وإن لم يطلع، وإلا يمسكوه، ويحبسوه في القلعة فامتنع من ذلك، فمسكوه وشالوه إلى القلعة.

ثم استهلّ شهر شعبان من السنة المذكورة، وفي حادي عشرين الشهر احترق الحريق الذي لم ير أحد [١١٧أ] مثله في هذا الزمان، فإنّه كان آية من آيات الله تعالى ومعجزة، احترقت الورّاقين، والمأذنة الشرقيّة، والأخفافين إلى باب الخطابة، ودهشة النساء، ودهشتي الرجال، إلى درب العجم إلى الحمام، إلى عند قيسارية الزرد، واحترقت للناس

فيه شيء كثير، وكان هذا جميعه على مقدار أربع ساعات، وأقل، من طلوع الفجر إلى قبل الظهر.

وأصبح أكثر التجار فقيراً ما يملك شيئاً، واحترق فيه نساء ورجال، وأطفال وحمل شرارُ النار ودخل إلى الجامع، واحترق منه أربع جسورة، وقاطعت الترك على النار من صوب المقصورة، وعملوا في ذلك اليوم مع المسلمين الخير، فإن الأعوام مشغولين بنهب أموال الناس لا غير، ولمّا وصلت النار إلى عند قبر هود، أنشد لسان حال الجامع، وقد جرت عليه المدامع، مفرد حيث يقول شعراً: [المنسرح]

مَا [١١٧ب] هـذِهِ للفـراقِ أوّلَـةٌ ذَا خَـدٌ مِنِّـي مُعَـودُ اللَّطْـمِ

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله تعالى ـ في (تاريخ دمشق) أنّ الجامع احترق كلّه في ليلة النصف من شعبان سنة إحدى وستين، وأربعمائة، من حرب وقع بين الدولة، فأحرقوا دورّاً كانت حوله قريبةً منه، فوصل الحريق إليه فاحترق جميعه وذهبت محاسنه حتى ما كأنّه كان، ثم عُمِّر وصار هكذا على ما هو اليوم.

وفي شهر رجب سنة ست، وأربعين وستمائة، وقع حريق في المأذنة الشرقية، فاحترق أعلاها وبيوتها، والودائع التي كانت للناس فيها من خوف الخوارزمية[1]، لكن سلم الله الجامع بحمد الله تعالى.

وفي سنة أربعين وسبعمائة في أول شهر شوال في أيام تنكز: احترقت المأذنة الشرقية، وسوق الورّاقين، والدهشتين، والنحّاسين، واللّبادين، واحترق للناس شيء [١١٨أ] كثير، وبقي كل وقت حريق في دمشق فضاق صدر نائب الشام تنكز[2]، وبقي يركب في المدينة في الليل، وبقيت الولاة تفحص على من أحرق، فوجدوا الحريق من النصارى

---

(١) الخوارزمية: لعلها طائفة من اللصوص، ولم أقف لها على ذكر في المصادر المتاحة.

(٢) انظر تفصيل وأسباب هذا الحريق ومحضر التحقيق الذي جرى في كتابنا الموسوم (نظم الاستخبارات عند العرب والمسلمين) في أحد ملاحق الكتاب وهو عن مخطوط نادر في مكتبة ليدن بهولندا.

وهم كبار دمشق، منهم المكين عامل الجيش، والرشيد كاتب سنجر الجمقدار، ويوسف اللحّام، والحليق، وكان سقّاء يسقي المسلمين في جلد خنـزير في الجامع، وكان عدّتهم عشرة أنفس.

واستقرّوهم بأنّهم أحرقوا لأجل ما جرى على سيس من المسلمين، وكتبوا محاضرهم وسمّروهم، وبقوا على المسامير سبعة أيام، وأسلم منهم الرشيد، وهو مسمّر، وبعد سابع يوم وسّطوهم تحت القلعة، وقعد الحليق[1] يسقي المسلمين زمان في جلد خنزير، لعنه الله، وأراح الله المسلمين منهم، وحطّوا أيديهم في عمارة الجامع الذي احترق، وسنذكر ما يتعلق بالجامع وكيف بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان، وما يقع فيه من العجائب، والغرائب وبالله التوفيق.

الجامع الأموي في أيام الوليد

ولما عزم الوليد ـ رحمه الله تعالى ـ على عمارة الجامع، طلب النصارى، وقال لهم: إني أُريد أن أُعمر هذا، يعني نصف الجامع، الذي معكم، وأبذل لكم مال كثير، وأوعدهم أن يعمر لهم كنيسة غيره في المدينة فأبوا ذلك وشقّ عليه أمر عظيم، وقد حكى المغيرة[2]، وكان حاجبه قال: دخلت يوماً على أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك فرأيته مهموماً، فقلت له، ما الذي أهمك ؟ قال: يا مغيرة اعلم أن المسلمين قد كثروا بحمد الله تعالى، وقد ضاق بهم هذا المسجد، يعني الجامع، وقد بعثت إلى النصارى أصحاب هذه الكنيسة يعني نصف الجامع، وأرغبتهم في الأموال فأبوا ذلك، قال: فقلت له يا مولاي أمير المؤمنين، لا تهتم لذلك، عندي ما يزيل همّك إن شاء [١١٩أ] الله تعالى، فقال: وما هو؟ قلت: قد دخل خالد بن الوليد (ﷺ) من باب شرقي بالسيف، ودخل أبو عبيدة بن الجراح (ﷺ) من باب الجابية بالأمان، فنقسم الأرض إلى موضع وصل خالد بن

---

(١) الحليق: أعتقد أنها الجاثليق حيث أن الحليق لا معنى لها، والجاثليق من رتب أرباب الدين عند النصارى.

(٢) إذا كانت المغيرة بن شعبة فهذا غير صحيح لأنه توفي سنة ٥٠ هـ.

الوليد بالسيف، فإن كان لنا حقّ أخذناه، وإلا داريناهم.

فقال الوليد: قد فرجت عني همّي، فرّج الله عنك، لكن أريد أن تتولّى هذا الأمر أنت بنفسك، فقلت: سمعاً وطاعة، وخرجت من عنده، قست الأرض من باب الجابية ومن باب شرقي، فوجدت خالد قد وصل بالسيف إلى عند سوق الريحان، فدخلت الكنيسة في حساب الذي أخذه خالد بالسيف، فدخلت على أمير المؤمنين الوليد فقال: ما وراءك يا مغيرة؟ قلت: ما يسرّك يا أمير المؤمنين، قِسْتُ من الباب الشرقي، وجدت خالد بالسيف قد وصل إلى سوق الريحان، والكنيسة داخله [١١٩ب] في حدّنا، فسجد الوليد شكراً لله تعالى.

ثم إنّه أرسل في الحال خلف النصارى وقال لهم هذا حقنا لم لا نأخذه منكم؟ وقصّ عليهم القصّة، فقالوا: يا أمير المؤمنين أنت قد بذلت لنا فيه أموال كثيرة، فقال: ما كنت أعرف، ثم أنّه صالحهم على كنيسة مريم، وكنيسة حميد، وكنسية المصلّبة.

وأصبح الوليد من فرحه غادياً وعليه قباء أصفر، وقد شدّ ذيله في منطقته وفي يده فأس، وكان في أعلى الكنيسة صورة تمثال، فقال أسقف النصارى للوليد، يا أمير المؤمنين! إنّا نجد عندنا في كتبنا، أيّ من خرّب هذا التمثال جنّ، فقال له الوليد: أنا أحب أن أكون أول من جنّ في سبيل الله تعالى، ثم إنّه تقدم إلى التمثال وكبّر الله تعالى وسمَّى، وضربه بفأسه ضربات عديدة حتى أخربه، والنصارى ينظروا، ثم [١٢٠أ] أن المسلمين كبّروا وهلّلوا، ووضعوا أيديهم في خرابه حتى هدمه إلى الأرض، وجمع الصناع، والمهندسين.

وأخرج الأموال، وشرع في عمارته وجمع له الصناع من سائر البلاد حتى كان عدّتهم اثنا عشر ألف صانع، وألف مهندس، وجمع له الرخام، والعواميد، والحجارة ولم يأخذ لأحد شيئاً بلا ثمن.

وقال بعض المشائخ: ما تمّ مسجد دمشق إلا بأداء الأمانة فإنّه كان يفضل عند الرجل من القوام عليه الفلس ورأس المسمار فيجيء، ويضعه في الخزانة، فلهذا أقام فإنّه

بني على العدل، ويقال إن اللوحان الرخام السماقي من عرش بلقيس، ولم يكن في الدنيا مثلهم، وأن حيطانه كانت مرخّمة إلى حدّ الفصوص من الرخام الذي هو فوق محرابه اليوم، فإنه لم يوجد مثله في هذا الزمان، فإنه يسمى عند المهندسين بموج البحر، وهو إذا تأمله الرجل يراه من غرائب الدنيا وعجائبها [١٢٠ب].

وإنما عدم ذلك عندما انتقلت الدول إلى بني العباس واستولوا عليهم، وأخرجوا ديارهم، وتعطلت الصلاة في هذا الجامع مدة من الزمان، وأخذوا جميع ما كان فيه من الرخام وغيره، وعزموا على خرابه، وعلى إزالة آثاره، وإنما سلمه الله تعالى منهم، وما ذلك إلا حسداً لكونه يسمى بهم.

وعن عمر بن مهاجر، وكان كاتب بيت المال في أيام الوليد بن عبد الملك، قال: إنهم حسبوا غرامة كرمة عملت فوق المحراب، وما دخل فيها من الذهب فكان خمسين ألف دينار. وقال أيضاً: إنهم حسبوا ما أنفقوا على عمارته فكان أربع مائة صندوق، في كل صندوق ثمانية وعشرين ألف دينار، وأنه كان مرصع بالجواهر، واليواقيت، واللؤلؤ، والمرجان، والعقيق، وجميع أصناف الجواهر، كان ذاك في الكرمة الذي كانت فوق المحراب، وإنما [١٢١أ] قلع ذلك لما احترق وخرب وعوضوا عنه بالذي فيه اليوم من الفصوص الزجاج وغيرها، وكانت سقوفه على غير هذا الوضع، وإنما كانت جميعها مدهونة بالذهب، والفضة، واللازورد وغيره.

وكانت أرضه كلها مرخمة، وكان على أبوابه الستور الحرير الملونة، والبسط الهائلة، وقيل كان فيه ستمائة سلسلة من الذهب معلقة، وإنما كانت تدهش المصلين عن الصلاة فشالوها، وعملوا عوضها نحاس، وكانت صفائح أبوابه ذهب وفضة، وعمل في سقوفه طلسمات للهوام، وللحمام، وللعنكبوت، وغير ذلك من الحشرات.

وقيل إنه لما أراد يسقفه بالرصاص، ما وجد في دمشق ما يكفاه، فسيّر إلى ملك الإفرنج صاحب قبرص يطلب منه رصاصاً بثمنه، فلم يجدوا في قبرص رصاصاً، إلا عند امرأة فساوموها على بيعه فأبتْ [١٢١ب]، فقالوا لها إن خليفة المسلمين قد عمّر

جامعاً لهم، وقد اعتازوا فيه، ثم أنها لما سمعت ذلك أسلمت في الحال وسجدت شكراً لله تعالى، ووهبتهم الرصاص جميعه للجامع، ويقال إنَّ على بعض الألواح الرصاص مكتوب اسمها، ويقال إنهم حسبوا ثمن البقل، والخل الذي أكلته الصناع، فكان عشرة آلاف دينار، وقيل: إنه عُمر في مدة تسع سنين، ومن لم يصعد إلى قبة نسره، ويشاهد عمارته فوق لم يعرف مقداره، ولم يطلع على عظمته، ومن لم يتأمله لم يتطلع على محاسنه.

قال قتادة، قال: (أقسم الله تعالى بأربع مساجد، قال: (والتين) وهو مسجد دمشق، و(الزيتون) وهو مسجد القدس، و(طور سنين) وهو حيث كلم الله تعالى موسى، و(البلد الأمين) مسجد مكّة ـ شرّفها الله تعالى).

وعن كعب الأحبار أنه قال: ليبنى في دمشق مسجد يبقى بعد خراب الدنيا أربعين سنة.

[١٢٢أ] وقيل إن هود ـ هو أول من أسس الحائط القبلي الذي لمسجد دمشق، ولهذا قال ثوبان: (ما ينبغي أن يكون أحدٌ أشوق إلى الجنّة من أهل دمشق لما يرون حسن مسجدهم).

وقيل: لما قدم أمير المؤمنين المهدي العباسي إلى الشام يريد زيارة بيت المقدس، دخل إلى مسجد دمشق ومعه أبو عبيدة الأشعري كاتبه، فقال له: يا أبا عبيدة سبقتنا بني أمية إلى ثلاثة، قال: وما هنّ يا أمير المؤمنين؟ قال: بهذا الجامع، ولا أعلم على وجه الأرض مثله، وبنبل الموالي، فإنّ لهم موالي ليس لنا مثلهم، وبعمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، ولا يكون فينا مثله.

فلما وصل إلى القدس المهدي قال: يا أبا عبيدة، وهذه الرابعة الذي ما لنا مثلها). فإن عبد الملك عمّر قبّة الصخرة وجامع الأقصى في سنة اثنتين وسبعين من الهجرة، وأمر الناس أن يروحوا إليها أيام [١٢٢ب] الحاجّ يطوفوا حولها كما يفعلوه بمكّة، وكان ذلك لما أخذ عبد الله بن الزبير مكّة، فكان عبد الملك يخاف أن يخلي أهل دمشق تروح إلى الحجاز فيأخذ عليهم البيعة عبد الله بن الزبير وقعدوا على هذه الحالة إلى وقت قتل

الحجّاج عبد الله بن الزبير (رضي الله عنه).

حكاية:

وقد ذكر بعض أزلام الوليد بن عبد الملك بن مروان أنه دخل يوماً إلى الجامع، والصنّاع بتعمل فيه، فوجد رجل جالس مفتكر حزين خائف، فخاف الوليد أن يكون ظلمه أحد من المعلمين، أو من المستحثين، فجاء إليه وسلّم عليه، وقال له: أراك مفتكر حزين، إن كان أحد ظلمك أخبرني حتى أخلّص حقّك، فإنّ عملي لا يُظلم فيه أحد، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، حكايتي غريبة وقصتي عجيبة، قال له: وما هي؟ فقال الرجل:

اعلم يا أمير المؤمنين أنّي رجل حجّار، عندي ستة أجمال أشيل عليها [١٢٣أ] حجارة لعمل أمير المؤمنين، فبينما أنا يوماً خارج بهم من المكان الذي هم فيه حتى أسقيهم، وإذا شيخ كبير فاني وقف وبهتُّ فيهم زمان، فقلت له: يا شيخ! ألك حاجة؟ قال: هذه الجمال لك ؟ قلت: نعم، قال: ما تقول في وسق جمالك ذهب الذي تقدر تحمل ؟ فبهتُّ لما سمعت ما قال، والدنيا، يا أمير المؤمنين محبوبة، قلت له: يا سيّدي، وأين هذا الذي تقول؟ قال: عندي، وايش ما قلت تسمع، قلت: نعم.

ثم إنّه أخرج كيس صغير وحلّه وَنَكَتَهُ مِلْئَ يدي، وإذا هو ذهب، قلت في نفسي، صحيح ما يقول هذا الشيخ، وقال لي: خذ هذا الذهب أطعم به جمالك إلى مثل اليوم، وأشبعهم، ولا تخرجهم من أماكنهم، وكل أنت بالباقي، وأنا عندي مثل اليوم، ثم إنّه راح.

وقد خرجتُ من عقلي وقلت في نفسي، وسق ستّ جمال ذهب يبقى ملكي، وصرت أحسب أمور، وكيف أتصرف فيه، وما أنام الليل.

فلما [١٢٣ب] كان اليوم الثامن بكرة النهار، وإذا بالشيخ قد أقبل وقال لي: أيش عملت؟ قلت: أنتظرك، فقال: خذ هذا الذهب، وأعطاني ملئ يدي، وقال: اشتر لنا

زوادة ولجمالك علف يكفي يومين، أو ثلاثة وخذ معك ما يكفي، ولا تخلّي لـك حاجـة، فأنا عندك أغدو من بكرة.

وراح، فقمت وتحوّجت جميع حوائجي وتأهّبت للسفر، فلما كان ثاني يوم بكرة، جاء الشيخ وقـال: بقـي لـك حاجـة ؟ قلـت: لا، قـال: اطلـع عـلى بركـة الله تعـالى بجمالـك، فطلعت ومشى قدّامي إلى صوب باب كيسان، ومقـابر اليهـود، ورُحْنـا عـلى الـدرب إلى آخر العمائر.

أخذ عساف في البرّية لم أعرف أين هو رائح إلى نصف النهار، قيّلنا ساعة حتى استراحت الجمال، وأكلنا شيء، وقمنا مشينا حتى دخل الليل فقلت له: يا سيدي متى نصل إلى هـذا المكـان الـذي قلـت عنـه؟ قـال لي: عنـد طلـوع الفجـر، وصرت أحدّثـه، ويحدّثني إلى [١٢٤أ] نصف الليل، وإذا بالشيخ يصيح فجئت إليه وقلت لـه: ما بك يا سيّدي؟ فقال لي: يا ولدي أنا في هذه الساعة أموت، قلت: لا تفعل، وقد انقطع قلبي.

قال: يا ولدي واحد يقدر يردّ الموت، فصعب ذلك عليه كثير، فقلت: يا سيّدي أوصني أين هذا الذي نحن رائحين إليه، قال: نعم، يا ولدي، يطلع لك الفجر في ذيل جبل، فإذا وصلت إلى ذيل الجبل انزل واعقل جمالـك وامشي في ذيـل الجبـل مقدار مائة خطوة تصل إلى مكان صفة خرابة، ادخل إليها تجد عـامود رخـام، امشي عـن العـامود عشر خطاء على يمينك واحفر مقدار قامة، تجد طابقة وشيلها وانزل في درج تجد مكـان في إيوانين على كلّ إيوان تل ذهب، وفي كـلّ إيـوان سرير، الواحـد عليه شـخص ميّت، والآخر ما عليه أحد، خذني وحطّني عليه وخذ من الذهب كفايتك.

يا أمير المؤمنين [١٢٤ب]! بينما هو يحدّثني عن المكان، وأنا خائف لا أقوم ما أعرف الموضع، ثـم مـات الشيخ فربطتـه عـلى جمـل خـوف لا يقـع، وسرت حتـى طلـع الفجـر وجدت الجبل، قلت في نفسي، هـذا أول علامـة، وجئـت إلى ذيـل الجبـل برّكـت الجـمال وعقلتهم، ومشيت في ذيـل الجبـل حتـى جئـت إلى الخرابـة، قلـت، هـذا ثـاني علامـة، ووجدت العامود كما ذكر فمشيت كما قال، وحفرت ساعة وجدت طابقة شلتها ونزلت

فرأيت مكان يدهش كما ذكر الشيخ، والسرير الواحد ليس عليه أحد، فطلعت وجبت الشيخ، ووضعته على السرير كما قال.

وطلعت جبت الجمال وبقيت أملأ، وأطلع إلى الجمال حتى أوسقت الستّة، وردّيت الطابقة، وردّيت التراب، وثوّرت الجمال، وطلبت صوب المدينة من موضع جئت، وبعدت عن المكان، والشمس على غروب وجدت مخلاة ملآنة تبن في وسط الجمال [١٢٥أ]، قلت في نفسي: بدال ما في هذه المخلاة تبن ما يكون في ذهب، وما يملأ عين ابن آدم إلا التراب، وما كفاني الذي أخذت، فبرّكوا الجمال وردّيت إلى المكان الذي أخذت منه الذهب حتى أملأ المخلاة، أفتّش من أول الجبل إلى آخره ما لقيت شيء.

وقد عبر عليّ الليل وقلت في نفسي، ما تعود تعرف أين الجمال، وجئت صوب الجمال، وقد أظلم الليل فلم أجدهم وتهت عنهم وصرت طول الليل أمشي، وأدور عليهم حتى طلع الفجر ولم أعرف أين راحوا، وما وجدت نفسي إلا قريب المدينة، لا أعرف من أين رحت، ولا من أين جئت، فدخلت إلى المدينة وجئت إلى هذا، وأنا قاعد مفتكر في هذا الأمر، وهذه حكايتي وهذه قصتي.

فلما سمع أمير المؤمنين الوليد حديثه إلى آخره التفت إلى رجل كان معه وقال: هات دواة، وورقة، فجاب [١٢٥ب] له دواة، وورقة، فأخذ الوليد الورقة وكتب له وصول إلى الصيرفي بستّة آلاف درهم، وقال الوليد لرجل معه: اذهب مع هذا أعطيه جماله وخلّي الصيرفي يعطيه لا يوقفه. وقال الوليد للرجل الجمّال: يا أخي! اعلم أنّ الذهب قد وصل إلينا، ما لك فيه نصيب، وقد ساقه الله تعالى إلينا يعيننا به على عمارة هذا المعبد، وأنت خذ لك كراء جمالك كلّ حمل ألف درهم وخذ جمالك.

وأما قصة الجمال فإن الجمّال كان ينقل عليهم الحجارة إلى عند باب الزيادة فأصبحوا وجدوا الجمال واقفين على الباب فبركوهم، ووجدوا عليهم الذهب فأخبروا به الوليد وشالوه إلى الخزانة، فلما سمع حكاية الجمّال صرف له كراء جماله، وأعطاه جماله، وهذا أعجب ما يكون، علم الله تعالى نيته، ساق إليه هذا المال.

وقيل لما فرغ الوليد من الجامع وفرشه [١٢٦أ] ورتب أموره كلّها، وقد اجتمعوا الناس فيه، صعد على المنبر فحمد الله تعالى، وأثنى عليه وصلّى على نبيّه (ﷺ)، ثم قال: يا أهل دمشق! إنّكم تفتخرون على سائر البلاد بحسن بلدكم وكثرة مياهكم وفواكهكم فافتخروا الآن على جميع الدنيا بحسن جامعكم.

وقد ذكروا المسافرين أن ما على وجه الأرض مدينة أحسن من دمشق، ولا أحسن من جامعها، ولا أحسن من ترتيبه، وما حوى فيه من العلماء، والفقهاء، والمشتغلين بالعلم آناء الليل، وأطراف النهار، وليس يوجد هذا في بلد غيره، وشعيل قناديله في الليل من العجائب، ولطافته ونظافته، وما على أبوابه من المآكل، والمشارب، والهرج، والأنس الدائم ليلاً ونهاراً، فلا يوجد هذا في غيره، فضائله كثيرة، وقد اختصرنا منها هذا المقدار ليُعْرف قدر [١٢٦ب] فضله، ولهذا وصفه بعض الشعراء حيث يقول شعراً: [الطويل]

أَرَى الحُسْنَ مَجموعاً بِجَامِعِ جِلّقَ ... وفي صَدرِهِ مَعنى الملاحَةِ مَشْرُوحُ
فَإنْ يتغالى في الجوامعِ مَعْشراً ... فقُلْ لهُمُ بَابُ الزِيَادةِ مَفْتُوحُ

وكم لقُبّة نَسْرِه من حَظوة، ولعروس مأذنته من جلْوة، ولهذا وصفها بعض الشعراء، وقد أجاد حيث يقول:

قَاسُوا حَمَاةَ بِجِلّق فأَجَبْتُهم ... هذا قِياسٌ فَاسدٌ وحياتِكُم
فَعَروسُ جامِعِ جِلّقٍ ما مِثلُها ... شتّان بين عروسِنا وحماتِكُم

عقاب اليهود لحرق المسجد

ثم نعود إلى كلامنا، وفي يوم الأحد ثاني عشرين الشهر مسكوا أكابر اليهود، فإن يوم [١٢٧أ] السبت، كان يوم الحريق، مسكوا المسلمين يهودي في سفل الدرج، وكان عطّار اسمه سديد، وقالوا له: أيش طالعك يوم السبت إلى هذا؟ فقال: بسبب دكاني، فلم يسمعوا منه، وودّوه إلى والي المدينة، وكان ابن العفيف، فمسكه وضربه وقال له: اكذب

على اليهود إنّهم أحرقوا هذا الحريق، وأنا ما أكلمك، قال: نعم هم أحرقوه.

فكتب عليه محاضر بما قال، ثم إنّه أسلم، فلهذا مسكوا كبار اليهود واختفوا اليهود حتى ما بقي يهودي يظهر في دمشق، ثم إن اليهودي سديد أنكر وقال: أنا ما قلت إن اليهود أحرقوا، وما أحرقوا شيء، وإنّما قلت هذا من الضرب، وصار يتكلم زائد وناقص وقالوا عنه إنّه ارتّد فأحرقوه تحت القلعة، وأسلم من الذي مسكوهم [١٢٧ب] جماعة، منهم الديّان الذي لهم، وخلّوهم في الحبس وكاتبوا فيهم إلى السلطان وبقوا منتظرين الجواب فيهم.

ثم استهلّ شهر رمضان المعظم يوم الاثنين، وفي سابع الشهر حضر بريديّ من القاهرة وعرّف حاجب الحجّاب أن كمشبغا الخاصكي جايه إلى دمشق نائب، وسودون قد قوي في الضعف، وله مدة.

وفي ثامن الشهر توفي سودون الطرنطاي نائب الشام ودفنوه في زاوية الحيدريّة التي بالقبيبات، وحضر في ذلك اليوم متسلّم نائب الشام كمشبغا الخاصكي، ونزل في دار السعادة، وغير الرنوك وعمل رنك أستاذه.

وفي يوم الثلاثاء حضر بريديّ من بلاد الشام وذكر أن نُعير قد مسك منطاش عنده، وأنّه يرسله مع أولاده إلى نائب حلب، وأنّه يريد من السلطان خبزه حتى تقعد البلاد [١٢٨أ]، ويتدرّكها على عادته، وراح بهذا الخبر إلى القاهرة يعرف السلطان بمسك منطاش، وما صحّ، ووصل نائب الشام إلى الغور وطلعت الناس تلتقيه على عادة النواب.

ثم استهلّ شهر شوال، وفي يوم الاثنين سابع الشهر دخل نائب الشام كمشبغا الخاصكي، وأشعلوا له الشموع، ودقّت المغاني على عادة النواب، ودخل إلى دار السعادة وحكم بها ونادى بالأمان، والإطمان، وفرحت به الناس فإنّ سودون كان مسودن ما يقاربه أحد من الأمراء، ولا من غيرهم.

وفي رابع عشرين الشهر، طلع المحمل، وكان ركب مليح كثير، وكان أمير الركب

شنتمر الخاصكي، وفي هذا الشهر طلع النائب إلى المرج، وقعد أيام وكبس عرب، ومسك منهم جماعة وسْطهم على المرج، ودخل إلى المدينة يوم السبت سادس عشرين الشهر، وأما جامع تنكز، فإنه راح إلى الفراغ، قد فرغت شبابيكه الذي على الميدان، وفرغت قبّته وركّبوا هلالها، ووزنه نصف قنطار بالشامي.

ثم استهلّ شهر القعدة، وفي ثالث الشهر حضر بريديّ من عند السلطان على يده مرسوم بأن يأخذوا من اليهود مائة ألف درهم لأجل أنّهم أحرقوا الجامع، ويعمروه بها، وأن يخرجوا إلى برّا المدينة، وأن كنيستهم تبنى جامع للمسلمين، ووقعوا في أشرّ أعمالهم، وهكذا جرى لهم سنة إحدى وعشرين وسبعمائة في أيام الملك الناصر، تكلم جماعة من المسلمين في كنيسة اليهود القرايين أنها مُحدثة، وعملوا محاضر بذلك، وأثبتوهم وشهد بذلك جماعة، فورد مرسوم السلطان الملك الناصر أن تهدم، وهدمت يوم السبت عشرين شهر رجب من [١٢٩أ] السنة المذكورة بحضرة العلماء، والفقهاء، والحجّاب، وكان يوماً مشهوداً، وقد قال بعض الشعراء لما خرّبت الكنيسة، وكان حاضراً فيها وفي أهلها شعراً: [البسيط]

لله قَدْ صارَ سيفُ الحَقِّ مشْهُورُ ... والدِّينُ أبلجُ لا يُطفىءِ لَهُ نُورُ
في الحَقِّ قَامُوا وللإسْلامِ قَدْ نَصَرُوا ... وسَاعَدَتْهُم على ذاكَ المَقَاديرُ
هذا زمانُ الهُدَى حَقّاً لأنَّ بِهِ ... الحَقَّ مُنْتَصِرٌ، والشِّركَ مَقْهُورُ
كُلُّ الطَّوائِفِ غَيْرَ المُسلِمِينَ لَهُم ... ذُلٌّ، وويْلٌ، وإزْهَاقٌ وتَدمِيرُ
بِحُكْمِهِ أصبح العِبريُّ في عبرٍ ... ما عَنْهُ في كثْرَةِ التَّعثِير تَعْثِيرُ
ترى سُحيقَةَ مَسْحُوقاً بِهِ وكذَا ... عُزَيْرَةٌ قَدْ أتَاهُ مِنهُ تعزيرُ
خَربت كَنيستهُم يا ذُلَّهُم أبداً [١٢٩ب] ... ومَا على وَجهِ دِينِ الله تغييرُ
لا ترحَمَنَّ يهوديّاً خَلَوْتَ بِهِ ... إنَّ اليهودَ لأخبَاثٍ مَداميرُ
قَدْ قَالَ عَنْهُمْ رَسُولُ الله أنَّهُمْ ... بُهْتٌ وهذَا صَحيحٌ صِدْقٌ مَشْهُورُ

لَمَّا أَتَى الحَقُّ فِي إِزْهَاقِ بَاطِلِهِمْ تَيَقَّنَ القَوْمُ أَنَّ الخُبْثَ تَغْرِيرُ
اليَومَ صَارَتْ دِمَشْق السِّت مُشْبِهَةً دَارَ السَّلامِ فعَنهَا الفَضْلُ مَشْهُورُ
تَاللهِ مَا هَدَمَ البُهتَان ظاهِرُهَا إلا وبَاطِنُهَا بِالحَقِّ مَعْمُورُ

وقد جرى لهم مع الوليد بن عبد الملك حكاية داخلة

قيل: كان له نديم داخل يحبّه الوليد كثير لا يقدر يفارقه فقال له [١٣٠أ] الوليد: لا تنقطع عنّي لا يوم ومتى انقطعت ضربتك، قال: نعم يا أمير المؤمنين، وصار النديم كل يوم يحضر عند الوليد إلى بعض الأيام فقده، قال: أين فلان؟ قالوا: ما جاء اليوم، فلما كان ثاني يوم جاء، قال له الوليد: ما قلت لك لا تنقطع؟ قال: يا أمير المؤمنين! جرى لي حكاية غريبة، قال: وما هي؟ قال:

اعلم إنّي ساكن في حارة اليهود جوار الكنيسة، ولي طاقة صغيرة على الكنيسة أنظرهم، وما ينظروني، وكان أمس لهم عيد، وهم كلّهم في الكنيسة، فقعدت أتفرج عليهم فطلع كبيرهم على كرسي وبقي يقرأ لهم في كتاب وهم يسمعون، وأنا أسمع أيضاً، حتى وصل إلى الجنّة فوصف ما فيها من القصور، ثم قال: إذا كان يوم القيامة يجيء إلى المحشر خلق كثير فيقال، من هم هؤلاء؟ فيقال: موسى بن عمران عليه السلامة، وأمتّه، وهم نحن [١٣٠ب]، فيقال، ادخلوا الجنّة، فندخل الجنّة ونسكن في أحسن القصور، وأحسن المواضع، ثم تأتي بعدنا خلق كثيرة فيقال، ما هم هؤلاء؟ فيقال: عيسى، وأمتّه، فيقال، ادخلوا الجنّة، فيدخلوا ما يجدوا إلا ما قد فضل عنّا فيجلسوا في أماكنهم في المواضع الذي فضلت عنّا، ثم يجيء خلق كثيرة جداً أكثر منّا ومن قوم عيسى، فيقال، ما هم هؤلاء؟ فيقال، محمد (ﷺ)، وأمتّه.

فنقول نحن، سكّروا أبواب الجنّة، قَوْمٌ ما كنّا نقدر نعاشرهم في الدنيا كيف نقدر نعاشرهم في الجنّة؟ فنسكّر أبواب الجنّة، ولا نخلّي أحداً يدخل إلينا منهم، فيجوا يقفوا في الشمس ونبقى نحن في الجنّة. قال فلما سمع الوليد قول نديمه ضحك من قوله

وتعجّب غاية العجب، ثم إنّه أرسل خلف كبار اليهود، وأحضرهم إلى عنده، وقال لهم: أريد [١٣١أ] الذي كان يقرأ لكم أمس في صفة الجنّة، وكيف تدخلوها أنتم، والنصارى ونبقى نحن واقفين في الشمس، فقالوا: يا أمير المؤمنين العفو، فقال لهم الوليد: ما هو نَصَفة تسكنوا أنتم في الجنّة في القصور، والغرف ونبقى نحن واقفين في الشمس، اعملوا لنا خيمة تظللنا. فعمل عليهم كل سنة خمسة آلاف دينار حقّ الخيمة، وكان كل سنة يأخذها منهم، وما بطّلها عنهم إلا عمر بن عبد العزيز (ﷺ) وهذا غريب لم يسمع بمثله.

مقاتلة منطاش في الشمال

وفي هذا الشهر حضر مرسوم السلطان بأنّ عساكر الشام كلّهم يطلعوا إلى صوب بلاد الشمال، ولا يتخلّف أحد، ويبقى حاجب الحجّاب نائب الغيبة، فخرج نائب الشام يوم السبت عاشر الشهر، ونزل على برزة، وجاء نائب صفد وعسكر صفد ولحق عسكر الشام.

وفي آخر الشهر غمزوا على جماعة مناطشة في [١٣١ب] ميدان الحصى، فركب حاجب الحجّاب إليهم، ومسك منهم سبعة أنفس، والباقي هربوا وحبسوهم، وبقوا أهل ميدان الحصى تحت التهديد مع الحاجب.

ثم استهلّ شهر الحجّة، وفي يوم السبت نهار الوقفة دخل النائب، والعساكر إلى المدينة وفرق النائب في الميدان أغنام، وأبقار كثير.، وأصبح نهار الأحد يوم العيد صلّى على عادة النواب في المصلى، وانشرحت الناس، وكانت الضحايا غالية نار تشعل.

وفي يوم الخميس خامس عشر، سمّر النائب عشرة أنفس، قالوا عنهم إنّهم مناطشة وهم أجناد، وأمراء، مقلوب رؤوسهم إلى أسفل ورجليهم إلى فوق، وداروا بهم دورة المدينة وحزنت عليهم الناس، ولم يعهد في دمشق جرا أخت هذه، حتى قطّعوا قلوب الناس، وما يستطيع يشكو أحد على هذا الفعل، ثم إنّهم وسّطوهم تحت القلعة وسلم منهم فرد واحد وقعت فيه [١٣٢أ] شفاعة.

وقد ذكر لي من أثق به من أهل حلب كان حاضر هذه الوقائع كلّها، بأنّ نائب الرّها تصافف مع منطاش وكسره نائب الرها مرّتين، ومسك جماعة من جماعة منطاش، وأرسلهم إلى نائب حلب جلبان، فسمّرهم، ووسّطهم، ثم إنّ منطاش جاء إلى منبج وحاصرها مدّة أيّام وقوي عليهم، وأحرقها، وأخذ أموالهم، وقتل منهم خلق، ثم إنّ نائب حلب جلبان طلب التركمان البياضية، وأخذ بخواطرهم وطيّب قلوبهم- وهو جماعة كثيرة وكانوا مع منطاش ـ وقال لهم:

(اعلموا أنّ السلطان الملك الظاهر برقوق هو حاكم البلاد وسلطان الناس اليوم، ولكم الأمان، والإطمان، والبلاد بلادكم، وأنتم أناس لكم مواشي كثيرة، وأنتم في بلاده، والواجب عليكم أن تعطوا عدادكم[1] للسلطان، ولا خوف عليكم). ولم يزال يلاطفهم إلى حين أجابوه بالسمع، والطاعة. فعند [١٣٢ب] ذلك خلع على كبارهم عشرين خلعة وانصرفوا من عنده ونزلوا بأرضهم، ثم إنهم اشتوروا فيما بينهم على أن يعلموا منطاش بما جرى من أمرهم فتوجهوا كبارهم إليه، وأعلموه بما جرى لهم مع نائب حلب، فقال لهم منطاش.

(إذا كنتم تعطوا العِداد للسلطان برقوق فسلطان البلاد مايريد منكم عداد. فقالوا: ومن هو السلطان غير برقوق؟ قال لهم: سلطان البرّ نُعير، إذا بلغه إنّكم أعطيتم العداد لغيره ينزل عليكم بعربه، وينهب بيوتكم. فعند ذلك خامروا وظنّوا أنّ هذا صحيح، ثم إنّهم بعثوا الخلع إلى نائب حلب، فلمّا بلغ نائب حلب ذلك عظم عليه، وفي الحال ركب، وركب عسكر حلب معه، وكل طمّاع ونهّاب وسار أوّل الليل إلى وقت طلوع الفجر كبسهم، وإذا بالتركمان قد أداروا أغنامهم، وأبقارهم حولهم، وبقوا في الوسط على أن الأغنام، والأبقار ترد عنهم الخيل. فلمّا [١٣٣أ] وصلت العساكر نزلت إليهم الرجالة من العوامّ، ونهبوا الأغنام، وحطم العسكر عليهم فكسرهم جلبان نائب حلب فإنه

---

(١) العداد: ضريبة المواشي.

فارس الخيل، شديد الحيل، بطل من الأبطال، في يوم المَجَال، وهو كما قال فيه الأصمعي، وأجاد حيث يقول شعراً: [الرمل]

أَنَــــا فِي الحَــــربِ العَــــوانِي أبـــــدًا يُعــــــرَفُ شَــــانِي
أيـــنَ مَـــا نَـــادىَ المُنَـــادي في دُجَـــى النقـــعِ تَـــرانَي
خُلـــــقَ الـــــرُّمحُ لِكَفـــــيّ والحُسَـــــام الهِنـــــدوَانِي
ومَعِـــــي فِي المَهْـــــد كَانَـــا فَـــوقَ صَـــدري يُونِسَـــاني
وَهُمَـــا عِنْـــدَ مَـــنْ يُنْكِـــرُ فِعْـــــلِي شـــــاهداني
وإننـــي أَطْعَـــنُ خَصـــمِي وَهـــوَ يَقظَـــانٌ يَـــرانِي

ونهب العسكر جميع موجودهم، وراحوا التركمان بجلودهم، ورَدّت العساكر غانمين سالمين، لكنّ النائب جرح في رقبته جرح هين ما تألم له، راحوا التركمان إلى منطاش وحكوا له ماجرى لهم مع نائب حلب، وأنّه [١٣٣ب] مجروح مشغول بروحه، فركب منطاش ومن معه وجاء إلى المدينة إلى الباب، والبزاعة قريب من حلب.

حكم منطاش في الباب

ولّما علموا أهل الباب أن منطاش نزل عليهم درّبوا وحصنّوا المدينة فإن ما لها سور، وحاموا عن أنفسهم، وبقي منطاش يحاصرهم سبعة أيّام ولم يقدر عليهم، وسمع نائب حلب خبرهم فبعث إلى نائب طرابلس إياس، يقول له: (إنّك تقوم تجيء بعسكر طرابلس فإن عدو السلطان قريب من حلَب حتّى تتساعد عليه). فركب إياس وجاء إلى حلب، ونزل في ميدان حلب.

وأمّا منطاش فإنّه بعد سابع يوم أرسل إلى أهل الباب يقول لهم: (أنا ما جئت أطلب قتالكم، ولا خراب بلادكم ولكم الأمان، والإطمان، لكن أريد منكم عشرة أحمال بقسماط وشعير ودقيق ومؤونة للذي معي، وأنا أُخلّيكم، وأروح. فلمّا سمعوا هذا الخبر أرسلوا يقولوا [١٣٤أ] له: نعم نحنا نسيّر لك الذي طلبت أمهل علينا ثلاثة أيّام). إنّهم

جمعوا الذي طلب منهم وفتحوا تدريب المدينة[1] وخرجت الأحمال، فبينما هم قد فتحوا تدريب المدينة وهم خارجين، حطم عليهم وحال بينهم وبينها، وكانت حيلة ومكر منه حتّى فتحوا التدريب.

وكان قد أكمن لهم كمين. فدخل إلى المدينة بالسيف، وقتل الكبير، والصغير واحتوى على المدينة، وما فيها، وهربت الناس إلى حلب وهم حفايا عرايا، وناس تخبّوا في مغاير تحت الأرض مايصل إليهم أحد، وبقي يحكم في المدينة ثلاثة أيّام، فبينما هو جالس إذا برجل فلاح يستغيث: نصيحة فأحضروه إلى بين يدي منطاش وقاله له: مانصيحتك؟

قال: ياخوند! العساكر الشاميين، والصفديين، والحلبيين قد وصلوا إليك فخذ حذرك منهم). فلما سمع منطاش هذا [١٣٤ب] القول صعب عليه وخرج هو وعسكره عن المدينة مقدار فرسخ وضرب خيامه هناك، وبقي ينتظر قدوم العساكر، وكانت هذه حيلة من الرجل الفلّاح حتّى أخرجه من البلد، فلمّا خرج من البلد أعادوا التدريب الذي كانوا قد بنوه.

وأمّا عسكر طرابلس، فإنّهم بقوا في الميدان أيّام، وكان نائب حلب جلبان قد عمل عليه الجرح الذي في رقبته، وما بقي يقدر يركب، فردّ إياس إلى طرابلس خوفاً على بلده.، وأمّا منطاش، فإنّه أخذ من الباب شيء كثير لمّا خرج منها ولم يجيء إليه أحد فردّ إلى مَرْعَش. فهذا كان سبب جرح نائب حلب في رقبته، ثم إنّ الجرح ختم وطاب ودخل إلى الحمّام فالحمد لله على ذلك، وما أحسن قول الشاعر يهنّئ بعضهم بالعافية حيث يقول شعراً [١٣٥أ]: [السريع]

مَا زِلْتُ أدْعُو اللهَ يَاسَيِّدي ... بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ صَافِيَةْ
حَتَّى أمَاطَ اللهُ عَنكَ الأذَى ... والحمدُ لله عَلى العافِيَةْ

---

(١) هو إغلاق المدينة وأبوابها نسبة إلى الدروب.

ثمّ استهلّت سنة خمس وتسعين وسبعمائة، ودخلت هذه السنة المباركة، والأسعار فيها غالية كثير، الخبز كلّ ثمان أواق بدرهم، والناس في شدّة، اللهمّ أرخص أسعار المسلمين!

وفي نهار الخميس خامس الشهر انقطع النائب ضعيف في دار السعادة، وبقي إلى يوم الأحد ثامن الشهر توفّي إلى رحمة الله تعالى، ودفنوه في تربة إينال في سويقة صاروجا جوار الشاميّة.

وفي يوم السبت سابع الشهر توفّي القاضي شهاب الدين الزهري، وكان [١٣٥ب] بركة المسلمين، رحمه الله تعالى.

وفي يوم الثلاثاء تاسع الشهر حضر خاصّكي من القاهرة إلى عند الأمير الكبير تنبك بتقليد نيابة الشام، ولبس يوم الخميس على عادة النوّاب، وأشعلوا له الشموع، ودقّت له المغاني، وفرحت الناس به، فإنه قليل الأذية الناس، مشكور السيرة، ودخل إلى دار السعادة على عادة النواب، وحكم بها.

وفي يوم السبت رابع عشر الشهر حضر من القاهرة القاضي المالكي ابن القفصي وعزل البرهان التادلي. ودخل المحمل يوم الخميس سادس عشرين الشهر وكانت حجّة طيبة ولله الحمد.

ثمّ استهلّ شهر صفر وحضر في أوله أمير إياس من طرابلس على خبز نائب الشام تنبك [١٣٦أ] أمير كبير- لاكبّره الله تعالى ما كان أقبح فعاله، وخافت الناس منه، فإنه مشهور بالظلم معروف به.

وأما جامع المقّر تنكز رحمه الله، فإنه قد تبيّض داخله، وتركب طرازه المذهّب، وترخّمت حيطانه، وفرغت السّدة، وطلعت المأذنة، وقد ازداد الجامع أكثر من ثلثه، فإنّه أخذ بيت ابن قفجق إضافة إلى الجامع وصار معبد بعد ذلك الظلم الذي كان فيه، صاحبه كان من الظلمة، وقد أجاد صاحب هذا المفرد حيث يقول شعراً: [الكامل]

إنّي نَظَرتُ إلى البِقَاعِ وجَدتُهَا تشْقَى كمَا تشْقَى الرِّجَالُ وتسْعَدي

وهذه البقعة حصل لها السعادة الوافرة وصارت بيتاً من بيوت الله تعالى سبحانه.

وقد [١٣٦ب] فرغت نواعيره ومرجاته، والناس يتفرّجوا فيه، ويدعوا له، ويترحّموا على جدّه تنكز، وقام فيه قيام الرجال بنفسه وماله، غفر الله له ورحم سلفه.

ثمّ استهل شهر ربيع الأول، والناس فيه مشغولين بموالد رسول الله (ﷺ)، والناس في خير آمنين مسترجيين الخير، والأمطار كثيرة، وعين المغلات مليحة، ولله الحمد.

وفي آخر الشهر فرغت عمارة المدرسة الشامية البرّانية، وصلّوا فيها وحضروا الفقهاء بها على عادتهم.

ثمّ استهل شهر ربيع الآخر. وفي يوم السبت سادس الشهر نقل المقر السيفي ابن تنكز جهاز بيت الله تعالى، التنانير، والطباق، والقناديل، والحُصُر، والبُسطُ، وما يحتاج إليه الجامع، وقدّامه الخليليّة[1] تضرب، والناس، والسناجق الخليفتية، وخطيبه عليه حلة سوداء، والمؤذنين قدّامه، وفرحت الناس [١٣٧أ]، وكان عدّة الحمّالين ثمانين حمال، وثلاث جوق عتّالين حاملين التنانير، وكان يوماً مشهوداً. ولم يبصر أحد أعلى من همّته، ولا أعرف منه. وعمرَّه في تسع شهور، وفَرشُوه، وأتقنوا أمره.

وفي يوم الجمعة جاء النائب صلى فيه وكبار دمشق. وطلع قاضي القضاة الباعوني خطب بالناس خطبةٌ بليغة، وأسقى بعد الصلاة للنائب مشروب، ولجماعته، وخلع على معلّميه، وعلى خازنداريته، وعلى كاتبه، وامتدحه الشعراء، وأوهب، وأعطى، وقد صلّى فيه نائب السلطان، وقد أرغم الله تعالى في ذلك اليوم أنف الشيطان، وما أحسن شبابيكه على الميدان، وقد وصفه الشاعر الملسان، حيث يقول شعراً: [الطويل]

فَيَا حُسنَهُ مِنْ جَامِعٍ لَمْ تَزَلْ بِهِ تَقُومُ رِجَالُ اللهِ بالفَرضِ، والسُنَّة
وأمْسَىْ [١٣٧ب] لَـهُ الأعْـدَاء بالنَّـارِ وفي حُسْنِهِ قَد أصْبحَ اليَومَ كَالجَنَّة

ثمّ استهلّ شهر جمادى الأولى. وفي مستهلّ الشهر خرجت من دمشق خزانة مولانا

---

(١) الخليلية: لعلهم جوقة موسيقية أو حراس، لم أقف لها على معنى في المعاجم.

السلطان الملك الظاهر برقوق، وهي استعمالات سروج، وأكوار، وأصناف كثيرة على مائة جمل، وقدّامهم القلعيّة، والناسْ تتفرّج عليها.

وفي خامس الشهر أحضروا إلى عند النائب بنت ميّتة صغيرة كما ولدت، وعلى رأسها عصابة لحم، خلقة عظيمة، وذكرت أمها أنّها لّما نزلت قامت وقفت وطلعت يمين وشمال وسقطت ميّتة، فتعجّب النائب منها، والناس، وأرسلها إلى حاجب الحجّاب وخبرها مشهور، ودفنوها في مقبرة باب الفراديس.

وفي يوم الاثنين سابع عشر الشهر خلع النائب على ابن صاحب قلعة الصبيبة بشدّ المراكز وباشرها.

وحضر [١٣٨أ] حاجب مدينة قارا[1] أمير العرب، وأخبر النائب أنّ يوم الأحد سادس عشر الشهر هبّت علينا رياح عاصفة، وأمطار كثيرة وبرد، حتّى قلنا إنّ القيامة قد قامت، فبينما نحن في منازلنا، وقد أقبل علينا نعير برجاله وفرسانه، فركب ابن قارا وعربه، والتقاهم وكسرهم نعير، ثم إن ابن قارا ردّ عليهم وكسرهم وقتل منهم جماعة، وأخذ سلاحهم وخيلهم، وكانت النصرة لابن قارة على نعير. وفرح النائب، والناس.

وفي نهار الجمعة بعد الصلاة توجّه المقرّ ابن تنكز إلى القاهرة بعد فراغ الجامع. الله يكتب سلامته!

ثمّ استهلّ شهر جمادى الآخرة، وخرج نائب الشام، والعساكر في أول الشهر إلى بلاد الشمال، وخافت الناس ورسم النائب أن لا ينتقل أحد إلى داخل المدينة ينكّد على الناس.

وقعة مع العرب في حماة

وقد أخبرني من [١٣٨ب] أثق به وهو تاجر من الرمّاحين كان حاضر هذه الوقعة وليس له غرض في الكذب، قال: كنت في حماة وعسكر طرابلس في حماة، وبعد ما جاء

---

(١) قارا: بلد شمال دمشق على طريق حمص، لاتزال باقية إلى اليوم.

عسكر الشام فبينما هم قاعدين جاءهم رجل سائق وذكر أن نُعير وعربانه ومعه تركمان وغيرهم قد أتوا إليكم، خذوا حذركم منهم، فركبت العساكر وخافت أهل حماة وغلّقوا أبواب المدينة وبقي كلّ واحد يحفظ بيته، وقد دقّ العسكر حربي وتواقعوا مع العرب إلى بعد العصر انكسر نعير. وردّوا الترك إلى حماة مستظهرين على العرب إلى يوم الثلاثاء جاءت العرب مرّة ثانية، فركبوا العساكر، والتقوهم وقتلوا منهم الترك ونهبوا ورجعوا العرب خائبين، وكانت بيوت العرب نازلين في مكان يعرف بدواعين منزلة لهم.

وفي يوم الخميس [١٣٩أ] أتت العرب أيضاً على عادتهم، فركبت العساكر، والتقوهم، وأبذلوا فيها المجهود، وتوكلّوا على الواحد المعبود، ووقعت العين على العين، ووقف في موقف الحرب كلّ من الفريقين، وكانت العرب المقهورة أكثر من الترك المنصورة، لكن ثبتوا لملتقى الأعداء، وأخلصوا السريرة، وتلا لسان حالهم ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وحملت الفرسان على الفرسان، وتناخت الأبطال، وجالت الصوارم في ضيق المجال، وكشفت الحرب قناعها، ومدّت يدَها وباعها، وارتعدت الفرائس، والمفاصل، وبرقت السيوف النواصل، وطارت الرؤوس، وخمدت النفوس، فلا ترى إلا رؤوساً طائرة، وقلوباً حائرة، وخيولاً غائرة، ورجال تتخابط، وهامات تتساقط، وهذا [١٣٩ب] جريح، وآخر طريح، وبين في ذلك اليوم شجاعة عظيمة البطل الهمام، والأسد الضرغام، صاحب الوثبات، والثبات، الموصوف بالعزم، والعزمات، أبو المهمات، وصار بين الصفوف يجول، وينشد، ويقول شعراً: [الكامل]

أَنَا أقبَغَا المَعرُوفُ فِي يَومِ الوَغَى ... الفَارِسُ البَطَلُ الهُمَامُ الضَيَّغَمُ
أيـنَ المَفَرُّ لِهَارِبٍ مِنْ سَطوتي ... قَلِقُ الجَوَانِحِ لا يَلَذُّ بمَطْعَمِ
ضَاقَت عَلَيْهِ الأرضُ حَتَى إنَّهُ ... أمسَى يُشَاهِدُهَا كَدَوْرِ الدِرْهَمِ

والـوَحشُ تَرتَـعُ في لُحُـومٍ غَرِيبَـةٍ   وتَضِـيفُ أَضْـيَافَ الطّيـورِ الحُـوَّمِ

وردّ أقبغا الصغير نائب حماة، والعساكر معهم الغنائم، [١٤٠أ] وراحت العرب من تلك الأرض بالقائم، ووصل عسكر الشام إلى حماة، وما لحقوا الوقعة، ونزلت العساكر كلّها على بلاد سلميّة وحماة، وورد مرسوم السلطان إلى العساكر أنّهم يقيموا على سلميّة حتّى تشيل الناس مغلاتهم.

حوادث أخرى

وفي سابع عشرين الشهر أمر حاجب الحجّاب أن يعلّقوا القناديل على الدكاكين، وفي الطاقات، ودارت المشاعلية[1] في المدينة ونادوا حسب المرسوم، وعلّقوا الناس القناديل وبقي يتكلّف الفقير أوقية زيت بنصف، وهذه سُنّة سودون باق.

ثمّ استهلّ شهر رجب. وفي يوم الجمعة نزل السنجق السلطاني إلى الجامع الأموي.

وفي هذا الشهر وصل القمح إلى ثلاثمائة وخمسين درهم، وبقيت الناس في شدّة، اللهم أرخص أسعار المسلمين!

وفي هذا الشهر كان في حلب فَنَاءٌ عظيم كثير جدّاً، [١٤٠ب] حتّى خلت حلب وبلادها. قيل إنّه وصل إلى ألف في كل يوم، وقد ذكر لي بعض كتّاب الحشر[2] الذي بحلب قال: أردت أطلب أضبط كم مات من حلب وبلادها فعملت ذلك، فوجدت قد مات من أول الفناء إلى آخره رجال ونساء، وأطفال، ويهود ونصارى ثلاثمائة ألف روح وستّين ألف روح، وكان أكثرهم أطفال، مات من داخل المدينة مائة ألف وخمسين ألف، والباقي من برّا البلد ونواحيها.

---

(١) المشاعلية: هم الذين يقومون على العناية بالقناديل في الشوارع وهم جزء من تنظيمات الأمن الداخلي بالمدن.

(٢) هم الذين يكتبون أموال الجزية عن اليهود والنصارى.

حكاية في الفناء

أبصر بعض الناس أنّه قد خرج من بيته في النوم عشرة أنفس موتى، وكان عدّتهم عشرة بالرّجل فمات منهم تسعة وبقي هو لا غير تكملة العشرة، انقطع قلبه، وما بقي يقابل البيت، فراح نام في بعض الليالي عند بعض أصحابه، ثم إنّه جاء ثاني يوم يكشف خبر البيت ففتح ودخل وجد [١٤١أ] فيه رجل ميّت، وكان هذا الرجل لص، ما لقي فيه أحد وفيه حوائج، فخلع الباب الذي للسطوح، ونزل إليه فكان فروغ أجله في البيت حتّى يتفسّر منام الرجل، فتعجّب صاحب الدار من هذا الأمر، ثم إنه غسله وكفنه، وأخرجه كما ينبغي، وقد طاب قلب صاحب البيت أنّه قد تفسّر منامه وهذا العاشر. وهذا اتفاق غريب لم يسمع بمثله.

حكايَة في المعنى

قال أبو الفرج المعاف: إني حجّجت في بعض السنين فكنت في منى فسمعت منادياً ينادي يا أبا الفرج، فقلتُ لعلَّه يريدني، ثم قلت، في الناس خَلق كثير ممن يكني أبا الفرج، فلم أجبه فلمّا رأى أنّه لا يجبه أحد نادى، يا أبا الفرج المعافا فهممت أن أجيبه، ثم قلت، لعلّه ينادي غيري، فلّما رأى أنّه لا يجبه أحد نادى، يا أبا الفرج المعافا بن زكريا النهرواني، فقلت، لم يبق شك بعد هذا [١٤١ب]، قد ذكر اسمي وكنيتي واسم أبي وبلدي، فقلت، أنا ذلك الرجل، ما تريد ؟ فقال لي، لعلك من نهروان الغرب؟ فتعجّبت من اتّفاق الاسم، والكنية واسم الأب، والبلد وعلمت بالمغرب بلد يعرف بالنهروان وهذا اتّفاق غريب.

ثمّ نعود إلى كلامنا... وفي يوم الإثنين عشرين الشهر دار المحمل دوران خفيف لقلّة العسكر في دمشق وعيّنوا أمير الركب عمر بن منجك.

ثمّ استهلّ شهر شعبان، وفي يوم الخميس خامس الشهر طلب حاجب الحجّاب السماسرة، والطحّانين، والمحتسب، وقال له: أطلع سعر الخبز الخاصّ رطل بدرهم، وما دونه رطل وثلث. فطلع المحتسب نادى في المدينة على الخبز كما ذكر الحاجب، رطل

بدرهم ورطل وثلث، فاغتاظ ابن النشو السمسار ـ قبحه الله تعالى ـ

وقال للخبّازين:[١٤٢أ] لا تبيعوا إلا رطل بدرهم، ودخل إلى الحاجب وقال له: هذا ما يقوم معهم وتكسرهم، فقال له المعلم الخبيصة: نعم يقوم معهم، ولا يحل لك أنت من الله تعالى تقف في طريق المسلمين، إذا كان الله تعالى قد أرخصه تقدر أنت أن تغلّي الأسعار؟ وقال الخبيصة لحاجب الحجاب: يا خوند وحياة رأسك أنا أتدرك الخبز الطيّب رطل وثلث بدرهم ورطل ونصف هذه السنة.

فشكرته الناس على هذا الكلام، وقامت الناس إلى ابن النشو يرجموه فتخبّأ عند الحاجب، وقالوا الناس: متى طلع ابن النشو رجمناه، وخاف من الناس ولم يطلع حتّى راحت الناس، ورخّص الله تعالى الخبز على رغم أنف ابن النشو فإنّه عدوّ المسلمين.

وفي هذا الشهر قتل، والي الولاة، قتلوه العرب قريب صرخد وطلع عوضه الرنبكي التركماني، والي الولاة [١٤٢ب].

ثمّ استهلّ شهر رمضان المعظّم من السنة المذكورة نهار الجمعة، وفي رابع الشهر توفّي زين الدين ابن رجب، أحد علماء المسلمين، رحمه الله تعالى.

قتل منطاش

وفي خامسه وصل الخبر إلى دمشق مع بريدي من حلب بأنّ نعير مسك منطاش، وأرسله إلى نائب حلب مقيّد، وطلع إلى مصر، والبريدي مملوك نائب حلب، وطلع إلى السلطان يخبره بهذا الأمر، وما يفعل فيه وصح ذلك ودقّت البشائر وفرحت الناس الذي همد الشرّ، وراح منطاش وهرب من كان معه وتفرّق شملهم وطابت قلوب الناس بين مكذّب ومصدّق، فإنّ كثير مسكوه، ويقتلوه، وما يصحّ، ثم إنّ نائب حلب ضربه على الذخائر الذي له في مصر حتى قرّره، وبعد ذلك قتله وقطع رأسه، وأرسله إلى السلطان.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر الشهر حضر بريدي من بلاد حلب [١٤٣أ] ومعه رأس منطاش في علبة. وطلعت الناس حتى يتفرّجوا على رأس منطاش وازدحمت الناس

وبقيت ناس في فرح، وناس في ترح، وحطوه على رأس رمح ودخلوا به قدّام الناس ومعه الترك، والناس مثل التراب، والبشائر تدقّ في القلعة وهم داخلين برأسه فوق رمح أعلى من الناس كلّهم، وقد وجدت على بعض الحيطان أبيات، وأظنّها خط بعض الأوباش[1]، يرثي بها منطاش، يقول شعراً: [الوافر]

عَـلا مِنْطَـاشُ فَـوقَ سَرِيـرِ مِصْرٍ ... وتَخْـتِ الشّـامِ مِـن كُـلِ الجِهَـاتِ

وبَعْـدَ مَمَاتِـهِ فَـوقَ العَـوالِي ... عُلُـوّاً في المَمَـاتِ وفي الحَيَـاةِ

ودخلوا به على باب الفراديس إلى سوق الخيل إلى باب النصر إلى القبيبات نزّلوه من على الرمح وحطّوه في العلبة، وأخذه البريدي وساق به إلى القاهرة [١٤٣ب] إلى عند السلطان، وكان لدخوله إلى القاهرة يوماً مشهوداً، أحضروه إلى بين يدي السلطان حتّى تحقّقه، وأمر بتعليقه على زويلة أيّام، ثم دفن رحمه الله.

ثمّ استهلّ شهر شوال من السنة المذكورة. وفي رابع عشرين الشهر خرج المحمل الشريف من دمشق ومعه ناس كثيرة، الله يكتب سلامتهم.

وفي هذه السنة كانت فواكه دمشق مليحة ورخيصة، أبيع التين ثلاثة أرطال بدرهم، وأربعة أرطال بدرهم، والدراق، ثلاثة إلا ثلث بدرهم، والعنب ثلاثة بدرهم المليح وشبع الفقير واطمأنت قلوب الناس، لكنّ الدرهم قليل على الناس لقلّة معايشهم.

انتصارات تمرلنك في الشرق

ثم استهلّ شهر القعدة، وفي هذا الشهر تواترت الأخبار من بلاد العراق بأنّ تمرلنك أخذ بغداد، وأن السلطان أحمد بن أويس خرج من بغداد هارب من تمرلنك، وأنّه ملكها في عاشر شهر شوّال من السنة [١٤٤أ] المذكورة، وقتل من بغداد خلق كثير، ونهب بيوت الناس، وأحرق أملاكهم، وسبى حريمهم، ويتمّ أطفالهم، وضرب الدرهم، والدينار باسمه فيها، وجفلت البلاد، والعباد، وخافت الناس، وبطل ذكر منطاش،

---

(١) الأوباش: سفلة القوم وأهل الكدية.

وجاء ذكر تمرلنك ـ قَبّحه الله تعالى ـ ومن معه من الأوباش، وأن السلطان أحمد بن أويس وصل إلى قلعة كامخ، وحطّ فيها ذخائره، وما معه، فإنّها قلعة حصينة.

ثم إنّه أتى إلى حلب فتلقاه نائب حلب، وأكرمه، وأنزله في مكان يليق به، وأرسل أعلم السلطان الملك الظاهرة، ثم بعد أيّام وصل خبر إلى الشام من بلاد العراق أن تمرلنك أرسل جماعة من البصرة ليأخذوها، فتجّمعت عليهم عربان ورجال، وواقعوهم، ونصّر الله تعالى المسلمين على الفرقة الباغية، وقتلوا منهم كثير، ودقّت البشائر في دمشق، وفرحت الناس، ورُدت الناس إلى ما كانوا عليه من الكذب، والقال، والقيل، وبقيت الناس [١٤٤ب] خائفين وهم معذورين، فإن المسلمين لهم من سنة قازان، وهي سنة تسع وتسعين وستمائة، ما عاد جاء إلى هذه البلاد عدوّ ولله الحمد.

حكاية:

لمّا قصد جربند[1] أخْذ بلاد الشام، وكان قد جمع خلق كثيرة من التتر، والمغل، وكان هذا جربند بن هلا كون، وكان رافضي على مذهب الباطنيّة، ونقش على الدرهم، والدينار الإثنا عشر إمام، رضي الله عنهم، فلمّا قصد بلا الشام، ووصل إلى الرحبة وحاصرها ولم يبق إلا أخذها، رأى في المنام تلك الليلة أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب (ﷺ) قد وضع سنان رمحه في صدره وقال له: والله لئن لم ترحل غداً عن هذا البلد وتردّ إلى بلادك بعساكرك، وإلا أخرجت هذا السنان من ظهرك. فأصبح، وقد قطع الفرات من شدّة خوفه، وما اعتراه في المنام، فلامه بعض خواصّه عن رجوعه فقال له: وحقّ الطالب [١٤٥أ] الغالب علي بن أبي طالب، ما أقدر أخالف عليّ بن أبي طالب. وردّه الله تعالى خائباً بكرمه، وإحسانه على عباده.

ولمّا أظهروا المسلمين الفساد في الأرض سلّط الله تعالى بعضهم على بعض ينهبون الأموال، ويقتلوا الرجال، وأرسل الله تعالى عليهم الطواعين، والفتن تدور دور

---

(١) في معظم المصادر اسمه: خربندا.

الطواحين، وهذه الحروب، والوقائع، والحوادث كلّها كفارات من الله تعالى عنهم، وتمحيص للذنوب التي كانت منهم، وفي الحديث «**يؤجر المرء على الشوكة إذا شاكته**[1]».

فما قولك فيمن ذهب ماله وقتلت أهله وسبي حريمه؟ فإن هذا كلّه كفارة له. وقال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وفي المثل: «من لم يمت بالسيف مات بغيره».

وكان سبب هجم تمرلنك على بلاد ابن أويس صاحب بغداد فإنّه كان قد جار على الرعية، وحكمْ [١٤٥ب] فيهم بغير الأحكام الشرعية، وأخذ أولادهم المردان بالقهر، وصار يمسكهم عنده بالسنة لا بالشهر، فكثرت عليه الشكاوى إلى الله تعالى، ومَرَضُ الجَوْر ليس له غيره عدل الله مداوى، فسمع الله تعالى من عباده الشكوى، وسلّط عليه من هو عليه أقوى، فسلبه سلطانه، وغرّبه عن أوطانه، لكن صدق الله العظيم في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: ١٨٢].

حكاية:

حكى لي رجل من أولاد بغداد عارف بأمور السلطان أحمد قال: كان للسلطان أحمد ثلاثة إخوة مثل الأقمار من أبيه، عندهم عقل، وأدب وحشمة، فخاف على الملك منهم، ومال بوجهه عنهم، فقتل منهم اثنين، وأكحل الآخر وتركه بلا عينين، وذبح بين يديه جماعة من أمرائه، ورضي بالمعكوس من عقله ورأيه، ولم يستغفر من [١٤٦أ] ذنبه ولم يعتذر، حتّى أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وأصبحت عساكر تمرلنك في بلاده مقيمة، ومصيبة في نفسه عظيمة، فلو كان من الملوك العادلة، كان الله تعالى ردّ عنه الفرقة الباغية، لكنّه كان في ظلمه شديد ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: ٤٦].

---

(١) لم يرد الحديث بهذه الصيغة.

انحرافات على الحاكم العادل

ولقد دخل طاووس على المنصور يوماً فقال له: حدّثني عن أبيك حديثاً، قال: نعم، حدّثني أبي عن معاذ بن جبل (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ): **«إن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه، فأدخل عليه الجور في حكمه»**(١).

ومن هذا الباب إنّ الله تعالى ضمن النصر للملوك، وشرط عليهم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝﴾ [الحج: ٤١].

فمتى تضعّفت قواعد [١٤٦ب] ملكهم، أو انتقض عليهم من أطراف ملكهم شيء، أو ظهر عليهم عدو، أو باغي، واضطربت عليهم الأمور، فليلتجئوا إلى الله تعالى، ويستخبّوا من نزول أقداره بإصلاح ما بينهم وبينه، وبإقامة الميزان بالقسط الذي شرعه لعباده، وسلوك ونصرة المظلوم، وقمع الظالم، ومراعاة الفقراء، والمساكين، وملاحظة ذوي الخصاصة، والمستضعفين، وإقامة الشروط المذكورة كلّها، وقوله (ﷺ): **«كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته»**(٢).

وقال (ﷺ): **«ما من رجل وَلِيَ أمور المسلمين، ثم لم يجتهد لهم، وينصح، إلا لم يدخل معهم الجنة»**(٣).

وعن أبي سعيد الخدري (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ): **«أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة الإمام الجائر»**(٤).

---

(١) ورد الحديث في: فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٣٨٣، حلية الأولياء لأبي نعيم ٤/ ٩٦، ١٠/ ٢١٥، كنز العمال للمتقي الهندي ٩٣٦٩.

(٢) ورد الحديث في: معظم كتب الحديث المعتمدة: صحيح البخاري ٢/ ٦، ٣/ ١٩٦، سنن الترمذي ١٧٠٥، مسند أحمد بن حنبل ٣/ ٧، ٥٤، السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٢٨٧، فتح الباري لابن حجر ٢/ ٣٨٠، الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٤٨، اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٣١٨.

(٣) لم يرد هذا الحديث بهذه الصيغة.

(٤) ورد الحديث في:الإمام الجائر: المعجم الصغير للطبراني ١/ ٢٣٨، كنز العمال للمتقي الهندي ١٤٦٣=

[١٤٧أ] وقال ابن سيرين: جاء صبيان إلى عبيدة السلماني يتخائرون بألواحهم في الخطّ، فقال، هذا حكم، ولا أتولّى حكماً أبداً، وما نظر فيه. وهذا غاية رحمة الله تعالى.

واعلم يا أخي - وفقك الله تعالى - أنّ الأنبياء عليهم السلام أعمّ خلق الله تعالى نفعاً، وأنّهم أجلّ الخلق قدراً، لأنهم يهدون الخلق إلى الله تعالى، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور، فهكذا السلطان، خليفتهم في الأرض، يعمّ نفعه العباد، والبلاد، ويصْلُح بصلاحه الدنيا، والآخرة، ومن كان عند الله عظيم، وقدرهُ في العقول جسيم، ومقامه عند الله كريم، وعلى قدر المنفعة يحصل الأجر، على قدر النعمة تكون المنّة، فليس فوق منزلة السلطان العادل منزلة، كذا ليس دون منزلة السلطان الجائر منزلة، لأنَ شرّه يعمّ، كما أن خير العادل يعمّ.

ومتى عدل السلطان انتشر العدل في رعيته فأقاموا الوزن بالقسط، وتَعاطُوا الحقّ فيما [١٤٧ب] بينهم، ولزموا الحقّ فمات الباطل، وذهبت رسوم الجور، فأرسلت السماء عليهم المطر، وأخرجت الأرض بركاتها، فنمت الزروع وشبعت الأغنام، ودرّت الأرزاق ورخصت الأسعار، وكان الناس في خير. ومتى جار السلطان انتشر الظلم في البلاد وضعف النفوس، ومنعت الحقوق، وتعاطُوا الباطل وبخسوا المكيال، والميزان، فرفعت عند ذلك البركات، وأمسكت السماء عن المطر وتعطّلت الزروع، وهلكت المواشي بمنعم الزكوات، وقد فشت فيهم الأيمان الكاذبة، وكثرت فيهم الحيل، والمكر، وعظم فيهم العار، ومن هذه صفته بطن الأرض خيراً من ظهرها.

وقال وهب بن منبّه: وجدت في بعض الكتب الذي أنزلها الله تعالى على بعض الأنبياء، عليهم السلام، أنّ السلطان إذا همّ بالظلم وعمل به، أدخل الله النقص في مملكته، وأذلّ أهلها، وإذا همّ بالعدل وعمل به، أدخل [١٤٨أ] الله البركة في مملكته، وأعزّ أهلها.

=الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ١٦٧، مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٩٧، ٢٣٦.

حكاية تصديق هذا الكلام

قيل إنّ ملك خرج من ملكه مختفي، فنـزل بقرية فيها رجل له مواشي، فحلب له الرجل من فرد بقرة مقدار عشرين رطل، فأعجب الملك تلك البقرة، وحدّثته نفسه بأخذها من صاحبها، فلمّا كان ثاني يوم حلبت نصف ما حلبته بالأمس، فقال الملك لصاحبها: ما بال حليبها اليوم ناقص، لعلّها رعت في غير مرعاها بالأمس؟ قال: لا، ولكن أظنّ أن ملكنا قد تغيرت نيتّه، أو يكون سمع بها فيريد أخذها. فقال له الملك، ولم يعلم الرجل أنّه الملك: من أين لك هذا الخبر؟ قال: أما علمت أنّ الملك إذا ظلم وهمّ بالظلم ذهبت البركة من بلاده، وإذا عدل وهمّ بالعدل كثرت البركة في بلاده؟ فتعجّب الملك من كلامه وعاهد الله تعالى أنّه لا يأخذها، ولا يظلم، فحلبت ثاني يوم مثل ما حلبت أولاً.

حكاية في المعنى

قيل [١٤٨ب] إنّ امرأة كانت بالمغرب، وكانت لها حديقة فيها قصب السكر، وكانت كلّ قصبة منها تعصر قصعة، فعزم الملك على أخذها منها، فلمّا جاء إلى عندها حتّى يشاهدها، عمدت إلى قصبة منها فلم يطلع منها نصف قصعة، فقال لها الملك: أين ما قيل عن قصب حديقتك؟ قالت: هو ما بلغك عنها إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها منّي، فارتفعت منها البركة، قال: فتاب السلطان، وأضمر أنّه ما بقي يأخذها، ثم إنّها عصرت له قصبةً ثانيةً فملأت القصعة، فتعجّب الملك من ذلك واستمرّ يحكم بالعدل.

ويروى أنّه كان في الصعيد نخلة تحمل كلّ سنةٍ نحو العشر أرادبّ تمرٌ فلم يكن في الزمان مثلها، فسمع بها السلطان فأخذها غصباً من أهلها، فلم تعود تحمل بعدها تمرةً واحدةً، وهذا أعجب ما يكون في الدنيا.

وفي هذا الباب أخبار [١٤٩أ] كثيرة، وقد بان بما ذكرناه المقصود، وفي الإشارات ما يغني عن الكلام، وقد قال البستي ما يتعلق بهذا المعنى، وأجاد حيث يقول شعراً:

[الوافر]

إِذَا وُلِيتَ فَاعْمِر مَا تَلِيهِ بعَدْ لِكَ فالإمارَة بالعِمَارَةِ
وَأفضَلُ مُستَشَارٍ كُلَّ وَقتٍ زَمَانكَ فَاقتَبِس مِنهُ الإشَارَة

ثمّ نعود إلى كلامنا.

ثم استهلّ شهر الحجّة، وفي يوم الثلاثاء حادي عشرين الشهر حضر مرسوم السلطان إلى نائب الشام أن يجهز العسكر، ويخرج بهم إلى الفرات، يقعد في وجه العدوّ. وقيل لبعضهم: ما تخرج إلى لقاء العدوّ؟ فقال: والله أنا ما رأيتهم في عمري، ولا رأوني، فمن أين يصيروا أعداء لي؟، ثم إنّ أهل الشام حفظوا بلدهم، وأموالهم، وركبت القضاة وقدّامهم السناجق [١٤٩ب]، والناس، وهم يقرؤوا مرسوم السلطان، ويحرّضوهم على القتال، والتأهب لهذا العدوّ المخذول، وأن السلطان وعسكر مصر جايه، وكان يوماً محتفلاً، وجفلت قلوب الناس وخافوا على أنفسهم فنسأل الله أن يردّ العاقبة إلى خير.

وفي يوم الخميس، خامس عشرين الشهر، حضرت قُصَّاد من عند نائب الرحبة، ومعهم قاصد من عند تمرلنك، ومعهم طيور وفهود، وذكروا قصّاد نائب الرحبة أنّ تمرلنك أرسل هذه الهديّة إلى نائب الرحبة، على أنّه يكون معه، ويضرب الدرهم، والدينار باسمه، وأرسل إليه جماعة فمسكهم، ووسّطهم، وما خلّى منهم إلا هذا الذي معنا، وقد بعثه وبعث الهديّة يخبر السلطان بما قد جرى، وركبوا في الحال وتوجّهوا إلى القاهرة.

وفي تاسع عشرين الشهر أمر نائب الشام أن تُعرض العساكر. ورَسَمَ أيضاً أن يختم على حواصل الشعير الذي [١٥٠أ] للناس، برسم الركاب الشريف، وبقيت الناس في شدّة أمرّ من أيّام منطاش، وقد أجاد الشاعر حيث يقول شعراً: [الطويل]

وَمَا مَرَّ يَوْمٌ أرتَجِي فِيهِ رَاحَةً وَأعتبُهُ إلا بَكَيْتُ عَلَى أمْسِي

والناس معذروين فإنّهم سمعوا ما عمل في بغداد بأهلها، وأنّهم يحرقوا الناس بالنار

حتّى يُحضِروا الأموال، وأن معه طوائف كثيرة، فخافت الناس منه، وأنّه قاصد بلاد الشام. وذكروا أن معه خمسمائة ألف مقاتل، وباعت الناس الغالي بالرخيص، ومُزِّقت أنفس الناس من أمور متواترة، وفتن خَلف بعضها بعض، والأمر كلّه إلى الله تعالى، يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد سبحانه لا إله إلا هو، ربّ العرش العظيم.

سنة ٧٩٦-١٣٩٤

ثمّ استهلّت سنة ستٌ وتسعين وسبعمائة.

اللّهم اجعلها سنةً مباركة على المسلمين، والأسعار [١٥٠ب] فيها رخيصة، والناس في جفلة، وقد عملت عساكر الشام ما يحتاجوا إليه وهم منتظرين ما يَردُّ من السلطان، ووصلت أخبار تمرلنك إلى الشام في هذا الشهر، أنّه قد أخذ سيواس، وأنّه نازل على الرُّها، خافت أهل دمشق أكثر، وأكثر.

ثمّ استهلّ شهر صفر. وفي هذا الشهر حصّنوا القلعة بالستائر وغيرها. وفي هذا الشهر حضر مرسوم على يد بريدي يطلب السلطان أحمد بن أويس إلى القاهرة.

وفي نصف نهار يوم الجمعة دخل السلطان أحمد وطلع نائب الشام، والعساكر جميعها التقوه، ودخل معه من جماعته مقدار خمسمائة نفس، ونزل في القصر الأبلق، والميدان، وتسيبوا في دمشق وهم قوم مفسدين، أكْلُ الحشيش عندهم ليس بعيب، يتظاهروا بالفواحش، وقد جرى عليهم ما جرى وهم ما يرتدوا عن الفواحش، ومقتوهم أهل دمشق على قلّة دينهم، وما سلّط الله تعالى [١٥١أ] عليهم تمرلنك إلا ببعض ما يستحقّوه.

ثمّ إنهم قعدوا في دمشق أيّام، وتوجّهوا إلى القاهرة وطلع معهم شنتمر الخاصّكي، ودخلوا إلى القدس في طريقهم يزوروا فيه ثلاثة أيّام، وقد ذكر لي والي القدس شرف الدين المرجاني- رحمه الله تعالى ـ قال: لمّا دخل السلطان أحمد إلى القدس التقاه نائب القدس الشريف، ودخل إلى القدس وزار، عَملْنا له ما يجب علينا من جميع ما يحتاج إليه، ونحن واقفين في خدمته حتّى رحل، والذي معه لم يشتغلوا بعبادة، ولا صلاة،

لكن مشتغلين بقلّة الدين.

ولقد ذكر أنّه سأل الذي يبيعوا الحشيش: بكَم بعتوهم؟ قال: بألف ومائتين درهم. وهذا أعجب ما يكون. اللهم تب علينا وعليهم!

ثمّ استهلّ شهر ربيع الأول. وفيه وصل الخبر إلى دمشق أنّ السلطان أحمد دخل إلى القاهرة، وكان لدخوله يوماً هائلاً، وخرجت جميع عساكر مصر التقته، ودخل على السلطان فأكرمه، وأحسن [١٥١ب] إليه، وخلع عليه وطيّب قلبه، أنّه يخرج معه بعساكره، ويأخذ بثأره.

مراسلة بين تمرلنك وبرقوق

وفي هذا الشهر وصل من تمرلنك كتاب إلى السلطان الملك الظاهر برقوق، فلّما وصل كتاب تمرلنك إليه وقرأه كاتب السرّ عليه، وجد فيه مكتوباً:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٤٦﴾ [الزمر: ٤٦].

اعلموا أنّنا جند الله خلقنا من سخطه، وسلّطنا على من حلّ عليه غضبه، لا نرقّ لشاكي، ولا نرحم عَبْرَةَ باكي، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل كل الويل لمن لم يكن من حزبنا، قد خرّبنا البلاد، ويتَّمْنَا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد. خيولنا سوابق، ورماحنا خوارق، وسهامنا موارق، وسيوفنا سواحق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، مَن رامنا سَلم، ومن نال حربنا ندَم، فمُلكنا لا يُرام، وجارنا لا يُضام، فإن أنتم قبلتم شرطنا، وأطعتم أمرنا، كان لكم مالنا، وعليكم ما علينا. فالحصون [١٥٢أ] من أيدينا لا تمنع، والعساكر للقائنا لا تَرُدُّ، ولا تنفع، ودعاكم علينا لا يستجاب، ولا يسمع، لأنّكم أكلتم الحرام، وارتكبتم الآثام، وضيعتم الجُمعَ، وغرقتم في الطَّمع، وسلكتم في طريق البغي، والعدوان، فأبشروا بالمذلّة، والهوان ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ۝٢٠﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقد ثبت عندكم إنّنا كفرة، وقد ثبت عندنا أنكم فجرة، وقد غرّتكم الدنيا فكثيركم عندنا قليل، فنحن ملوك الأرض شرقاً وغرباً ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبًا ٧٩﴾ [الكهف: ٧٩].

وقد أوضحنا لكم طرائق الصواب، فأسرعوا لنا بالجواب من قبل أن نكشف الغطاء، ويقع الضرب، والشطا، وتوقِدُ الحرب نارها، وترمي عليكم شرارها، وما يبقى لكم باقية، ينادي عليكم منادي الفنا، ويلحقكم الويل، والعنا، وقد أنصفناكم إذا راسلناكم، ونثرنا لكم جواهر هذا الكلام، والسلام!.

فلما قُرئ هذا الكتاب على السلطان [١٥٢ب] الملك الظاهر برقوق، أمر في الحال أن يكتب لهم جواب كتابهم، فكتب الكتاب وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة، والتسليم على سيد المرسلين: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران]، والصلاة، والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى أصحابه وآله، وأهل بيته وسلّم يا رب تسليماً كثيراً!.

أمّا بعد، فقد وقفنا على كتاب مخبرٍ عن الحضرة اليلخانية، والمملكة المعظمية السلطانية، تقولون أنّكم مخلوقون من سخطه، مسلّطون على من حلّ عليه غضبه، لا ترقّون لشاكي، ولا ترحمون باكي، قد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فقولكم من أقبح عيوبكم، وهذه الشهادة من صفات الشياطين، لا من صفة السلاطين، وكفى بهذه الشهادة لكم وعظاً، وبما وصفتم به أنفسكم مرضاً، وفي كلّ كتاب لُعنتم، وبكلّ قبيح وُصفتم، وعلى لسان كلّ رسول ذكرتم، وعندنا خبركم، من حين خلقتم، وزعمتم أنكم الكفرة ﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة: ٨٩].

ومن تمسك بالأصول، لا يبالي بالفروع، فنحن المؤمنين حقاً [١٥٣أ]، والقائلين صدقاً، لا يدخلنا عيب، ولا يصدّنا ريب، القرآن على نبيّنا نَزَل، تحقّقنا تنزيله، وعلمنا

تأويله، وإنّما النار لكم خلقت، والجحيم لكم سُعِّرت، وأعجب العجب تهديد الرتوت[1] بالتُوت، والسباع بالضباع، فنحن خيولنا إفريقية، وسيوفنا يمانية، ورماحنا خطّية، وسهامنا خلنجية[2]، وزردياتنا[3] داودية، وخوذنا عادية، وقرقلاتنا[4] حديد، وبأسنا شديد، وأكتافنا قوية المضارب، ووصفنا في المشارق، والمغارب. إن قتلناكم فنعم البضاعة، وإن قَتلنا فبينا وبين الجنة ساعة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وأمّا قولكم قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، القَصَّاب لا يبالي من كثرة الغنم ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]. إن عشنا عشنا سعداءً، وإن متنا متنا شهداء ألا ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٦]

ولقد جئتم شيئاً ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ٩٠] وهذا جوابكم، والسلام، والحمد لله رب العالمين.

ثمّ ختمه وبعثه مع الذي جاء بالكتاب [١٥٣ب]، فلّما وصل إلى تمرلنك هذا الكتاب، انفتح للشر أبواب، وأظهر المكر، والدّهاء، حتّى فتح الرُّها، وأخذ أموالها، وسبى حريمها، وأشعل جمرة الخامد، حتّى ملك رأس العين وآمد، وأخذ مدينة ماردين، وخرجوا أهلها شاردين، وفعل في بلاد العراق، ما تفعله النار في الحراق، ويخشى تمرلنك اللعين أن يدخل بلاد الشام، أو ينال منها ما قصد ورام، ولو دخلها أهلكه الله تعالى، فإنّها مقرّ الأنبياء ومدينة الأولياء، ما قصدها جبّار إلا قصمه الله تعالى.

وتصديق هذا أن سالم كان عاملاً عليها من جهة المتوكل على الله، وكان ظالماً، فوثبوا

---

(١) الرتوت: الرت: الرئيس من الرجال، وقيل نوع من الخنازير، اللسان (رتت).

(٢) نسبة إلى خشب الخلنج القاسي.

(٣) الزرديات: الدروع.

(٤) القرقل: درع يتخذ من صفائح الحديد، صبح الأعشى ٢/ ١٤٣، ٤/ ١١، بدائع الزهور ٣/ ١٦.

عليه أهل دمشق وقتلوه، فلمّا بلغ ذلك المتوكل قال: من للشام يكون مثل الحجاج في ظلمه؟ فقيل له: أفريدون التركي؟ فولاه أمر دمشق، وأباح له القتل فيها يوماً إلى ارتفاع الشمس، فخرج إليها في سبعة آلاف فارس، وأباح له نهبها فجاء، ونزل بقرية بيت لهيا[1]، ولمّا أصبح قال: يا دمشق، يا ما يَحِلّ بكي مني اليوم!، وأضمر لها كل شر، ثم إنّه دعا ببغلةٍ له دهماء حتّى [١٥٤أ] يركبها، فلمّا وضع رجله في الركاب ضربته بالجوز[2] على فؤاده فسقط ميتاً، لا رحمه الله، وقبره معروف في بيت لهيا، ورجع من كان معه إلى العراق خائبين. فهذا تصديق الحديث وهذا عجيب.

فضائل دمشق، والشام

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه، أن رجلاً جاء إلى النبي (ﷺ) فقال: إني أريد أن أغزو، فقال: **«عليك بالشام فإن الله تعالى تكفّل لي بالشام، وأهلها»**[3].

وعن خريم بن فاتك الأسدي، أنّه سمع رسول الله (ﷺ)، يقول: **«أهل الشام سوط الله في أرضه، ينتقم بهم ممن يشاء»**[4].

فإذا كانت هذه مناقبها وفضائها، وقد وردت فيها هذه الأحاديث وغيرها عن النبي (ﷺ)، وقد ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز في قوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الاسراء: ١]

---

(١) بيت لهيا: من قرى غوطة دمشق.

(٢) الجوز: يقصد به رفسته برجليها الاثنتين، ومن عادة الدواب الرفس برجل واحدة، وفي حالات نادرة تضرب برجليها الأثنتين، وفي الأصل: بالزوج.

(٣) ورد الحديث في: المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٩٢، كنز العمال للمتقي الهندي ٣٨٢٣٩، ٣٨٢٤٨، الكنى والأسماء للدولابي ٢/ ٧٢، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٣١، اللآلئ المصنوعة للسيوطي ١/ ٢٤٠.

(٤) ورد الحديث في: المعجم الكبير للطبراني ٤/ ٢٤٩، مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٦٠، الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٦٣، كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٣٠٦، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٦٠، كنز العمال للمتقي الهندي ٣٥٠١٤، السلسلة الضعيفة للألباني ١٣.

وقد صحّ عند العلماء أنّ الشام من الأرض المقدّسة وقال فرات القزّاز: سمعت الحسن يقول في قوله تعالى: ﴿ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣٧] قال هي مشارق الشام ومغاربها.

وروى مالك عن زيد بن أسلم (التي باركنا فيها) قال: هي قرى الشام.، وكذلك قال سفيان، والسدّي وغيرهم.

وعن أبي أمامة أن النبي (ﷺ) تلا هذه الآية: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ۝﴾ [المؤمنون: ٥٠].

قال: هل تدرون أين هي؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هي بالشام بأرض يقال لها الغوطة بمدينة دمشق، وهي خير مدائن الشام.

وكذلك روى عكرمة عن ابن عباس قال: هي دمشق. وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: لا تسبوا أهل الشام فإنهم جند الله المقدّم.

وفضائل دمشق كثيرة، ومناقبها جليلة، ولو دخل تمرلنك إلى دمشق في هذا الزمان، كان أهلكه الله تعالى كما أهلك من قبله قازان، لكّنه كما قال فيه بعضهم موّاليا:

قَتَل تَمرلَنك أهل العِلم في الأسفَارْ
وَزَادَ بغيُه وحَقّ الوَاحد الغَفَّارْ
أَتَى بأقوَامٍ أكثرهمُ مِنَ الكُفَّارْ
مَا [١٥٥أ] ظَنَّ ذا الكلَب دَمُهُ قَطُّ إلا فَارْ

أو كما قال الشيخ شهاب الدين الحريري شعراً: [البسيط]

مَا صَدَّقَ النَّاسُ حَتَّى أُخمِدَت فِتَنٌ ... في الحَربِ ما بَينَ بَرْقُوقٍ ومَنطَاشِ
ظَهَرْ تَمِرلنك في جيَشٍ كَثير غَدَوا ... مُجمَّعِين مِنَ الأطرْافِ أوبَاشِي

أو كما قال مؤلّفه، عفا الله تعالى عنه، موّاليّا:

قَتَل تَمرلنك في بَغدَاد للأشْرَافْ

وزَادَ بَغيُــــــه، وأسْرَف غَايــــــة الإسرَافْ
وَقَــد قَصَــدَ أَخــذ مُلــك الشّــام، والأعــرَافْ
بِحَاشـــيَةَ مِـــن بِــلادِهْ كُلُّهُــم أطــرَافْ

رحلة برقوق إلى الشام

وقد ذكرنا هذا الفصل على وجه الاختصار كيلا يطول الكلام، ثم نعود إلى كلامنا، ثم إنّ السلطان الملك برقوق فرّق على مماليكه الخيول، والسلاح، وعلم الأمراء أنهم يتهيؤوا للرواح، وركب السلطان في جيوشه، وأعوانه، والخليفة أمير [١٥٥ب] المؤمنين أمامه، وسار في الجيوش، والجحافل، والصوارم، والعوامل، والبركستوانات[1] السوابل، والصوارم، والرماح، والجنائب، والسلاح، والخوذ، والزرديات، والقراقل المثمنات، والترك قد تنوعوا في الملابس، كأنهم أسودٌ عوابس، قد ركبوا السوابق العربية، وأخلصوا إلى الله تعالى النية، وذوائب العصائب تخفق، ولسان النصر ينطق، وجيوش قد سدّت القفار، كأنهم شعلة نار، تُكاثِرُ النجوم بعددها، وتبهر العيون بحسن ملابسها.

وسار مولانا السلطان، أوحَد ملوك الزمان، بعسكره المنصور، وسعيه المشكور. وطلع في ركابه الشريف السلطان أحمد مسرور، وأيقن أنه على عدوّه تمرلنك منصور، وقصد السلطان بلاد الشام، وطَيْرُ عزّه فوق رأسه قد حام، والأكوام تبتهج لمسيره، وتشكر حسن ثنائه وتأثيره، وانسرّت لقدومه الأكوان، وتمايلت فرحاً به الأغصان.

وكان أن يسعى إلى تقبيل الأرض بين يديه القصر، والميدان، وغنّت الأطيار، وصفقت الأنهار، وتضوّع عَرْفُ الأزهار، وانتشرت البشرى [١٥٦أ] في الأقطار، وتزخرفت القلعة وانجلت، وأعرضت في أحسن حلةٍ وتبدّت، وأظهرت سلطان منعتها، وأبدت للعيون حسن زينتّها، وافتخرت على القلاع، والثغور، وابتهجت حتّى

---

(١) البركستونات: سروج الخيل والفيلة وتكون مزركشة مصطلحات صبح الأعشى ص ٦٣.

لاح على وجه أسوارها السرور، وتلقته الرعايا مبتهلين، ولجوده، وإحسانه شاكرين، ووصلت أخبار السلطان أنّه في الغور، وطلع نائب الشام وعساكر الشام فور بعد فور، وطالعوا الفواكه، والحلاوات إليه، وقبّلوا الأرض بين يديه.

ودخل السلطان إلى دمشق على عادة الملوك، وعدوّه بغبنه مضنوك، وكان دخوله يوم الاثنين حادي عشرين جمادى الأولى من السنة المذكورة، ودخلت الأمراء قدّامه، والسطان أحمد بن أويس أمامه، وقد بسطوا له الشقق الحرير تحت حوافر جواده، والشموع توقد حوله وقدّامه، وأيتمش حامل القبّة، والطير على رأسه، والبشائر تدقّ، والمغاني، والناس ترقص فرحاً من التهاني، ودخل إلى القلعة في أشرف ساعةٍ، وأحسن طلعة، وجلس على سرير ملكه، وقد انتظمت عقود سلكه، ولمّا جلس على سرير الملك، وأظهر سطوته الشديدة [١٥٦ب] امتدحه شمس الدين الزرخوني بهذه القصيدة وهي:

[البسيط]

دَعْ مَدْحَ غَانِيَةٍ تُسْبِيكَ بِالشِّعْرِ ... وَامدح مَليكَ الوَرى بَرقُوقَ بالشِّعْرِ

المَالِكُ [٩٥أ] الظَّاهِرُ المَشكُورُ سِيْرَتَهُ ... أبُو سَعيدِ الَّذي قَد خُصَّ بِالنَّصْرِ

زَيْنُ المُلُوكِ وَعَينُ الملكِ أفرَسُ مَن ... صَادَ العُدَاةَ بِرَأيِ الرُمْحِ في القِفْرِ

الحُكْمُ بِالحِلْمِ، والإحسَان شِيْمَتُهُ ... والجِدُّ، والجُودُ، والإنعَامُ بِالبِرِي

سَلْ شَقْحَبَا عَن حُرُوْبٍ كَان وَاقدُهَا ... شَرَارُهَا الشَّر إذْ تَرمِيه كَالقَصْرِ

وَابنُ بَاكِيش سَلْهُ عَن وَقائعه ... وَسَلْ لمنطَاش ذَاكَ المُدْبرِ العَفْرِ

وَسَلْ جُيُوش دِمَشْق الكُلَّ أهزَمَهُمْ ... وَرَدَّ حبراً لَهُمْ بِالسَّيفِ في كَسْرِ

وَشَكَّ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ قَلْبَ عَسْكَرِهِمْ ... نعم وَقصَّ الجَنَاحَين الَّذي تَسْري

كَذَاكَ جِبْرِيلُ لَما جَاءَ يَطلُبه ... أتَاهُ عِزْزِيلُ أفنَاهُ عَلَى الأثرِ

مُحمدٌ [٩٥ب] شَاه فِيهِ صَيَّرَه ... مِن حُسْنِ سيرَتِهِ في الكَرِّ، واليَسْرِ

يَقُدُّ بِالقُضبِ مَنظُومَ الدُّرُوعِ كَما قَهْراً يَرُدُّ بِهِ الهَامَاتِ فِي نَثْرِ
لَيثُ المَعَامِعِ عَبسِيٌّ لِعَبسَتِهِ تَضَاحكَ البِيض بَلْ تَبكِينَ بِالحُمْرِ
قَيْلٌ إذا جَالَ كَانَ النَّصْر يَخْدُمُهُ غَيثٌ إذَا جَادَ عَمَّ القُطْرَ بِالقَطْرِ
يُمنَاهُ بِالعينِ لا نَهرٍ، ولا سَاءَمٍ كَالسَّيْلِ مِن بِرّهِ نَابِتٌ عَن البَحرِ
وَحِينَ نَالَ الوَفَا مِن نَيْلِ خَالِقِهِ وَأكسرَ النَاصِري الأَصْلَ في الشَرِّ
وَجَاءَ مِنطَاشُ فِي ذُلٍ وَفي نَكَدٍ مَقطُوعَةٍ رَأسَهِ بِالذُلِ، والنَّحْرِ
كَم مِن عَرَائِسَ مُدْنٍ مرَّ خَاطِبُهَا مِن غَيْرِ مَهْرٍ لَهَا لكَن عَلى مُهْرِ
كُلُّ المُلوكَ أَتَتْ أَبْوابَ قَلعَتِهِ يَستَنْجِدُونَ بِهِ في مُعظَمِ الأَمْرِ
أَتَى لَهُ أَحْمَدُ السُّلطَان مُنهَزِماً في بَعضِ جُنْدٍ لَهُ يَشكُو مِنَ القَهْرِ
أَعَانَهُ [٩٦أ]، ثم بِالفُرْسَانِ أَنجَدَهُ وَقَالَ طِبْ سَوْفَ يَأتي الله بِاليُسْرِ
وَأَعْرَضَ التُرْكَ في البَرْكِ الَّذي دَخَرُوا مِن السلاَحِ وَجِيد الخَيلِ مِن دَهْرِ
فَأقبَلُوا مِثْلَ عَادَاتٍ لَهُمْ أبداً عَلَى خُيُولٍ تَفُوقُ البَرْقَ إذ تَجْرِي
عَلَيْهِمُ كُلُّ دِرْعٍ كالدِّرَاعِ قَباً مِنَ الحديدِ عَلَيهِ أحرَفَ النَّصْرِ
مُسَرْبَلِينَ بِقُمْصَانٍ لَهُمْ زَرَدٌ مِن نَسْجِ دَاوُدٍ زُهْرٍ مِن عَلَى زَهْرِ
ورَكَّبُوا البِيْضَ في هَامَاتِهِم حَذراً وَأمسَكُوا البيضَ لَمَّا سَرَّحُوا السُّمْرِ
وَكُلّ تُركِي يُحَاكِي الشَّمسَ إذْ بَزَغَتْ لَمَعاً وَفي الدُّورِ تَحكي دَارَةَ البَدْرِ
وَكَم دَبَابِيْسَ مُلْءُ العَينِ تُصْبِحهُم وَكَم حِرَاب خَرَابَ العُمرِ إذْ تَسْرِي
وَافَوا صُفُوفاً وَرَبُّ العَرشِ يَحْرُسُهُم مِنَ التَغَابُنِ بَينَ النَّاسِ للحَشْرِ
وَعَايَنَتْ أَهْلُ بَغدَادٍ وَمَالِكُهُم ملكاً فَلا يَنْبَغي للعَينِ في العُمرِ
وَقَالَ قَائلهُمْ يَا جَبرَ كَسْرَتِنَا وَالأَخْذَ بِالثَّار بالبَتَّارِ في الإِثْرِ

ثُــمَّ اطَمأنــتْ نُفُــوسُ القَــومِ حــيْنَ رَأَوْا مَسِــيرَ عَسْــكَرِهِ للشَّــامِ مِــنْ مِصْرِ
هــذَا هُــوَ المِلِـكُ المَنْدُوب أشْـجَعُ مَـنْ جَـرَّ الرِّمَـاحِ لِطَعْـنِ الظَّهْـرِ، والصَّـدْرِ
يَــارَبِّ أنْصُرْهُ وَابْصِرْهُ بِعَــينِ رِضَــا وَغِثْـهُ عِنْـدَ وُقُــوعِ الـعُسْرِ بِــاليُسْرِ

ثمّ [١٥٧أ] دخل بعد دخوله إلى القلعة الخيول، والأطلاب، حتّى أذهلت الألباب، وتفرّقوا في المدينة برّاها وجوّاها، في البيوت، والقاعات، والأساطيل، والخانات.

ونزل السلطان أحمد في القصر، والميدان، وضّيقوا المصريين على أهل دمشق في مساكنهم، وتسلّطوا عليهم بالأذى، وأخذ أشيائهم، وإن تكلّموا نهروهم، وبقت الناس معهم في ضيقة، والسلام.

وأهل دمشق عندهم مناحيس مناطشة، وأهل مصر يبغضوا أهل دمشق من قبل هذه الواقعة، ويحبّوا الحلبيين، وما ذاك إلا حسد وغيرة بحسن [١٥٧ب] مدينتهم ولطافتهم، وحسنِ ملابسهم، وما يتعانوه من الصنائع الملاح، فإنّ على أهل دمشق تروح الأرواح.

مدح دمشق

وقد قال بعضهم: عجبت لمن يجمع في دمشق مال، فإن دمشق معشوقة، والمعشوق يأخذ ما يعطي. وهذا عجيب، والحلبيين أيضاً يكرهوا أهل دمشق. وسبب ذلك وحَسدهم لأن حلب ومصر أطراف، والشام واسطة العقد، كما قال بعضهم شعراً: [الرجز]

لَهَــا مَعَــانِ بِــالعُقُولِ تَلْعَــبْ مَــن رَامَ يَحْكِيهَــا فَــذاكَ أَشْــعَبْ

وأمّا الشعراء الذين وصفوا دمشق ومحاسنها، فذلك شيء لا ينحصر من المتقدّمين، والمتأخّرين، فمنهم حسّان بن ثابت الأنصاري، رضي الله عنه، فإنّه قد مدحها بقصيدته التي منها حيث يقول(١): [الكامل]

---

(١) ديوان حسان ص ٧٤.

لله دَرُّ عِصَابَةٍ نَادَمْتُهمْ يَوماً بِجلّقٍ في الزَّمَانِ الأوَّل
يَغشُونَ حَتىَ ما تَهِرُّ كِلابُهُم ولا يَسْألونَ عَنِ السَّوَادِ المُقْبِلِ

ومدحها من المتأخّرين الشيخ زين الدين ابن الوردي يقول شعراً: [السريع]

دِمَشْقُ [١٥٨أ] قُل ما شِئتَ في وَصْفِهَا واحْكي عَنِ الرَّبْوةِ ما تَحْكِي
فَالطَّيْرُ قَد غَنَّى عَلىَ عُودِهَا في الرَّوضِ بَيْنَ الدُّفِ، والجنْكِي

وقال ابن لؤلؤ الذهبي يصفها حيث يقول: [الكامل]

أرَأيتَ وَادي النَّيرَ بَينَ فَمَاؤُهُ يُبْدِي لِنَاظِركَ العَجِيْبَ الأعجبَا
يَتكَسَّرُ الماءُ الزُّلالُ على الحَصَى فإذا غَدَا بَينَ الرِيَاضِ تَشَعَّبَا

وقال بعضهم، وأجاد حيث يقول: [الطويل]

رَعَى اللهُ وَادِي رَبْوةِ الدَّهرِ إنَّهُ بِمَشْرِقَةَ الأقْمارِ تَبدُو وتَطلَعُوا
فَلَوْ لم يَكُن وَادي دِمشَق مُقَدّسٌ لَمَا كَانَ مَن يَأتِيه نَعلَيهِ يَخلَعُ

وقد قال صدر الدين ابن الوكيل يصفها: [الكامل]

وَمَنَازِل بالنيربَينِ عَهِدتُهَا تُهدِي إليكَ الرُّوحَ، والرّيحَانُ
يَا مَن يَقيسُ بِهَا مَنَازِل غَيرِهَا هَا دُونَكَ الشَقْراءُ، والمَيْدَانُ

وقد قال أيضاً فيها جمال الدين بن نباته: [الرجز]

لله يوماً لِي بوَادي جِلّقِ وتَنَزُّهِي مَع ذَا الغَزال الحَالي
مِنْ أوْل الجَبْهةِ قَبَّلتهُ مُرْتَشِفاً لآخر الخَلخَالِ

وقد مدحها ابن المعمار المصري وهذا يكفاها افتخار، وقد [١٥٨ب] ذكرناه في هذا الكتاب في غير هذا الموضع، وقال مؤلّفه مواليًّا، عفا الله تعالى عنه:

لِكْ يَا دِمشقُ شَرَفْ عَالي وَشَهرْ الصَّومْ
ونَيْربَينَ وَرَبْوةٍ عَالِيه في السَّوْم

وَحُسْـنُ جَبْهِـهِ وَلِـكَ خَلْخَـالُ يَسْـبِي دَوْم
وَتَحْـتَ قَلْعَـةٍ وَجَـامِعِ كَـم جَمَـعَ مِـنْ قَـوَمْ

ومدحها خلق كثير، وقد ذكرنا أحسنه خوفاً أن يطول الكلام، وأكتب المختصر، وفي هذا كفاية، والسلام.

مكث السلطان في دمشق

ثمّ نعود إلى كلامنا. ولمّا استقرّ السلطان الملك الظاهر في القلعة المحروسة بعد يومين، رسم أن يسيروا الخيول الذي ليس لهم بها حاجة إلى المرج، وكذلك الجمال إلى الغور، وأنّه مقيم في دمشق حتى يكشف أخبار تمرلنك قبحه الله تعالى، وقد أرسل القُصّاد في كشف الأخبار.

وفي يوم الجمعة نزل السلطان من القلعة، والأمراء في خدمته وصلّى في الجامع الأموي، وأشعلوا له الشموع وصلّى في المقصورة وَرُدّ إلى القلعة وبقي كلّ وقت يركبْ [١٥٩أ]، وينزل، يسير إلى ظاهر المدينة وتركب الأمراء في خدمته، والسلطان أحمد معهم يركب في خدمته، ويستجيربه، ولمن صحّ هذا من الملوك المتقدّمة؟ وبقت أهل دمشق يتفرّجوا على ركوب السلطان ونزوله، ويدعوا له يفرحوا به.

ثمّ استهلّ شهر جمادى الآخرة. وفي عاشر الشهر خلع السلطان على قاضي القضاة الباعوني باستمراره، وجاءت نوّاب البلاد إلى مولانا السلطان يقّبلوا أياديه الكريمة. ولمّا وصل جلبان نائب حلب إلى دمشق وطلع إليه وقبّل الأرض بين يديه، وأنشد لسان حاله يقول شعراً: [البسيط]

قَـدْ زَادَ شَـوْقِي وحَـقّ الله يـا سَـنَدِي إلى مُحَيَّـاكَ يـا سـمَعِي، ويـا بَصَرِي
وكُـلُّ يَـوْمٍ مَضَى إنْ لَمْ أرَاكَ بِـهِ فَلَسْتُ أحسُبُ ذَاكَ اليَوْمَ من عُمْرِي

فترحب به وزَاد إكرامه، وخلع عليه وزاد إنعامه، وردّه إلى بلده، وأوعده بكلّ خيرٍ فرُدّ إلى حلب سريعاً، وقد جدّ في السير، وتواترت [١٥٩ب] الأخبار في دمشق أن

تمرلنك أخذ ماردين، فخاف في دمشق الغني، والمسكين، فنسأل الله أن يردّ العاقبه إلى خير يا ربّ العالمين.

ثمّ استهلّ شهر رجب، وفي هذا الشهر حضر سالم الدوكاري أمير التركمان، وجاب معه التقادم، والهدايا، وطلع إلى بين يدي السلطان، وقبّل الأرض بين يديه، وقدم التقادم فخلع عليه السلطان بنيابة جعبر، فإنّها على جانب الفرات، ورُد إلى نيابته.

وفي هذا الشهر دار المحمل على عادته، وأقلّ من عادته، وقالوا الناس إنّه يدور مليح حتّى يتفرج عليه السلطان، واحتفلت لفرجته الناس وطلع خلاف ما قاسوا عليه، وبقيت الناس متعجّبين، فإنّ الناس ما كانوا منشرحين من جهة تمرلنك، وأخباره.

وفي هذا الشهر عزل قاضي القضاة الباعوني وتولّى عوضه قاضي القضاة علاء الدين ابن أبي البقاء، فإنّه أهلها كما كان أخوه ولي الدين قاضي قضاة الشام، فإنّه من أكابر الناس، ويعرف أهل دمشق، وأحوالهم، وطيّ الجَنَبَة، كريم الكف، سمح النفس، يعطي الفقير، ويجبر الكسير، ويحب الفقراء، ويجيز الشعراء، ماله في الكون نظير [١٦٠أ]، كما قال فيه لسان التقصير، وأجَاد حيث يقول شعراً: [الكامل]

يَا وَاحِدَ النَّاسِ الَّذِي أَضْحَى ولَيْسَ لَهُ نَظِيرُ
لَوْ كَانَ مِثْلُكَ فِي الوَرى مَا كَانَ فِي الدُنيا فَقِيرُ

وفي هذا الشهر تولّى، والي الولاة أرغون مملوك السلطان، وطلع إلى البلاد القبليّة، وأخربها في آخر ولايته، فإنّه كان ظالم.

عودة السلطان أحمد إلى بغداد

ثمّ استهلّ شهر شعبان من السنة المذكورة. وفي هذا الشهر وصلت الأخبار إلى مولانا السلطان، أنّ تمرلنك المذموم خرج من بلاد بغداد إلى بلاد الروم إلى مدينة يقال لها أرزنكسَان، وخلّى في بغداد واحد من جهته، وأرسلوا أصحاب السلطان أحمد بن أويس يقولوا له: إنّك تقوم تجيء فإنّه قد اجتمع على الفرات من جماعتك خلق كثير

ينتظرونك، حتى يدخلوا معك إلى بغداد، وتأخذها من نائب تمرلنك. فعند ذلك رسم السلطان الملك الظاهر برقوق للسلطان أحمد بالمسير إلى بلاده، وأرسل معه شنتمر الخاصكي أمير طبلخانة، وأعطاه [١٦٠ب] السلطان خيل، وقماش، وعدد، وسلاح، وخلع عليه خلعةً هائلة، وودعه وطلعت الأمراء معه ودّعوه، ونزل على سطح برزة.

وكان يوم السبت ثالث عشرين الشهر ونادى السلطان في الشام على الأعاجم: أي من تخلّف في دمشق عن المسير مع السلطان أحمد راحت روحه بلا معاودة. وقال له السلطان برقوق: أيش ما جرى لك في الطريق ابعث عرفني فإني في دمشق قاعد حتى تعبر إلى مدينتك بغداد، وتجلس على سرير ملكك، ولا تدخل إلى حلب، وروح على البريّة على القريتين إلى الرحبة. فعند ذلك ركب السلطان أحمد ومن معه على برزة يوم الاثنين طالب بلاده.

ثمّ استهلّ شهر رمضان المعظّم يوم الثلاثاء، وأمّا مماليك السلطان فإنّها طال عليهم المقام في دمشق، وفرغت نفقاتهم، وأكثرهم في سكر، وقحاب، وغير ذلك، فمنهم من باع خيله، ومنهم من باع قماشه، وانكشفت أحوالهم، وجرى لهم كما قال المثل (عديم، ووقع في سلة تين). وتهتّكوا في دمشق غاية التهتّك، وقد قال [١٦١أ] الصادق المصدوق: (إذا لم تستحي فاصنع ما شئت).، وأكثرهم تغيّر عليه الماء، والهواء، فضعف منهم خلق كثير، ومات منهم جماعة، وحصل للناس ضرر كثير من مماليك السلطان وغيرهم، فإنّهم بقوا يطلعوا، وأي من تكلّم قتلوه، اللّهم فرج عن المسلمين.

وفي سابع عشرين الشهر توفّي مشدّ شربخانة السلطان، وكان أمير مائة، مقّدم ألف، وخرج له جنازة كبيرة، وفقد من مماليك السلطان ناس كثير، وبلعتهم دمشق، والسلطان الملك الظاهر في القلعة المحروسة في أكل وشرب، وهدايا وتقادم وانشراح، والعدّو المخذول قد راح صوب بلاد الروم، واطمأنت قلوب الناس، وطابت قلوبهم، وباعت الناس واشتروا على المصريين ولطف الله تعالى بعباده.

ثم استهلّ شهر شوّال من السنة المذكورة، وصلّى السلطان صلاة العيد في الميدان

الصغير، وفرحت الناس ودقّت البشائر، والناس يتفرّجوا على السلطان، ورُدّ إلى القلعة، والجيش كلّهم ماشين قدّامهْ [١٦١ب]، وطلع من باب السرّ، فسبحان مالك الملوك لا إله إلا هو.

وفي عاشر الشهر فرّق السلطانِ الجمال على المماليك للسفر.

وفي ثاني عشر خلع السلطان على الهيذباني بنيابة القلعة ورسم السلطان أن يبرزوا الخام إلى برزة، فنصب خام السلطان في برزة، وخرج السلطان بجيوشه المنصورة من دمشق، ونزل على برزة، وطلعت خلفه الأطلاب تنجر خلف بعضها بعض. ورحل المحمل من دمشق، وأمير الركب أخو الرنبكي التركماني، وكان ركب قليل. وخلّى السلطان في دمشق نائب الشام تنبك الظاهري لم يأخذه معه إلى حلب.

وفي عشرين الشهر توفّي كاتب السرّ ابن فضل الله، ولّما وصل السلطان إلى حلب فرحت به أهل حلب، وأشعلوا له الشموع، وكان لدخوله يوماً مشهوداً، ونزل في قلعة، وأحسن إلى نائبها، وأنشد لسان حاله بين يديه شعراً: [الكامل]

يَا مَلِكاً قَد فَاقَ في السَّعدِ مَجدهُ ... فَمَحَلُّهُ فَوقَ السُّهَا، والفَرْقدِ

أفنَيتَ [١٦٢أ] مَن عَادَاكَ في يومِ الوَغا ... والخَيلُ تَعثُر في الوشيج الأمدِ

مَلِكٌ تَفَرَّدَ بالشجَاعة، والسَّخَا ... فلِذالكَ ما يُوليِه غَيرَ مُنكَّدِ

الظَّاهِرُ المنصُورُ دَامَ مُؤيداً ... يَفنِي العِدَى بمُثَقَّفٍ ومُهَنَّدِ

وأقام السلطان في حلب حتّى كشف أحوال تلك البلاد، والقلاع، والحصون وعمل مصالحهم، ووصل إليه خبر السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد أنّه دخل إلى بغداد، وجلس على سرير ملكه على عادته، وأن الذي كان فيها من جهة تمرلنك فرَّ منها، ورُدّت أهل بغداد إليها، وطابت قلوب أهلها، وفرح السلطان بدخول السلطان أحمد إلى بغداد، لكون أنّه قام معه، لكنّه ما يفلح فإنّه مؤذي ظالم، قليل الدين، وما هذه شيمة الملوك، ولا يعتبر بما جرى عليه، ولا يحمد الله تعالى على رجوع الملك إليه.

وقد ذكر لي إنسان من بغداد جاء إلى دمشق، أنّ السلطان أحمد لمّا دخل ما يجيء منه جيّد، حتّى ذكروا أن الذي كان فيها من جهة تمرلنك أنّه [١٦٢ب] أجود منه كان في حق أهل بغداد، وبقوا يتأسّفُوا عليه.

وذكر أن إنسان كبير وجد مصحف للسلطان أحمد من الذي نهبت له في أيّام تمرلنك، فأراد الرجل يعمل حشمة وردّ المصحف إليه، فلمّا أبصره قال للرجل:، وأين الكتب التي كانت مع المصحف؟ قال: هذا وجدته مع بعض الناس وفيه اسم السلطان أحمد فشريته وجبته إليك تقرباً لخاطرك. قال له: ما أعرف ما تقول، أريد الكتب الذي كانت معه كلّهم، وإلا قتلتك. فطلع الرجل حائر، وقد وقع في يد هذا الظالم ولم يُسَيِّبُهُ حتى أخذ منه خمسين ألف درهم. فإنّه كان من كبار الناس فبهذا سادت الملوك ولم يعود أحد يردّ عليه شيء، وهذا من نحس تدبيره.

ثمّ استهلّ شهر القعدة. وفي يوم السبت سافر نائب الشام بعساكره دمشق إلى البلاد القبلية من شان العرب، فإنّهم بقوا يؤذوا الناس، ويشعثوا في البلاد على الفلاحين وغيرهم. فلمّا طلع النائب راحت العرب، وحصل للناس خير كثير بطلوعه، وقعد [١٦٣أ] برا حتى شالت الناس مغلاتهم، ورُدّ إلى المدينة. ودخلت العساكر، وأشعلوا له الشمع على عادة النوّاب.

وأمّا السلطان، فإنّه في حلب مقيم، أقام بها شهر القعدة، والحجّة، ونوَّاب القلاع تبعث إليه الهدايا، والتقادم، وغيرها. ولم يصل أحد من الملوك الذي للترك إلى حلب، غير الملك الظاهر بيبرس ـ رحمه الله تعالى ـ وطلع من حلب وقطع الفرات إلى التتار، وهلك من الجيش كثير في الفرات، فإنّها كانت زائدة، وقطع السلطان الفرات فما أمكن أحداً يتخلّف، وأرموا الناس خلفه أنفسهم فهلك من هلك ونجا من نجا. ولم يكن ذلك رأياً مباركاً وندم على ذلك، لكنّه كسر التتار قاطع الفرات، وما خاب مقصده ولله الحمد.

والظاهر برقوق وصل إلى حلب ولو كان على الفرات العدوّ كان فعل كما فعل

الظاهر بيبرس، فإنّ همته عالية- أدام الله تعالى أيّامه ـ ولم يسمّى أحد من الترك الظاهر غير بيبرس وبرقوق، ولا وصل أحد من الملوك إلى حلب غيرهم، وهذا اتفاق عجيب. وردّ السلطان من حلب بعساكره في خير وسلامة ولله [١٦٣ب] الحمد.

سنة ٧٩٧/٩٥ ـ ١٣٩٤ ـ عودة برقوق إلى القاهرة

ثمّ استهلّت سنة سبع وتسعين وسبعمائة وتواترت الأخبار بمجيء السلطان من حلب إلى الشام، وطلعت الناس إليه بالحلاوات، والفواكه، وطلع نائب الشام يلتقي السلطان وعسكر الشام.

وفي ثالث عشر شهر المحرّم دخل السلطان إلى دمشق من حلب، وأشعلوا له الشموع ودقّت البشائر وفرحت الناس، ودخل إلى القلعة وجلس على سرير ملكه، ولمّا جلس على سرير ملكه وطابت له الأوقات، فقام بعض الحاضرين، وأنشده هذه الأبيات: [الوافر]

غَداً سُلْطَانُنَا مَلِكُ البَرَايَا ... رَعَاهُ اللهُ يَعدِلُ في الرَّعايَا
فَيَا مَلِكٌ لَهُ في الحُكْمِ رَأيٌ ... بِهِ يَقْضِي إذا اشْتَبَهَتْ قَضَايَا
لَئِنْ أَمسَيْتَ عَارٍ من عُيُوبٍ ... فَقَد كُسِيَتْ بِنَا تِلكَ العَرَايَا
وَوَجْهُكَ حَازَ كُلَّ الحُسْنِ طُرّاً ... فَهَلْ خَلَّفْتَ خَلفكَ من بَقَايَا

ثمّ إنّ السلطان نادى بالإقامة في دمشق عشرة أيّام لا غير، فشرعوا المصريين في تجهيز حوائجهم، وما يحتاجون إليه [١٦٤أ] من هديّة وغيرها، وباعوا أهل دمشق عليهم بيع كثير، وقد طالت غيبتهم، فإنّهم إقامتهم في دمشق وحلب ثمان شهور وثلاثة عشرة يوماً.

وخرجت العساكر خلف السلطان تنجرّ خلفه، ونزل على قبّة يلبغا، وأخذ السلطان معه حاجب حجّاب دمشق تمربغا المنجكي، وأخذ موضعه أمير أحمد بن الشيخ علي، وتوجّه السلطان، والعساكر إلى القاهرة في خير وسلامة.

ثمّ استهلّ شهر صفر وفي آخر الشهر حضر بريدي وخبر أنّ السلطان الملك الظاهر برقوق أبو سعيد ـ نصره الله ـ قد وصل إلى القاهرة في خير وسلامة وفرحت به أهل مصر، وكان لدخوله يوماً مشهوداً، ودخل إلى قلعة الجبل ولمّا جلس على سرير ملكه امتدحه بعض الشعراء بهذه الأبيات مُوَشّحاً، وأنشده بين يديه: [المديد]

هَمَتِ [١٦٤ب] الأزهَارُ بالضّحكي   فَرَحاً بالأدْمُعِ الدِّيمِ

هَاتِهَا في الكَاس نارٌ ومَا

ألبَسَتْ ثوبَ الدُجَى عَلَماً

وَكَأنَّ الجوّ قد نُظِمَا

حَولَهَا من أنجُمِ الفَلَكِ   شُهُبٌ مِن ثَغْرِ مُبتَسِم

أيُّما تِبرٌ وَصهْبَاءْ

جُمِعَا في كَفٍّ عَذْرَاءْ

لَبِسَتْ مِنْ نَسْجِ صَنْعَاءْ

غُصُنٌ يَهتَزُّ في فَنكي   مُثمِرٌ بالنُّورِ، والظُلَمِ

إنّما رَوضُ المَنى الزَاهِرْ

حَيثُ يَمضِي المرهفُ البَاتِرْ

مَن سَطَا سُلَطاننا الظَاهِرْ

دَرُّهُ لله من مَلِكِ   جَامِعٌ للسيفِ، والقَلَمِ

أسَدٌ تَحميه أُسُدُ شَرَا

زَحفَتْ أجنَادُه زُمَرَا

وَكَأَنَّ [١٦٥أ] الأنجُمَ الزُهْرَا

نَزَلَتْ لِلأرضِ في شَكْلِ وَمَشَى بَهْرَامُ بِالعَلَمِ

شتاء قحط وسيئة الزمان

ثمّ نعود إلى كلامنا، وقد اطمأنت قلوب العباد، وطابت البلاد، ولله الحمد.

ثمّ استهلّ شهر ربيع الأوّل، وفي هذه توقّف المطر كثير على المسلمين، وخافت الناس وبقوا يدعوا إلى الله تعالى، فنسأل الله تعالى أن يردّ العاقبة إلى خير، ولم يرد أحد في هذا الزمان أقلّ من مطر هذه السنة، حتّى نظم فيها بعض أصحابنا يقول: [المضارع]

أَهْلُ الشَّامِ دَعُوهُم عَلَى الذُّنُوبِ نَدَامَا
شِتَاهُم قَدْ تَقَضَّى وَهُمْ حَيَارَى بِلا مَا

وقد نشفت أبيارهم، ورحلوا من بلادهم، وهلكت مواشيهم لقلّة الزرع، والناس منتظرين رحمة الله تعالى، وغالب الناس مشغولين في لهو الدنيا، ولولا فضل الله علينا ورحمته لحلّ بنا عذابه.

وأمّا المُرْدان، فما يحتاج حالهم [١٦٥ب] إلى بيان، في هذا الزمان، وليس الخبر كالعيان، كلّ واحد منهم يحبّ أن يكون معشوق، ويتمشّى في السوق، على أهل الفسوق، وقد كانت الصبيان أحيى من البنات، فانعكست الأمور، وتغيرت الدهور، وانكشف ما كان مستور، حتّى صاروا بالسقال[1]، والملابس، في زي العرائس، يأتون الفاحشة بجهر، ولا ينكر أحد عليهم منكر، وأكثر الناس قد لبسوا ثياب العار، وافتخروا بالأوزار، ولا أحد على ولده يغار، وقد أبدلوا أعراضهم في هوى أغراضهم، وهذه أُمُورٌ تقشعر منها الجلود، ويشيبُ منها المولود.

وقد رأينا في هذا الزمان من المنكرات ما لم نكن نراه، وسمعنا فيه ما لا سمعناه، وأبصرنا عجائب، وشاهدنا غرائب، فلهذا الحال قلت الأرزاق، وكسدت بضائع الأسواق، وقلّ نزول الغيث، وتعطلّت أسباب الناس، وقست قلوب الملوك، وتجبر

(١) السقال: الخاصرة، وهو يقصد الملابس التي تكشف العورة كالقصيرة.

الغنّي على الصعلوك، فهلكت الرعية، وعظمت البلية، فسبحان الكريم المسامح، الذي لا يعجل على عبد عصاه، سبحانه لا إله إلا هو، وقد أجاد صاحب هذه القصيدة في المعنى حيث يقول شعراً: [الخفيف]

قُلْ [١٦٦أ] لِمَن يرتَجي مِنَ النَّاسِ حُسْناً ... لا تُدَانِيهِم فَتَشْقَا وتَعنَا
نَحنُ، واللهِ في زمَانٍ عَجيبٍ ... لَوْ رَأينَاهُ في المَنَام فَزِعْنَا
أَصْبَحَ النَّاسُ فيه في سُوءِ حَال ... حَقُّ مَنْ مَاتَ مِنْهُم فَزِعْنَا
قَدْ رأينَا في ذَا الزَمَانِ عَجِيباً ... وَأمُوراً بِبَعْضِهَا قَد ذُهِلْنَا
لا حَيَاءَ، ولا دِيَانَةَ فِيهِم ... فَإلَيْهِم مَا عشتَ لا تُطْمَئنَّا
ضَلَّ، واللهِ سَعْيُ مَنْ يَتَرَجَّى ... مِنْهُم صَالِحاً، وقد خَابَ ظَنَّا
قد رأيْنَا فِيهِ الأرَاذِلَ سَادُوا ... وَاسْتَطَالُوا فَحَقُنَا أَنْ نَجَنَّا
قَد وَصَلْنَا إلَى أَشَرِ زَمَانٍ ... قَد حَسَدْنَا بِهِ الذي مَاتَ مِنَّا
ورَأينَا مَا لَم نَكُن قَد رَأينَا ... وسَمعنَا مَا لَم نَكُن قَدْ سَمِعْنَا
فَالذِي مَاتَ نَال بِالمَوتِ فَوْراً ... وَالذي عَاشَ بِالهُموم تَعَنَّا
لَيتَ شِعْرِي بأهْلِهِ قُلِبَ الدَّهْرُ ... انقْلابَاً أمْ نَحْنُ فِيهِ مُسِخْنَا
كَانَتِ النَّاسُ كَالزُّلالِ صَفَاءً ... هَكَذَا عَهِدُنَا بِهِمْ مُذْ نَشَأنَا
خَلفُونَا في ذُلِ سَالِفاً مِن زَمَانٍ ... فِيهِ كَانُوا عَلى السُّرورِ وكُنَّا

ثمّ [١٦٦ب] نعود إلى كلامنا، اللهم أصلح أحوال المسلمين. وفي شهر آذار فتح الله على المسلمين بمطر كثير واستغلّت الناس بعض مغّلات ولله الحمد.

ثمّ استهلّ شهر ربيع الآخر. وفي هذا الشهر دخل من بلاد الشمال تركمان وفلاحين بأبقارهم، وأغنامهم، وجمالهم، وحريمهم، وأولادهم، وبيوتهم، خلق كثيرة من قلّة المطر، والمرعى، وتفرّقوا في البلاد.

ظهور ابن النشو

وفي يوم الاثنين سابع عشر الشهر حضر من الديار المصرية قاضي القضاة البرهان المالكي وعزل ابن القفصي.

وفي ثامن عشر تولّى ابن مشكور نظر الجيوش المنصورة على عادته وفي ثاني عشرين ربيع الآخر لبس ابن النشو خلعة مليحة بأمرية عشرين، ومشدّ المراكز، وصار حاكماً، وعمل شدّ المراكز كما ينبغي، وبعد قليل صار نائب ملك الأمراء على الأغوار، وحاكم على دار الضرب[1] وغيرها، والناس إلى بابه، وأقبلت الدنيا عليه، وقد قال الشاعر: [الطويل]

إذا [١٦٧أ] أَقْبَلَتْ كَادَتْ تُقَادُ بِشَعْرَةٍ وَإِنْ أَدْبَرَتْ كَادَتْ تَقُدُّ السَّلاسِلَ

والربّ سبحانه وتعالى هو المعطي، وهو المانع، لا مردّ لحكمه، وهو الفعال لما يريد، وقد قال الشاعر شعراً: [البسيط]

عَلَيْكَ بِالْعَدْلِ إنْ وَلِيتَ مَمْلَكَةً وَاحْذَرْ مِنَ الْجَوْرِ فيها غَايَةَ الْحَذَرِ

فَالْمُلْكُ يَبْقَى مَعَ الْكُفْرِ البَهِيمِ وَلا يَبْقَى مَعَ الْجَوْرِ في بَدْوٍ، ولا حَضَرِ

لكن غرّتهم الأماني، وقتلهم حبّ الدنيا، وجمع المال، وطلب الرياسة، وكل أحد يخاف الفقر، فإنّ المسألة إلى الناس صعبة، الموت دونها، وقد قال بعضهم: ما أمرّ السؤال ولو كيف الطريق. وفي هذا كفاية، وقد أجاد قائل هذه الأبيات في المعنى شعراً: [السريع]

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ حَالِ مَنْ أَصْبَحَ في ضُرٍّ، وإفْلاسِي

لا [١٦٧ب] تَسْأَلُ الْمُحْتَاجَ عن حَالِهِ وَيْلٌ لِمَنْ يَحْتَاجُ لِلنَّاسِ

وقد صار ابن النشو أكبر أمراء دمشق، ودَيْنُه على كبارهم، وبهذا صارت كلمته مسموعة عند الدولة، وله عليهم اليد، وقد جاد قائل هذه القصيدة في المعنى شعراً:

---

(١) دار الضرب: دار صك العُملة.

[الكامل]

مَـن كَـانَ يَملِـكُ دِرْهَمَـانِ تَكَلَّمَـت ... شَـفَتَاهُ أَنْـوَاعَ الكَـلامِ وَقَـالاَ
وَتَقَـدَّمَ الأَقْـوامُ واسْـتَمعُوا لَـهُ ... وَرَأيتَـهُ مُتَبَخْـتِراً مُخْتَـالاَ
لَـولاَ دَرَاهِمُـهُ التِـي فِي كُمِّـهِ ... لَرَأيتَـهُ أَزْرَى البَرِيَّـةِ حَـالاَ
إنَّ الـدَّرَاهِمَ فِي المَـوَاطِنِ كُلِّهَـا ... تَـكسِي الرِجَـالَ مَهَابَـةً وجَمَـالاَ
فَهِـيَ اللِسَّـانُ لِمَـنْ أَرَادَ فَصَـاحَةً ... وهِـي السِـلاحُ لِمَـنْ أَرَادَ قِتَـالاَ
إنَّ الغَنِـيَّ إذا تَكَلَّـمَ بِالخَطَـا ... قَـالوُا صَـدَقتَ، ومـا نَطَقـت ضَـلالاَ
وكَـذا الفَقِـيرُ إذَا تَكَلَّـمَ صَـائِباً ... قَـالوُا كَـذَبتَ، وقـد نَطَقـتَ مُحَـالاَ
لاَ [١٦٨أ] قَاتَـلَ اللهُ الـدَّرَاهِمِ إنَّهَـا ... قَـوَّتْ قَلْبـاً وسَـتَّرَتْ أحْـوَالاَ
لاَ قَاتَـلَ اللهُ الـدَّرَاهِمِ إنَّهَـا ... تَـدَعُ الجَبَـانَ يُبَـارِزُ الأَبْطَـالاَ
لاَ قَاتَـلَ اللهُ الـدَّرَاهِمِ إنَّهَـا ... تَـقضِي المُـرَاد وتُبلِـغُ الآمَـالاَ
لاَ قَاتَـلَ اللهُ الـدَّرَاهِمِ إنَّهَـا ... تَـدَعُ البَلِيـدَ مُجَـادِلا حَـوَّالاَ
لـوَ رَامَ مَـن مَلـكَ الـدَّرَاهِم نَقْـلَ مَـا ... فِي البَحـرِ مِن دُرَرِ الجَـواهِرَ نَـالاَ
لَـو أنَّ صَـاحِبَهَا أَرَادَ بِبَـذْلِها ... نَقَـلَ الجِبَـالِ أَتَـتْ إلَيْـهِ جِبَـالاَ
لَـو أنَّ مَالِكَهَـا يَـرُومُ تَطَـاوُلاً ... نَحـوَ الثُرَيَّـا بالـدَّرَاهِمَ نـالاَ
فَهِـيَ الـذي مَـن حَازَهَـا خَضَـعَتْ لَـهُ ... هَـامُ الأسُـودِ وَعَمَّـهُ الإقبَـالاَ
وَهْـيَ الـذي لِلوَعـدِ تَرفَـعُ جَانِبـاً ... وبِهَـا سَـطَا النَّـذلُ اللئـيمُ وَطَـالاَ
وَبِهَـا تَحَصَّـنَتِ الحُصُـون وَشُـيِدَتْ ... وَأَقَـامَ فِيْهَـا لِلقِتَـالِ رِجَـالاَ
للهِ كَـمْ جَـبَرَتْ كَسِـيراً مُفْلِسـاً ... مِـن بَعـدِ ذِلَّتِـهِ مَشَـى مُخْتَـالاَ
للهِ كَـمْ مَـن لَـيسَ يَملِـكُ حَبَّـةً ... مِنهَـا وَآخَـرُ دَائِـماً يَكْتَـالاَ

هَـذَا هُـوَ السِرُ الَّـذي مِـن أجْلِـهِ   دَهِـشَ اللَّبِيـبُ وحَـارَتِ العُقَّـالاَ
قَسَـمَ إلَـهٌ فَـلاَ حَـرِيصَ بِحَرْصِـهِ   نَـالَ الغِنَـاءَ فَـلاَ تَكُـنْ مُحْتَـالاَ
كُـلُّ [١٦٨ب] امـرِءٍ يَـأتِي إليـهِ رِزْقُـه   لا حُكْـمَ إلا لِلإلـهِ تَعَـالَى
مَـن ظَـنَّ أنَّ الـرِزْقَ يَـأتِ بحيلَـةٍ   خَابَـتْ مَسَـاعِيهِ وَظَـنَّ مُحَـالاَ

وَقد أجاد قائل هذه الأبيات في المعنى شعراً: [البسيط]

إنَّ الغَـزَالَ الـذِي قَـد كَـانَ يَهجُـرُنِي   اسـتَأنَسَ اليَـومَ مِنّـي بَعـد مَـا نَفَـرا
أرسَـلْتُهَا ظاهِرِيَـاتٍ، وقـد رَبِضَـتْ   فِيَهـا سِـبَاعٌ رَآهَـا الظَّبْـيُ فـانكَسَرا

وَمِمّـا أنشـدنا بعض أشياخِنا وتنسَـب هـذه الأبيـات إلى إبليس -لعنه الله- شعراً: [السريع]

إذا أردتَ الآنَ أنْ تُكْرَمَـا   فَأرْسِـلِ الـدِّيْنَارَ، والـدِّرهَمَا
فَكُـلُ مَـا أَبصَرْت شَـيْئاً فَلَـم   تَقْـدِرْ بِـأنْ تَـأتِي أرْسِـلْهُمَا
فَلَـيْسَ فِي الأرضِ، ومـا فَوْقَهـا   أقضَى لِشَيْءٍ يُشْـتَهَى مِنْهَـا

غلاء في مصر

ثمّ نعود إلى كلامنا، ثم استهلّ شهر رجب من السنة المذكورة، وفي هذا الشهر رسم ملك الأمراء أن يجدّدوا خان الوالي، وأن يكبّروه، وعَمِلت فيه الصناع، وجاء مليح إلى الغاية، وانجبرت الناس به ولله الحمد.

وفي هذا الشهر خرج نائب الشام إلى المرج على عادة النّواب، وقعد أيام ورُدّ [١٦٩أ] إلى المدينة.

وفي يوم الخميس عاشر الشهر دار المحمل ودار مليح.

وفي هذا الشهر تواترت الأخبار بأنّ في القاهرة غلاء عظيم، وقد هلكت الناس، والخبز يباع فيها رطلين ونصف بدرهم، بعد أحد عشر رطلاً، وأكثر بدرهم. ومن

العصر ما يجدوا خبز، وذهبت أهلها منها على وجوههم في البلاد من الغلاء، فإنّ مصر تحمل الجور، وما تحمل الغلاء.

وفي أيّام الملك العادل زين الدين كتبغا، وقع فيها غلاء عظيم جدّا، وأكلوا فيه الموتى وفي أيّام الملك العادل الكبير، أخو صلاح الدين يوسف، وقع فيها أيضاً غلاء عظيم، وهلك فيه خلق عظيم من الأغنياء، والفقراء.

وأكلت الناس في هذه السنة في القاهرة الكلاب، والميتة، وأكلوا أولادهم، ولا ينكروا على بعضهم بعض من الجوع، ومن قوي على رفيقه قتله، وأكله، وفقد كثير من الأطباء في هذه السنة يستدعوهم إلى المريض فيذبحوهم، ويأكلوهم.

وقد استدعي في هذه السنة رجل لطبيب فخاف الطبيب على نفسه وذهب معه وهو خائف، فجعل [١٦٩ب] يكثر في الصدقة في الطريق، والذكر، فلّما وصل إلى الدار وجدها الطبيب خرابة فتأخّر عن الرجل، فخرج إليه رجل وقال له: مع هذا البطاء العظيم جئت لنا بصيد؟ فلمّا سمع الطبيب قول ذاك ولّى هارباً، وقد نجا بنفسه.

وقد وقع فيها أيضاً غلاء عظيم في أيّام المستنصر العلوي الذي ادعوا أنّهم فاطميين من أولاد عليّ ــ وكذبوا. قيل إنّه كان إذا ركب يركب وحده، والجيش كلّهم مشاة، فإنّهم أكلوا دوابّهم وخيلهم، والسعيد الذي عنده فرش مثل أمير، أو وزير، فكانوا يتساقطوا إلى الأرض من الجوع.

وفي بعض الأيام ركب وزيره بغلة إلى دار الملك فلما نزل عنها ودخل إلى الملك أخذوها العوامّ من غلمانه وقطعوها بالحياة وتناهبوها من الجوع، فإنّ الجوع كافر، فلمّا خرج الوزير أخبره غلمانه بما جرى عليهم من العوامّ فمسك منهم جماعة وشنقهم فلم يصبح لهم أثر، أخذوهم في الليل، وأكلوهم.

وقد وقع في ميّا فارقين غلاء عظيم لّما حاصرها هلا كون، وقد ذكر من كن فيها في أيّام [١٧٠أ] الحصار أن غرارة القمح أبيعت فيها بأربعين ألف درهم، ورطل الخبز بسبعمائة درهم، وأوقية البصل بثلاثة وخمسين، ورأس طلب بستّين درهم، وأبيعت بقرة

بتسعين ألف درهم، اشتراهم نجم الدين أيوب مختار، واشترى بعض الكبار رأسها وكوارعها بستة آلاف وخمسمائة درهم، وفي هذا كفاية عن غيره لئلا يطول الكلام.

اللّهم لا تبلينا بقضاءٍ نحير فيه، يا ربّ العالمين!.

ثمّ استهلّ شهر شعبان، وأهل دمشق آمنين مطمئنين، والناس في خير. وفي يوم الخميس عزل ابن دغا الشريف عن ولاية البّر، تولاها إياس مملوك ابن الغاوي.

وفي تاسع الشهر مسكوا الوزير، وكان خارج ليس له محب، وقد أخذ الناس في صدره، وقطع أرزاق الناس، وفرحت الناس بمسكه وطلبوا منه دراهم كثيرة، وباعوا خيله وقماشه وموجوده، ومن أساء لا يستوحش، وقد تبهدلت الوزارة وتولاها غير أهلها أسوة بغيرها.

ثمّ استهلّ شهر رمضان المعظّم من السنة المذكورة. وفي هذا الشهر حكى [١٧٠ب] لي من أثق به أنّه كان حاضر هذه الحكاية، قال: في خامس عشرين الشهر، وكان يوم الاثنين، جاء فقير من بعض فقراء المسلمين إلى قرية في الغور تسمّى الشجرة[١]، ودخل إليها يطلب منها شيءٌ يأكل فلم يعطه أحد منها شيء، فخرج منها وهو مكسور القلب، فأومأ بيده إلى السماء ودعا على أهل القرية وراح، فما كانت إلا سَاعة، وإذا بنار قد خرجت لا يَعْرف أحد من أين هي، فأحرقت البلد كلّه، وما فيه من المغلات، وما نجا إلا من نجا بنفسه واحترق فيها شيء كثير جدّاً لم يسمع بمثله. وهذا عجيب.

وفي خامس عشرين الشهر حضر مرسوم السلطان إلى نائب الشام أنّه يعزل ابن البانياسي أُستاذ داره فعزله، وفرحت الناس بعزله فإنّه من الظلمة، وتولّى عوضه شخص يقال له كمشبغا، وهو رجل جيّد مشكور السيرة، وبقي ابن البانياسي تحت الترسيم.

---

(١) الشجرة: إحدى قريتين إحداهما غرب بحيرة طبرية بمسافة طويلة، والثانية: قرية في منطقة نهر اليرموك شرق بحيرة طبرية بحوالي ٢٠كم وأظن أنها المقصودة على الحدود السورية الأردنية غرب مدينة درعا.

وفي ثاني عشرين الشهر طلبه النائب وطلب المباشرين وعملوا محاسبته، فخرجوا عليه شيء كثير، ورسم النائب [١٧١أ] بالكشف عليه، فجاؤوا الناس، وشكوا عليه الفلاحين، والمعاملين وغيرهم، وسلّمه النائب للاستادار الجديد كمشبغا فضربه وحكم فيه، وهذا عاقبة الظلم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم، وقال له النائب: ما خِفْتَ الله تعالى من المسلمين. فانظر يا أخي كيف عَنَّفَهُ الذي كان يأخذ أموال الناس، ويعطيه له، ويتقرّب إليه بها، ومع هذا لا يحمده، ولا يشكره على فعاله، وهذا من أعظم المصائب في الدنيا، والآخرة، وما أحسن ما قال الشاعر في المعنى شعراً: [السريع]

يَا أَيُّهَا الظَّالِمُ فِي فِعلِهِ وَالظُّلْمُ مَردُودٌ عَلَى مَن ظَلَمْ

إِلَى مَتَى تَعصِي وحَتَّى مَتَى تَشْكُو الْمُصِيبَاتِ وتَنسَى النِّعَمْ

اللهم أصلح حكّام المسلمين يا رب العالمين! وبقيت الناس في خير إلى آخر السنة.

سنة ٧٦٩-٩٦ ـ ١٣٩٥ ـ حكم دمشق

ثمّ استهلّ سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، والناس آمنين مطمئنين، ونواب البلاد كلّ واحد في بلده، نائب حلب تغري بردي الظاهري، ونائب حماة يونس الظاهري، ونائب حمص أمير خليل التركماني [١٧١ب]، ونائب غزّة ألطنبغا العثماني الظاهري، ونائب طرابلس أرغون شاه الظاهري، ونائب صفد قطلوبغا الظاهري، ونائب الكرك بنخاص، ونائب بعلبك أمير خليل ابن القرمشي، ونائب دمشق تنبك الظاهري، وحاجب الحجّاب أمير أحمد بن الشيخ علي، وقاضي القضاة الشافعي سري الدين، والحنفي تقي الدين ابن الكفري، والحنبلي شمس الدين الحمصي، وناظر الجيوش المنصورة ابن مشكور، والوزير فخر الدين ابن أبو شاكر المصري، ومشدّ الدواوين أحمد بن بجاس، والمحتسب بدر الدين بن منصور الحنفي، والناس في خير من فضل الله تعالى.

وملكُ الأمراء مجتهد في عمارة التربة التي عمّرها في القبيبات، فإنّه عمّرها في غاية الحسن.

وتوفّيت في هذا الشهر زوجة ملك الأمراء تنبك ودُفنت في التربة المذكورة، وكان لها جنازة هائلة رحمها الله تعالى، ثم عمّر بعد التربة العمارة التي عند باب الميدان. وعمر تلك الناحية أحسن ما كانت، ثم إنّه فتح بعدها العمارة التي داخل [١٧٢أ] المدينة جوار البزوريين، وعمّرها في غاية الحسن، وما رأى أحد مثلها في بلاد المسلمين وهي من عجائب دمشق. وتولّى عمارتها ابن القرمشي الذي كان ناظر الجامع، فإنّه رجل عارف بالعمائر، وما يتعلّق بها، وأقامها في مدّه يسيرة.

وفي هذه السنة أحضروا إلى نائب الشام أسدين صغار ملاح وبقوا عند باب الميدان، ولمّا توجّه إلى القاهرة أخذهم في جملة التقادم.

حكاية

روى الشعبي في كتابه، قال: خرج أسد وذئب وثعلب يتصيّدوا، فصادوا حمار وحش وغزال، وأرنب. فقال الأسد للذئب، أقسم علينا هذا الصيد، فقال، الحمار للملك يعني الأسد، والغزال لي، والأرنب للثعلب. قال: فلما سمع الأسد هذه القسمة رفع يده ولطم الذئب طير رأسه عن جثته، وقال للثعلب: أَقْسِمْ أنت! قال، نعم الحمار الوحش يتغدّاه الملك، والغزال آخر النهار، والأرنب وسط النهار. فقال الأسد، وقد أعجبته هذه القسمة، لله درّك ما أقضاك! من علّمك هذا القضاء؟ قال له، القضاء الذي نزل على رأس الذئب.

وفي شهر ربيع [١٧٢ب] الأول من السنة المذكورة عزل الهيذباني من نيابة القلعة، وتولاها يلوا من أمراء طرابلس، وفرحوا أهل القلعة بعزل الهيذباني عنهم كثير، فإنّه من الظلمة الكبار.

وفي شهر شعبان من السنة المذكورة، دخل إلى دمشق علاء الدين ابن السنجاري وزيراً، وحكم بها، ولم يلبس في ولايته شاش، ولا فرجية إلا على عادته أجنادي، ولم يستهيبه أحد في دمشق، وكانت مدّته يسيرة، وعزل عنها وبقي بطال.

وفي هذه السنة تضارب نائب الشام وحاجب الحجّاب ابن الشيخ علي، ووقع بينهم كلام وحش، وكانت كلّ واحد منهم إلى السلطان. وبعد أيّام عزل الحاجب وراح إلى غزّة نائب، وجاء نائب غزّة إلى دمشق حاجب حجاب، وهو رجل جيد مشكور السيرة، أدام الله تعالى أيّامه.

حريق في دمشق

وفي سادس عشرين شهر رجب من السنة المذكورة احترق في المدينة حريق ما رأى أحد مثله، سوق الحريريين، والصابونيين، والقطّانيين، والدقّاقين، والفرائين، وقيسارية الصوف، وقيسارية الإقباعيين[1]، وقيسارية العُبي [١٧٣أ]، وقيسارية ابن البابي، ودرب السامُري، وخان الشقق، وخان الحبّالين، وكان حدّه من الحمّام الذي في سوق البطائنين إلى باب الصرف الذي بحدّه المسجد في العرض وفي الطول إلى قبّه الشحم، ومن جهة القبلة إلى قريب حبس باب الصغير.

وراح للناس فيه شيء لا يقدر أحد يحصره، ونهب للناس فيه شيء كثير، واحترق للإفرنج فيه شيء كثير، فإنهم كانوا ساكنين في تلك الخانات، وأكثرهم في قيسارية ابن البابي، واحترق للناس في خان مخشي الذي يعرف بخان الشقق شيء كثير، فإنه كان جميعه مخازن للتجار، وهذه البقعة وسط أسواق دمشق، وأكثر أموال الناس في تلك الناحية.

وما فرغت الناس من هذا الحريق إلا واحترق في ظاهر المدينة بعد قليل حريق آخر، وذلك في شهر صفر من السنة المذكورة أكبر من الذي احترق جوّا المدينة، ولم يُروا مثله في دمشق، فإنّه كان آخر الليل، وكان الهواء قويّ كثير، وعملت النار في قيسارية يلبغا، والطواشي، وطارت النار إلى سوق القشاشين، فعملت [١٧٣ب] النار فيها من تحت النخلتين إلى باب الفرج نازل إلى قريب باب الفراديس.

---

(١) الإقباعيين: الذين يصنعون الأقباع وهي الطرابيش.

واحترق باب بالفرج، وما ردّ النار عن المدينة إلا السور، والنهر، واحترق من الجانب الآخر إلى حارة البغيل إلى قريب المصالخ، وبقي الهواء يحمل شرار النار، ويرميها على المدينة، واحترق من الشرار بعض درابزين مأذنة العروس التي بالجامع الأموي، وبقوا الناس في المدينة واقفين يطفئوا النار الذي نازلة عليهم فوق الأسطحة، وبقي شرر النار في الهواء مثل الجراد إذا طار، حتّى وصل بعض الشرار وخرج من المدينة إلى جسر الغيدي، وهذا لم يسمع بمثله، فإنّها كانت آية من آيات الله تعالى، حتّى بقي جامع بني أميّة ما يقدر أحد يقف فيه من الدخان، والنار نازلة عليهم، فسبحان اللطيف الخبير، وذلك بأمره، وإرادته، لا مفرّ من قضائِهِ وحكمه، واحترق فيه جماعة كثيرة.

حكاية:

قد ذكر القاضي كمال الدين ابن الصائغ في تاريخه قال: في سنة أربع وستّين وخمسمائة، وقع حريق في مدينة حماة، كان حريق كبير جدّا، وكذلك في أنطاكية احترق فيها حريق عظيم في [١٧٤أ] تلك السنة، وقد ذكر عن رجل شيخ أنّه رأى ملائكةً تسوق النار وتقول، بهذا أمرنا، ثم مات من يومه وهذا عجيب.

المشاجرة بين إياس وتنبك. سنة٧٩٩-١٣٩٧

وفي هذه السنة المذكورة تنافس نائب الشام، وإياس، وقد درى بذلك أكثر الناس، فعند ذلك طلب الأمير إياس الحضور إلى الأبواب الشريفة، فأجيب إلى ذلك، وحصّل تقادم هائلة، خيول، وجمال، وقماش كثير، وتوجّه إلى القاهرة في شهر القعدة من السنة المذكورة، ووصل إلى القاهرة ودخل إلى السلطان فلم يلتفت إليه، والذي حسبه انقلب عليه.

ثمّ إنّ ملك الأمراء تنبك - حرسه الله تعالى - لما توجّه إياس إلى عند السلطان خاف، كيلا يتكلّم في حقّه بما لا يليق، فطلب الحضور إلى الأبواب الشريفة فأجيب إلى ذلك فعمل تقدمة هائلة، وأرسلها وخرج خلفها.

ثمّ استهلّت سنة تسع وتسعين وسبعمائة، وطلع النائب إلى القاهرة في سادس شهر المحرّم، وقد توكّل على الله، وقد قال الله [١٧٤ب] تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال: ﴿ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

ولمّا ركب ملك الأمراء من دار السعادة إلى السفر، أنشد لسان الحال يقول شعراً: [الكامل]

سَافِرْ فَوجْهُ السَّعدِ سَا ... فِرْ فَلْتَرْجِعَنَّ، وأنتَ ظَافِرْ

وَلَتُنْصَرَنَّ عَلَى عِدَا ... كَ فَإِنَّ حِزْبَ الله ظَاهِرْ

بَادِرْ فَمِثلُكَ مَن يُبَا ... دِي في الفِعَالِ وَمَنْ يُبَادِرْ

فَلَقَد أطاعَتكَ القُلُو ... بُ، وأخلَصَتْ فِيكَ الضَّمَائِرْ

مَازِلتَ تَنْظِمُ عِقْدَهَا ... دُرَراً وتَأْتِي بِالجَواهِرْ

وعزم بهمته العالية محفوظاً في أمان الله تعالى. اللهم زوّده التقوى، وجهه إلى الخير أيّما توجّه! شعراً: [البسيط]

سَافِرْ عَلَى خِيرَةِ الرَّحمن في دَعَةٍ ... تَلْقى بِمِصْر أمَانَاً، ثم تنتَصرُ

نَسْتَودِعُ اللهَ مَولانَا وَنَسأَلُه ... حُسنَ الإيَابِ فَمِنهُ النصرُ، والظَّفَرُ

ويروى [١٧٥أ] في مسند الإمام أحمد بن حنبل (ﷺ) عن ابن عمر (ﷺ) عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «**إنّ الله تعالى إذا استُودِع شيئاً حَفِظَه**»[١].

---

(١) ورد الحديث في: مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٨٧، السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٧٣، كنز العمال للمتقي الهندي ١٧٤٧٧، الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ١٧، جمع الجوامع للسيوطي ٤٦٥٦، الكلم الطيب لابن تيمية ١٦٨، الأذكار النووية ١٩٥، كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٩٨، اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٦/ ٤٠٠.

حكاية:

روي عن زيد بن أسلم (ﷺ) قال: خرج رجل غازياً فشيعته امرأته إلى باب الدار، وكانت حامل فلما ودعها أشار بيده إلى بطنها وقال، استودع الله تعالى ما في بطنك وسافر، ثم إنّ المرأة ماتت في غيبة الرجل فدفنت، وولدها في بطنها فكان يُرَى على قبرها في كلّ ليلة نور كثير، حتّى أبصره كلّ أحد، ثم إنّ زوجها قدم من السفر فأخبروه إنّها ماتت ودلّوه في قبرها، فلمّا جاءَ إلى عند قبرها انشق القبر، وإذا امرأته في كفنها، وإذا ابنها في كفنها يرضع، فبادرت زوجها وقالت له، يا فلان! دونك، وما استودعت الله تعالى فخذه، ولو استودعتنا لوجدتنا، فأخذ الصبي حياً وانطبق القبر عليها. قال زيد: لقد رأيت الصبي يلعب مع [١٧٥ب] الصبيان. وهذا تصديق حديث رسول الله(ﷺ).

ولّما قرب إلى القاهرة تلقاه مطبخ السلطان إلى الصالحية، ولم يحصل ذلك لأحد من النّواب، وطلعت إلى ملتقاه العساكر، والأمراء الكبار، واحتفل لدخوله الكبير، والصغير، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾ [يوسف: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

ثمّ دخل إلى القاهرة معزوز مكروم، وتمثّل بين يدي مولانا السلطان الملك الظاهر نصره الله، فأقبل عليه ورفع قدره، وأحسن إليه.

وفي الحديث «**إنّ السلطان ظلُّ الله في أرضه يأوي إليه كلّ مظلوم من عباده وَفدَه**».

ومن طلب الرَيّ من الفرات لم يَخْشَ الظمأ في ورده، ومن قصد الكريم برجائه لم يخف الخيبة في قصده، أعزّ الله من الأماني أقصاها، ومن [١٧٦أ] النواصي أعصاها، ويديم أيّامه، وينفذ أحكامه، ويجمع عليه القلوب المتنافرة، فقد أقام دولته أحسن قيام، فسدّ أركانها بالتقوى، وشيّد بنيانها بالعدل، وأحكم نظامها بحسن السياسة، واستمال قلوب الأعادي بالإحسان، وعمّ إحسانه وعلا درجاته، وضاعف حسناته، أنار الله به البلاد، وغاث به العباد، وقسم له في التقدير، وجوه التدبير ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن

يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ [الحديد: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وقعد في القاهرة أياماً في هناءٍ وسرور، وقد نصره الله تعالى، وصار عدوّه مقهور، وقد عدم عدوّه رشده، والتوفيق، وأخطأ الصواب وسلك المضيق، وزاحم [١٧٦ب] مع ضعفة من ساعدته الأقدار، وكان السعد له رفيق، وسلك مسالك لم يكن لها يطيق، وركب جواد الحرب وليس بفارس، وحمل قوس الرمية وليس برامي مصيب، وشهر سيف البغي وقُتِل به، وما ذاك عجيب، فلله الحمد على ذلك.

ثمّ إنّ مولانا ملك الأمراء خرج من القاهرة في خير وسلامة إلى الشام على نيابته معزوزاً مكروماً، فطلعت الناس إلى ملتقاه، وشكروا الله الذي بلّغه مناه، وانشرحت الصدور، وزاد عند الناس السرور، وقرّت العيون، وخابت من الأعداء الظنون، واحتفلت الناس لدخوله، وَطلعت الأمراء إلى ملتقاه، وأرباب الوظائف على عاداتهم، ودخل المقرّ الأشرف العالي المولوي المخدومي السيفي تنبك الظاهري يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الأول من السنة المذكورة على عادة النّواب، عليه خلعة السعادة على جاري العادة، فالحمد لله الذي من علينا بكشف الغمّة، وجعل تلك النقمة بفضله [١٧٧أ] نعمة، وأعقب الشدّة بفضله فرحاً ورحمة. ودخل قدّامه كاتب السرّ، وناظر الجيش، وعليهم خلعُ الرضا، وكان لدخوله يوماً مشهوداً.

وزيّنت دمشق لقدومه، وهذا ما جرى لغيره، وأنشد لسان الحال يقول شعراً: [الكامل]

مَلأ الهَنَا بِقُدُومِكَ الأكوانا وَأَتَى السُّرورُ وزَالَ ما أكوَانَا
كُنَّا عَلَى حَذَرٍ فَآمَنَ خوفَنَا رَبُّ العبَادِ، وأذْهَبَ الأحزَانَا

وقد قال الله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وفي الحديث، «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»(١).

وأجاد قائل هذه الأبيات حيث يقول: [الطويل]

لَكَ الحَمْدُ يَا مَنْ لا لَهُ أبداً بُدُّ ... عَلَى نِعَمٍ أولَيهَا مَا لَهَا عَدُّ

وَمَن لي إلهي أَنْ أقُومَ بِشُكْرِهَا ... إذَا كَانَ مِن نِعمَاكَ قَولي لَكَ الحَمْدُ

ولما [١٧٧ب] استبشرت دمشق بقدوم مولانا ملك الأمراء أنشد لسان حالها يقول: [البسيط]

كَررْ عَلَيَّ فَمَا لِي بَعدهَا وَطَرُ ... بِشَارَةٌ كُنْتُ أرجُوهَا، وأنتَظِرُ

هَبَّتْ عَلَينَا رِيَاحُ النَّصرِ هَاتِفَةً ... لَمَّا سَرَتْ سُرَّ مِنْهَا السَّمعُ، والبَصَرُ

فَيَا لَهَا نِعمَةً جَاءَ البَشِيرُ بِهَا ... مِن بَعْدِ مَا كَادَتِ الأكْبَادُ تَنفَطِر

يَا قَلبُ، ويحَكَ لا تجْزَعْ لِغَيبَتِهِ ... خَابُوا عُدَاهُ وَحِزْبُ الله مُنتَصِرُ

يَا وَارِد أورَدِ البُشْرَى على عَجَلٍ ... كَررْ عَلَيَّ فِدَاكَ السَّمْعُ، والنَظَرُ

سَعوا بإثم وبُهتَانٍ بِهِ خُذلُوا ... يَا ذُلَّ مَن خَانَهُ في سعيِهِ القَدرُ

فَالحمدُ للهِ لَو كُنَّا كَمَا ذَكَرُوا ... لَمَا نُصِرْنَا، ولا ذُلُّوا، ولا قُهِرُوا

أنتَ السَّمِيعُ لِشَكْوَانَا بِنِيَتِهِ ... وَزَادَهُ شَرَفاً يَسْمُو، وينتَشِرُ

مَنُّوا عَلَى الدينِ، والدنيَا بِعودَتِهِ ... فالشَّامُ مُذْ حَلَّهَا قَد حَلَّهَا خفَرُ

قُدِمْتَ [١٧٨أ] مِن مِصر مَسرُوراً بِمَا صَنَعَتْ ... أيدي الزَّمَانِ فَلاَ خوف، ولا حَذَرُ

---

(١) ورد الحديث في: سنن أبي داود ٤٨١١، مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٢٠٣، ٣٨٨، السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ١٨٢، المعجم الكبير للطبراني ١/ ١٦٢، مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ١٨٠، ١٨١، شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٨٧، اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٤/ ١٥٦، كنز العمال للمتقي الهندي ٦٤٨٥، الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٧٧، موارد الظمآن للهيثمي ٢٠٧٠.

دَخَلتَ في مَوكبٍ عَزّتْ مَوَاكِبَه لم يَأتِ في مِثلِه هَذا الزمان بَشَرُ
يَا مِنَّةٍ عَمَّتِ الدّنيا بَشَائِرُ وعَمَّتها مِنْ نَدَاهُ السُّحبُ، والمَطَرُ
ولَمْ يَزَلْ حَاكِمُ الإسْلام ذَا مِنَنٍ عَلى الأنَامِ بِفَضْلٍ لَيْسَ يَنْحَصِرُ
وَأحسِنْ كَما أنتَ مُعتَاداً فَما أحَدٌ إلا، وعادَ بِفَضْلٍ مِنكَ يَشتَهِرُ
الحَمدُ لله لَمْ نَعتِبْ على قَدَرٍ نِلنَا المُرادَ وَذَنبُ الدَّهرِ يُغتَفَرُ

وقد اطمأنت العباد لمّا ردّ إلى البلاد واستمرّ على عادته ولله الحمد.

نواب دمشق تحت حكم المماليك

وسنذكر نياب دمشق على وجه الاختصار واحداً واحداً على الترتيب ونذكر السنة (التي) دخل فيها كل واحد منهم حتى تزداد فضيلة الكتاب، وأرجو من الله في ذلك الصواب، وسأذكرهم كما ينبغي في كتابنا الجزء الثاني من (**درر الأفكار في غرائب الأخبار**) مع الملوك، ونذكر [١٧٨ب] لهم غرائب وملح غير واحدة.

فأوّل من ملك دمشق من ملوك الترك، الملك المظفّر قطز رحمه الله.

فإن دمشق كانت في يد بني أيوب، وآخر ملوكها من بني أيوب، الملك الناصر.

يوسف بن محمد بن غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي رحمهم الله.

حتى دخلها جيش هلاكون قبّحه الله، وجرى لهم من أهلها ما جرى، ومسكوا صاحبها الملك الناصر المذكور، وولده، وأخوه وجماعة كبار من الناس، وأرسلوهم إلى هلاكون فقتلهم، وبقيت أهل دمشق معهم في شدّة. فعند ذلك هَمَّ الملك المظفّر صاحب مصر هِمَّةَ الملوك، وكان قد اجتمع عنده عساكر كثيرة من البلاد، فإنّهم هربوا من هلاكون ومن جيوشه وحلفوا له، وخرج بهم إلى ملتقى التتار وهم في دمشق. وكبيرهم يومئذ كتبغا المقدّم على كبارهم وصغارهم في تسعين ألفاً من التتار، ولمّا علم كتبغا بقدوم السلطان الملك المظفّر من مصر، وأنّه [١٧٩أ] قرب إلى الشام خرج إليه عساكره، والتقى الفريقان على عين جالوت في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة، وكان

النصر للمسلمين وانكسرت التتار. وقتل مقدّمهم كتبغا وتفرّق شملهم، وكان النصر للمسلمين وانكسرت التتار.

وقتل مقدّمهم كتبغا وتفرّق شملهم، وذاك بما فسدوا في الأرض ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝﴾ [المائدة: ٦٤].

ولم ينجو منهم إلا كلّ طويل العمر، ودخل الملك.

* المظفّر قطز

إلى دمشق منصوراً وفرحت به أهل دمشق وغيرهم، وفرّج الله عن المسلمين واستراحوا من التتار. ودخل إلى القلعة وتملّك دمشق وبلادها، وحلب وسائر البلاد الشامية، وقعد في دمشق مقدار شهرين حتّى طابت البلاد وراحت التتار عنها، وقطعوا الفرات وبعث إلى كلّ بلد من جهته.

ولمّا كسروا الترك التتار وَهُم أبناءُ جنسهم قام بعض الشعراء فيهم يقول شعراً: [الكامل]

غَلَبَ التتَارُ عَلَى البِلاَدِ فَجَاءَهُم ... مِنْ مِصْرِ تُرْكِيٌّ يَجُودُ بِنَفسِه

فِي الشامِ أهلَكَهُم وشَتَّتَ شَمْلَهم ... وَلِكُلِّ شيءٍ آفَةٌ مِن جِنْسِهِ

فَلَما رُدَّ الملك المظفّر إلى القاهرة خلَّى في دمشق نائب من جهته [١٧٩ب] الأمير الكبير.

* سنجر الحلبي

وهو أوّل نائب تولّى دمشق من جهة ملوك الترك، ولمّا رُدّ السلطان الملك المظفّر قطز إلى القاهرة قُتِل في الطريق قبل أن يدخل مصر في شهر القعدة من السنة المذكورة، وتسلطن الملك الظاهر بيبرس، وتملّك دمشق في هذه السنة أربع ملوك وهذا غريب، فإنها كانت في يد الملك الناصر إلى نصف شهر صفر، ثم صارت في حكم التتار إلى شهر رمضان، ثم صارت في حكم الملك المظفّر قطز إلى شهر القعدة، ثم صارت في حكم

الملك الظاهر باقي السنة، وهذا عجيب.

لمّا سمع علم الدين سنجر أن السلطان قطز قُتل، شقّ ذلك عليه، تسلطن في دمشق وملك القلعة وغلت الأسعار فيها حتّى أُبيع الخبز رطل بدرهمين، واللحم كلّ رطل بثمانية عشر درهماً، والجبن أوقية بدرهم، ثم إنّ الأمراء اتفقوا عليه وحاصروه مدّة في القلعة، فلمّا رأى الغلبة خرج منها تحت الليل [١٨٠أ] إلى بعلبك، ثم إنّهم مسكوه، وأرسلوه إلى الملك الظاهر، ثم تولّى بعده نائب دمشق:

- الأمير الكبير

* **طيبرس الوزيري.**

ودخل إلى دمشق في شهور سنة تسعٍ وخمسين وستمائة.، وكان حاكم مليح، ثم بعد مدّةٍ وصل من القاهرة أمير اسمه:

- الدمياطي ومعه عسكر، فطلع نائب دمشق حتى يلتقيه، فمسكه الدمياطي وركبه بغله، وأرسله إلى القاهرة، وأخذ جميع موجوده وبقي نائب غيبة الأمير أيدغدي التركي حتّى يحضر نائب، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير جمال الدين أقوش النجيبي مملوك الملك الصالح.

وكان يعتمد عليه في جميع أموره، ودخل إلى دمشق في شهر الحجة سنة ستّين وستمائة.، وأقام في دمشق عشر سنين وعزل، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير عزّ الدين أيدمر الظاهري.

كان نائب الكرك، ولمّا خرج السلطان الملك الظاهر من القاهرة وجاء إلى الكرك في المحرم سنة سبعين وستمائة يكشف أحوالها وجاء إلى دمشق، خرج معه عزّ الدين من الكرك إلى دمشق. ولمّا دخل السلطان [١٨٠ب] إلى دمشق عزل جمال الدين، وولّى عزّ الدين المذكور، ولم يزل في دمشق نائب حتّى مات الملك الظاهر رحمه الله تعالى، وجاء ولده الملك السعيد إلى دمشق، وتغيرت عليه قلوب الأمراء، وجرى لهم معه ما جرى، وخلعوه من الملك ولوا أخوه: بدر الدين سلامش، مسكوا نائب الشام عز الدين

وشالوه إلى القلعة، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير شمس الدين سنقر الأشقر.

وكان الملك الظاهر يعظّمه كثير، ودخل إلى دمشق في شهر جمادى الآخرة سنة ثمان وسبعين وستمائة ولمّا خُلِعَ السلطان سلامش وتولى الملك المنصور قلاوون عصى نائب دمشق سنقر الأشقر وتسلطن في دمشق، ودخل إلى القلعة وسمّى نفسه الملك الكامل، وخطبوا له في الجامع وبقي يركب في منزلة السلطان إلى شهر صفر سنة تسع وسبعين وستمائة، جاء جيش مصر إليه فخرج إليهم فلم يَرا نَفسَه قدّهم فهرب إلى صوب الرحبة [١٨١أ]، ثم تولى بعده:

- الأمير الكبير حسام الدين لاجين المنصوري.

ولمّا تسلطن سنقر ودخل إلى القلعة، وكان المقدّم كان لاجين نائب القلعة، مسكه وحبسه فيها، فلمّا هرب ودخل جيش مصر، وكان المقدّم عليهم الأمير علم الدين الحلبي أخرج لاجين من الحبس، وولاه نيابة دمشق ودخل معه إلى دار السعادة في شهر صفر سنة تسعٍ وسبعين وستمائةٍ، وبقي نائب أحد عشر سنة، وكان حسن السيرة، ثم عزل عنها، ثم تولى بعده:

- الأمير الكبير علم الدين سنجر الشجاعي المنصوري وزير الديار المصرية.

ودخل إلى دمشق في شهر جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة، وكان الوزير في القاهرة ابن السلعوس بقي يحطّ على الشجاعي فكتب إليه بعض أقاربه من دمشق شعراً يقول فيه ملغزاً: [الوافر]

تَنَبَّـهْ يَـا وَزِيـرَ الأرضِ وَاعلَـمْ ... بأنـكَ قَـد وَطِيـتَ عَـلَى الأفـاعِي

وَكُـنْ بـالله مُعْتَصِـماً فَـإنّي ... أَخَـافُ عَلَيـكَ مِـن نَهْشِ الشُّجَاعِي

وهكذا [١٨١ب] جرى ظَفَر الشجاعي بالوزير، وصادره ونهشه حتّى أخلطه، وطلب صاحب الشعر وقال له: أنت نصحته ما انتصح، وأجازه على شعره وهو الذي

بنى هذه النيابة فوق برج الطارمة في أيّام الملك الأشرف خليل، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير عزّ الدين أيبك الحموي.

ودخل إلى دمشق في شهر شوّال سنة إحدى وتسعين وستمائة، ولم يبرح نائب حتّى جاء السلطان الملك العادل كتبغا إلى دمشق في شهر القعدة سنة خمس وتسعين وستّمائة وعزله، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير شجاع الدين غرلوا مملوك الملك العادل كتبغا في السنة المذكورة.

ولم يزل فيها حتّى خلع أستاذه وتسلطن لاجين، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير سيف الدين قبجق المنصوري.

ودخل إلى دمشق في شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين وستمائة، وقفز إلى قازان هو، والبكي، وبكتمر السّلاح دار، وجاؤوا مع قازان إلى دمشق، ولمّا رُدّ قازان إلى بلاده ترك [١٨٢أ] قبجق نائب دمشق على عادته، ثم إنه طلع إلى السلطان طائع، وحديثه كثير يذكر في غير هذا الموضع. ولمّا راح قبجق من دمشق إلى عند قازان جاء نائب إلى دمشق بعده:

- الأمير جمال الدين الأفرم.

وبقي فيها حتّى دخلها قازان، فهرب الأفرم إلى القاهرة إلى عند السلطان الملك الناصر، ثم رُد الأفرم إلى دمشق على عادته في السنة المذكورة، وبنى الجامع الذي في الصالحية، وكان حسن السيرة، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير قرا سنقر المنصوري نيابة حلب، ومصر، ودمشق.

وكان معروفاً بالشجاعة، ودخل إلى دمشق في أواخر سنة تسع وسبعمائة، ثم تولّى بعده:

- الأمير سيف الدين كراي المنصوري.

ودخل إلى دمشق في شهر المحرّم سنة إحدى عشر وسبعمائة، وكان سمح النفس، جواداً، رحمه الله تعالى، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير جمال الدين أقوش الأشرفي.

كان نائب الكرك، ودخل إلى دمشق في شهر جمادى الآخرة سنة إحدى [١٨٢ب] عشر وسبعمائة، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير تنكز.

ودخل إلى دمشق في شهر ربيع الآخر سنة اثني عشر وسبعمائةٍ، وتمكن في دمشق وسار بالعساكر، وفتح ملطية سنة خمس وعشرين وسبعمائةٍ، وما كان أمير يقدر يظلم أحداً في أيّامه، وكان يمشي في الليل بنفسه في المدينة، ويتفقّد مصالح الناس رحمه الله، وكان السلطان الملك الناصر لا يفعل شيء إلا برأيه، وكان الناس يدعوا بطول حياته، وكان يتوجّه في كلّ سنة إلى الأبواب الشريفة، ويعود معظماً مكرماً.

وقد حكى القاضي شرف الدين ناظر الخاص أن إنعامه يبلغ في بعض السنين سبعمائة ألف ألف من الخزانة، خارجاً عن خيول وقماش. وكانت الخلعة الذي لبسها آخر سفر غرامتها على السلطان ألفين دينار مصرية، ومركوبه جميع شيءٍ عليه ذهب، حتّى طبل الباز ذهب، وكان السلطان يخرج إلى بير البيضاء يتلقّاه، [١٨٣أ]، ويترجّل السلطان له، ويقاربه، وتزوّج السلطان ببنت تنكز وزوّج السلطان أولاد تنكز ببناته.

وحكى القاضي شرف الدين المذكور، قال: خرج السلطان يتصيّد كراكي، وقد أجاد الشيخ جمال الدين بن نباته حيث يقول في المعنى شعراً: [المجتث]

وَمُولَعٍ بِشِبَاكٍ   يَمُدُّهَا وَشِرَاكِي

قَالَتْ لِي العَيْنُ، مَاذا   يَصِيدُ؟ قُلْتُ، كراكي

فلمّا خرج تنكز للصيد مع الأمراء وسبق السلطان، قال شرف الدين: وكنت قد خرجت في ركاب السلطان أتفرّج، وقد رأيت بعيني مملوك سائق إلى أن وصل إلى الأمراء وقال هذا، السلطان واصل، يقول لك، يا نائب الشام، لا تنزل عن جوادك، فما كان إلا ساعة حتّى أقبل السلطان وقدّامه أربع أمراء خاصّكية ذاك الزمان، الواحد

ملكتمر الحجازي، ويلبغا اليحياوي، وألطنبغا المارداني، وأقسنقر، وعلى يد كلّ واحد منهم صقر[1]، فقال السلطان لما وصل، يا أمير تنكز أنا أمير شكارك وهؤلاء بزداريتك[2] [١٨٣ب]، وهذه السناقر[3] إذا رحت إلى دمشق خذهم معك لتتفرج فيهم، فأراد تنكز النزول ليبوس الأرض فمنعه، وهذا لم يحصل لأحدٍ من النوّاب. ولقد أجاد الشاعر حيث يقول في أمير شكار شعراً: [المجتث]

بِي مِنْ أَمِيْرِ شِكَارِ هَوَاهُ يُذِيبُ الجَوانِحْ

لَمَا حَكَى الظَّبيَ حُسناً حَنَّتْ عَلَيْهِ الجَوارِحْ

وكان تنكز رجل جّيد دَيِّن، وقد ذكر ناصر الدين دواداره قاله: أبصرت منه شيء ما أبصرته من غيره، كان له كاتب للزكاة لا يعمل غيرها، إذا دخلت السنة يكتب جميع ما في حواصله وتحت يده، ويظهر الذي وجب عليه من الزكاة فيصرفها لمستحقّها، رحمه الله تعالى. ولم يزل على هذه الصفة حتّى مسك في شهر الحجّة سنة أربعين وسبعمائةٍ، والذي وجد عند تنكز لما مسك موجود ثمان مائة حمل جَمَل، ما بين ذهبٌ وفضةً وقماش، وغير ذلك، وسنذكر باقي ترجمته في أيام الملك الناصر خوفاً كيلا يطول الكلام، ثم [١٨٤أ] تولّى بعده:

- الأمير الكبير علاء الدين ألطنبغا الحاجب الناصري

ودخل إلى دمشق في شهر المحرّم سنة إحدى، وأربعين وسبعمائة، ولم يزل نائبها حتى خرج السلطان أحمد من الكرك، وعصى طُشُتُمُر حُمُّص أخضر في حلب، وكان نائبها، وقام في تولية السلطان أحمد، وطلع إليه، والتقاه ألطنبغا نائب دمشق بالعساكر.

ولّما دخل ألطنبغا إلى حلب هرب منها حُمّص أخضر إلى صوب سيس، ولّما رُد نائب الشام وجد فيها قطلوبغا الفخري قد ملكها، وكان قوصون قد بعثه من مصر في ألفين

---

(١) يقصد صقراً للصيد.

(٢) الشكار: الصيد، والبازدر: من يربي الصقور.

(٣) السناقر: المقصود من أسماؤهم سنقر من المماليك.

فارس يحاصر السلطان أحمد في الكرك، فلمّا التقى دمشق ما فيها أحد، جاء إليها وتملكها، وأخرج السلطان أحمد من الكرك، والتفت عليه الناس.

ثمّ إنّ نائب الشام خامر عليه وعسكر دمشق، ودخلوا إلى الفخري فهرب ألطنبغا نائب الشام إلى القاهرة، وكان من جهة قوصون، ثم إنّ المصريين مسكوا قوصون ومسكوا نائب الشام وطلع الفخري، والسلطان أحمد، والعساكر إلى مصر، وسلطنوا السلطان أحمد، ورد طشتمر حُمص أخضر من بلاد الشمال، وفرح به الفخري، وولّى السلطان أحمد [١٨٤ب] نيابة حماة، والأحمدي نيابة صفد، وآقسنقر نياة غزّة، وطشتمر حمص أخضر نيابة مصر، وأخرجوا كل نائب إلى بلده، ثم إنّ السلطان أرسل مسك الفخري في الطريق.

وولّى أيدغمش نيابة دمشق، وأرسل الفخري وحمص أخضر إلى الكرك الذي أقاموه، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير أيدغمش.

وأرسل إلى حلب غيرهم ودخل إلى دمشق في أواخر سنة اثنتين، وأربعين وسبعمائة، وتوفّي في دمشق، وكان موته من أعجب العجب، وهو أنّه سمع حس جواريه في دار السعادة فأخذ في يده عصاة ودخل إليهم وضرب واحدة عصاتين، ووقع ميت، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير سيف الدين طقزدمر الناصري.

ودخل إلى دمشق من حلب، فإنّه كان نائبها في شهر رجب سنة ثلاث، وأربعين وسبعمائة، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير سيف الدين يلبغا اليحياوي الناصري.

وكان السلطان الملك الناصر يحبّه كثير، وكان من أحسن الناس، ودخل إلى دمشق في شهر ربيع الأول سنة ست [١٨٥أ]، وأربعين وسبعمائة.

وقد حكى لي الحاجّ حسين أستاذداره قال: جرى يوماً بين يدي السلطان الملك

الناصر ذكر عشرين ألف دينار، فقال يلبغا، والله، ياخوند، عمري ما أبصرت عشرين ألف دينار، فلما خرج من عنده طلب السلطان القاضي شرف الدين ناظر الخاص وقال له، وأحضر لي الساعة خمسة وعشرين ألف دينار، وخمس تشاريف أطلس أحمر، وطرزها، وحوائصها، فلمّا أحضر الذي طلبه السلطان قال له احمل التشاريف إلى بيت يلبغا، وقل له (إذا جاءت إليك الجمدارية بالذهب اخلع عليهم هذه التشاريف).

وطلب السلطان خمسة من الجمدارية وحملهم الذهب وبعثهم إليه، فلمّا وصلوا إليه خلع عليهم تلك التشاريف.

وكان السلطان يحبّه ولم يزل نائب في دمشق حتّى جرى له ماجرى، وبنى الجامع الذي تحت القلعة ولم يتّمه، وتمام ذكره في موضعٍ آخر كما ينبغي. ولَمَا مسكوه وقتلوه في قاقون رثاه القاضي صلاح الدين الصفدي يقول شعراً: [الطويل]

أَلا إِنَّما الدُّنيَا غُرُورٌ وبَاطِلٌ   فَطُوبَى لِمَنْ كَفَّاه مِنْهَا تَفَرُّغَا
وَمَا [١٨٥ب] عَجَبِي إلا لِمن بَاتَ وَاثقاً   بِأَيَّامِ دَهْرٍ مَا رَعَتْ عَهدَ يَلْبُغَا

ثمّ تولّى بعده:

- الأمير الكبير سيف الدين أرغون شاه.

وحظي عند الملك الكامل ودخل إلى دمشق في جمادى الآخرة سنة ثمان، وأربعين وسبعمائة، وكان في أيامه الغلاء، وخطفوا في دمشق الخبز، وقطع أيديهم وكانوا ثمانية عشر رجلاً، وسمّر منهم سبعة، وتمكّن نيابة دمشق، ولّما جرى له مع ألجبغا، والفخري ما جرى، ومسكوه من القصر الأبلق وقتلوه، جرى له ولهم فصول يطول شرحها، وسنذكر ذلك في غير هذا الموضع كما ينبغي، إن شاء الله تعالى، ورثاه القاضي صلاح الدين الصفدي بهذه الأبيات: [السريع]

لَمّا بَغَى الجُبُغَا وَاعْتَلَى   إلى السُّهَا في ذَبْحِ أرغُونِ شَاهْ
قَبْلَ انْسِلاخِ الشَّهْرِ في جِلّقٍ   عُلِقَ في عَرْقُوبِهِ مِثْلُ شَاهْ

ثمّ تولّى بعده:

- الأمير الكبير سيف الدين أيتمش الجمدار الناصري.

تولّى وزارة مصر في أيّام الملك الصالح ودخل إلى دمشق في شهر جمادى الآخرة سنة خمسين وسبعمائة، ثم [١٨٦أ] تولّى بعده:

- الأمير الكبير أرغون الكامل نشو الملك الصالح.

وزوّجه بأمّه. وتولّى نيابة حلب في أيّام بيبغا روس.، وجرى له معه أمور يطول شرحها في هذا الكتاب. ودخل إلى دمشق في شهر صفر سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، ولمّا ظفروا ببيبغا روس في بلاد حلب وقطعوا رأسه، وأرسلوه إلى السلطان قال فيه صلاح الدين الصفدي شعراً: [السريع]

لاَ تَعجَبُوا مِن حَلبٍ إذْ غَدَا أرغُون فِيهَا جَبَلاً رَاسِي

مِن أجْلِ هَذاَ لَم نَزَلْ في هَنَا وَبَيْبُغَا رُوس بِلاَ رَاسِ

ثمّ تولى بعده:

- الأمير الكبير عليّ المارداني.

رأس نوبة الملك الناصر.، وكان رأس نوبة في زمان الأشرف، وكان رجلٌ دين عالم، يحفظ القدوري على مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه، وقرأ القرآن، وسمع البخاري، وحجّ مّرتين، وكان في الجود نهاية، رحمه الله تعالى.

ولّما خرج السلطان الملك الصالح، وطاز، وصرغتمش، وشيخو إلى دمشق بسبب بيبغا روس [١٨٦ب] جعلوه في القاهرة نائب غيبة لما يعرفوا من ديانته، ولّما رُدوا إلى القاهرة وقُتِلَ بيبغا روس، اتّفق رأيهم على أن يكون نائب دمشق.

- أمير علي.

فأرسلوه نائب دمشق فدخل إلى دمشق في شهر الحجّة سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وعمل النيابة كما ينبغي، وعمّ الناس إحسانه، وما كان يقبل لأحد شيئاً، ثم عُزِلَ وتوجّه

إلى حلب نائب، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير منجك.

وكان قد تولّى وزارة مصر أيّام وتولّى نيابة طرابلس، ودخل إلى دمشق في شهر جمادى الآخرة سنة تسعٍ وخمسين وسبعمائة، وأقام بها إلى يوم عرفة من السنة المذكورة، وعزل وراح إلى صفد نائب، ثم تولّى بعده:

- أمير علي المارداني.

وردّ من حلب إلى دمشق وفرحت به أهل دمشق كثير، ودخل إلى دمشق في شهر الله المحرّم سنة ستّين وسبعمائة، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير أَسَنْدَمُر اليحياوي.

ودخل دمشق في شهور سنة ستين وسبعمائة، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير بيدمر.

ودخل[١٨٧أ] إلى دمشق من حلب في شهور سنة إحدى وستّين في أيّام الملك الناصر حسن. وفي هذه الولاية عصى بيدمر في القلعة، وجرى له ما جرى، ثم تولّى بعده:

- أمير علي المارداني مّرة ثالثة.

ودخل إلى دمشق في شهور سنة اثنتين وستّين وسبعمائة، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير سيف الدين بيدمر.

ودخل إلى دمشق في شهر شوّال سنة ثلاث وستّين وسبعمائة، ثم تولّى بعده:

-الأمير الكبير منجك ثاني مرّة.

ودخل إلى دمشق في شهور سنة سبعين وسبعمائة، وفرحت به أهل دمشق وعزّل الطرقات من الحجارة من الكسوة إلى الغور. وبنى في الكسوة زاوية ورتب لها سماط للفقراء. وبنى في دمشق دار القرماني، والخان، والحمّام الذي في باب الفراديس، ثم عزل عنها وطلب إلى مصر، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير سيف الدين بيدمر.

ودخل من حلب إلى دمشق في شهر شوّال سنة خمس وسبعين وسبعمائة، وفي هذه السنة كان غلاء عظيم في بلاد حلب حتّى [١٨٧ب] أكلوا فيه الكلاب، والميتة، وجت الناس من بلاد الشمال إلى دمشق مثل التراب، وغلا فيها الخبز أيضاً حتى انباع رطل بدرهمين ونصف، وقاست الناس شدّة، اللّهم ارخص أسعار المسلمين!.

وبيدمر في دمشق قد أهمل مصالح الناس، مشغول بأخذ أموال الناس، وقد طلب منه السلطان الملك الأشرف ماتعتازه العمارة التي له بالقاهرة مثل شبابيك، وأبواب، وصفائح، وحلق، وغير ذلك مما يحتاج إليه العمارة.

وشرع بيدمر يهمل ما طلب منه السلطان، والناس في شدة وغلاء وموت، وبقوا الصنّاع يعملوا في دار السعادة زمان حتّى انتهى العمل، وأعرضوه على بيدمر، وقد ذكر لي من كان مباشرهم في دار السعادة أنّهم جمعوا العمل، وأعرضوه على بيدمر الذي هو من ذهبٍ وفضّةٍ لا غير، مثل صفائح، وحلق، ومسامير، وزوايا، وأطواق، وسواقط، ورِزَز وغلاقات، وهلالات، برسم رؤوس القباب، فجمعوا ذلك كلّه وقبّنوه، فكان ما يزيد على اثني عشر قنطار ذهب وفضّة لا غير. هذا خارجاً [١٨٨أ] عن النحاس المكفت، والذي فوق الخشب، وأرسلهم إلى القاهرة على مائة وستّين جمل.

وطلب بيدمر إلى القاهرة وتمثّل بين يدي السلطان، وأقبل عليه، وأنعم عليه، ورُدّ إلى دمشق وفرحت الناس به، وكان لدخوله يوماً مشهوداً هائلاً. ودخل إلى دار السعادة وحكم بها على عادته.

ثمّ بعد أيّام وصل إليه مرسوم السلطان (أنّك تعمل للحريم زَوايا وطرز، وتعمل أيضاً كنابيش وخلع، وما نعتاز إليه من أمر الحجاز). فعند ذلك طلب التجّار وكبار دمشق وطرح عليهم الأموال وطلب الصنّاع، وأخرج لهم الذهب، والفضّة، وبقوا يعملوا.

وبقيت دار السعادة معمل حتّى ما بقي لأحد موضع يحطّ رجله من الصنّاع: ناس

يزركشون، وناس يخيّطوا، وناس يصوغوا، وناس يعملوا في أكوار، وناس تحزم، وناس تقبّن، وقد ذكر من كان يباشر العمل في دار السعادة أنّه كان من جملة العمل سبعمائة زاوية، في كلّ يباشر العمل في دار السعادة أنّه كان من جملة العمل سبعمائة زاوية، في كل زاوية من ثلاثمائة مثقال إلى خمسمائة مثقال.

وعمل أيضاً إبر ذهب ثلاثة آلاف إبرة [١٨٨ب]، وعمل ألف ومائين زوج طرز يلبغاوي، ومثلها كنابيش، وأخراج أطلس مزركشة، مائة وعشرين خرج، وثلاثمائة كور ملبسة ذهب وفضّة، وستّين ركاب ذهب وفضّة، وسلاسل، ومخاطم برسم الجمال شيء كثير.

وكان يرسل خزانة إلى مصر، وقبل أن تصل إلى مصر يجهز أخرى بحيث أنه تكون خزانة في غزّة، وخزانة في الغور، وخزانة خارجة من دمشق، وخزانة في يد الصنّاع، ولم يقدر نائب يعمل هذا بعد بيدمر.

وفي هذه السنة حجّ السلطان الملك الأشرف، وهي سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وجرى له ما جرى وعزل بيدمر ودخل إلى دمشق: طشتمر الدوادار

وجرى له في دمشق ما جرى.، وأرسلوا نائب إلى دمشق الحنبلي، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير أقطمر الحنبلي.

، وكان ديّن عاقل، ودخل إلى دمشق سنة تسع وسبعين وسبعمائة، وكانت مدّته يسيرة، وتوفّي فيها إلى رحمة الله تعالى، ثم [١٨٩أ] تولّى بعده:

- الأمير الكبير سيف الدين بيدمر.

وكان في دمشق بطّال في بيته، وكانت مدته يسيرة من السنة المذكورة، ثم وتولّى بعده:

- الأمير الكبير كمشبغا، ودخل إلى دمشق سنة ثمانين وسبعمائة وعزل، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير سيف الدين بيدمر.

ودخل إلى دمشق وفرحت الناس به، في شهر المحرم سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة

وعزل، ثم تولّى بعده:

- الأمير عاشقتمر.

ودخل إلى دمشق في شهور سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة، ثم عزل، ثم تولّى بعده:

الأمير الكبير طُرُنْطَاي نيابة دمشق في شهر القعدة سنة [١٨٩ب] تسعين وسبعمائة.

ثمّ تولّى بعده:

- الأمير الكبير شنتمر أخو طاز.

ودخل إلى دار السعادة في أواخر شهر رمضان سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير الناصري.

في شهر شعبان سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير بُطا السيفي.

ودخل إلى دمشق في شهر الحجّة سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، ومات بها، ثم تولّى بعده:

- الأمير الكبير كمشبغا الخاصّكي.

ودخل إليدمشق في شهر شوال سنة أربع وتسعين وسبعمائة، ومات بها، ثم [١٩٠أ] تولّى بعده:

- المقرّ الكريم، العالي، المولوي، المالكي، المخدومي، السيفي، تنبك المحبني الملكي الظاهري.

أدام الله تعالى أيّامه، في شهر الله المحرّم سنة خمس وتسعين وسبعمائة.

وصول الوزير ابن الشهيد إلى دمشق

ثمّ [١٩٠ب] نعود إلى كلامنا. وفي شهر الله المحرّم من السنة المذكورة وصل إلى دمشق المقرّ الشريف العالي المولوي القضائي شهاب الدين [١٩١أ] ابن الشهيد، وطلعت إليه الناس التقوه وفرحت به الناس، ودخل إلى دمشق وهو لابس خلعة

الوزارة، زاده الله تعالى من كل خير في الدارين، فإنّه رجل جيّد كثير الخير، يحب الفقراء، ويحسن إليهم، ويتصدّق عليهم، ويعرف مقادير الناس، وطيّ الجنبة، سمح النفس، كريم الكفّ، جعل الله قواعد سعوده أئمة التشهيد، ومواد إقباله أخذة في المزيد، وأدام شرفه، ورحم سلفه، ولما نزل في داره، وقد فرحت به أهله، وأصحابه، أنشد لسان حالها يقول شعراً: [الكامل]

أَهـلاً بِمقـدَمِكَ السَّـعِيدِ ومَرَحبـاً يـا مَـنْ أَعـادَ قُدُومُـهُ زَمـنَ الصِّبَا

أَحْيَـا النفـوُسَ دُنُـوُّ دَارِكَ مِـثْلَمَا أَحيَـا الَّـذي بِحُلُولِـهِ نَبـتَ الرُّبَـا

ثبت الله قواعد مجده، وأنار كواكب سعده، فهو كما قال فيه الموال موالياً:

هَاْ [١٩١ب] مَنزِلَكْ بِالوزَارَة مَا بَرِح رَاجِبْ

كَفُّـكَ نَـدَاهُ السَّـحَايبْ للعِـدَى سَـاحِبْ

وَأَنـتَ فَرحَـانُ ضِـدَّكْ مَـا بَـرِح نَاحِـبْ

وفِي وِزَارَتِـكَ تُـدعْى صَـاحِبَ الصَّـاحِبْ

قتل إياس

وفي شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وصل من القاهرة مملوك الأمير الكبير جلبان، وخبّر نائب الشام أن السلطان قتل إياس حتى مات، وأن السلطان أنعم على الأمير جلبان بخبزه وبيته، وقد استراحت الناس من إياس، قبحه الله تعالى، ما كان أظلمه، فإنه ما كان في قلبه رحمة، وفي الحديث: «**ارحم من في الأرض، يرحمك من في السماء**»[1].

وفي الحديث: «**إن الله يرحم من عباده الرحماء**»[2].

وكانت أفعاله قبيحة، ليس فيها دقة مليحة، وكان يحب الإفرنج كثير، ويقرّبهم،

---

(١) ورد الحديث في: تاريخ أصبهان لأبي نعيم ١/ ٢١٩.

(٢) لم يرد الحديث بهذه الصيغة في الكتب المعتمدة.

ويمجد قدرهم، وكانوا قد طمعوا في المسلمين في أيامه حتى كان يعبر إليه الرجل من أهل العلم ما يلتفت إليه، ويدخل إليه الفرنج يقف لهم، ويجلسهم إلى جانبه، ويوده، ويتقاضى حوائجه، وكان يميل إليهم كثير، وما ذاك [١٩٢أ] إلا كما قال بعضهم: (شبيه الشيء منجذب إليه).

وأعجب ما جرى له معهم أنه لما كان نائب طرابلس سنة أربع وتسعين وسبعمائة، أراد يأخذ جامع طرابلس يعطيه للإفرنج يعيدوه كنيسة، وكانوا قد أوعدوه بذهب كثير وهو طماع، فقاموا عليه القضاة وكبار البلد، والعوام، وأرادوا يرجموه، ثم إن السلطان عزله، وأرسله إلى دمشق أمير كبير، وهكذا فعل في دمشق، قيل إن في بعض بلاده قطعة أرض وقف على مسجد بلد، فطلبوها النصارى منه يوقفها على دير لهم، فأعطاهم إياها وخلا المسجد بغير وقف، قبحه الله تعالى على هذه الفعال.

وقيل: إنه قطع في بلاد الغور سبعين يد ظلم، وقطع رِجْل رَجُل مسلم لكونه وطئ برجله صليب إفرنجي، وأخرب الغور وهربوا أهله منه، وهو كان سبب هلاكه، وكان من كبار الظلمة لا يرقَ لشاكي، ولا يرحم عبرة باكي، وبقي أهل دمشق معه في ضيقة، وهو لا يسمع من نائب، ولا من حاجب.

وقيل: إنه دخل إليه في [١٩٢ب] بعض الأيام رجل شريف له معه طلب فضربه بالعصى حتى كاد يموت وهو يقول: كرامة لله كرامة لرسول الله. ما يلتفت إليه وبجنبه إفرنجي يحدّثه، ثم إن الإفرنجي شفع فيه فقبل شفاعته، فقال له الشريف: أنا أقول لك كرامة لله كرامة لرسول الله، ما تقبل وتقبل من إفرنجي، اضربني حتى أموت، ولا أقوم بشفاعة عدو الله تعالي.

وقد حضر بعض أصحابي له حكومة، وأحكاها عنه قال: إن فلاحين من فلاحينه تضاربوا، قُتل منهم واحد، فمسكوا أهل المقتول للقاتل ونزلوا إليه يشكوا حالهم، ويقتل الذي قتل قرابتهم، فلما وقفوا قدامه قال لهم: ما تريدون؟ قالوا له: يا خوند هذا قتل أخانا. قال لهم: والقاتل من أين هو؟ قالوا: يا خوند هذا قتل أخانا. قال لهم،

والقاتل من أين هو؟ قالوا: ياخوند الاثنين فلا حينك. قال: مليح هذاك قُتِلَ، وأقتل أنا آخر. وقال لهم: روحوا بلا فشار، فغوشوا أهل المقتول فأرماهم وضربهم بالعصي، وأمر بهم إلى الحبس وترك القاتل.

فانظر يا أخي [١٩٣أ] إلى هذه الأحكام الردية، وإلى هذه الأوصاف الدنّية، وله مثل هذا كثير.، وإنّما اختصرنا هذا حتى بيان الجيّد من النحس، فإنّ الرجل الجيد ما يقدر أحد يتكلّم في عرضه بشيءٍ، وما قتله إلا الطمع وحبّ الدنيا، وعمّر عمائر كثيرة، وكثرت أملاكه، وما علم أنّ عاقبتها هلاكه، وقد فرح بموته كلّ من في دمشق، واتّفق من الاتّفاق العجيب أنّ ثاني يوم زيّنت المدينة. فانظر إلى هذا الظالم، وإلى سيرته الردية، وأفعاله المذمومة مع الرعيّة. أما علم أنّ كلّ راعٍ مسؤول عن رعيته؟، وأن الله تعالى يوقفه بين يديه، ويسأله عمّا فعل من خير وشر؟ فيا ليت شعري ما يكون جوابه، وكيف يكون اعتذاره؟، وقد أجاد بعض الشعراء حيث يقول فيه شعراً: [البسيط]

قَطعَ أيَاسٌ الشَّرِيعَةَ في الأغوّارِ غَيَّرَهَا   وَالظُّلْـمُ فِي الـذُّلِّ، والتَّـوبيخِ صَـيَّرَهُ
طُـرْقَ الشَّرِيعَـةِ فِي الأغـوَارِ غَيَّرَهَـا   مِـنْ أَجْـلِ ذَا غَـارَ رَبُّ العـرشِ غَـيرَهُ

وقد [١٩٣ب] أجاد بعضهم حيث يقول شعراً: [السريع]

قُلْـتُ لَـهُ لمـا قَضَى نَحْبَـهَ   لاَ دَرَّكَ الرَّحمـانُ مِـن هَالِـكِ
أمّـا، وقـد فَارقَتَنَـا فانتقِـلْ   مِـن مَلـكِ المـوَتِ إلىَ مَالِـكِ

ولما ضربه السلطان، وصار بعد عزّه في هَوان، تمثّل بعض الشعراء بهذه الأبيات، وأجاد، حيث يقول شعراً: [الطويل]

أبَـا حَسَـنٍ هَـذا جَـزاءُ الّـذي جَنَـتْ   يَـداكَ فذُقـهُ، والـقَ مَـا أنـتَ لا قِيـهِ
شَـفَى غُلَّتـيِ إِنيِّ رَأيتُـكَ شَـارِباً   بِكَـأسٍ مِـنَ الظُّلـمِ الّـذي أنـت سَـاقِيهِ

وقد قاست أهل دمشق منه الموت الأحمر حتى أراحهم الله تعالى منه.

انحرافات في الجزاء بعد الموت

حكاية:

قال القاضي شمس الدين ابن خلكان وغيره من أرباب التاريخ، عن دلف بن أبي دلفٍ، أنه قال: رأيت في المنام أنّ رجل أتاني وقال لي: أجب الأمير. قمت معه ودخلت داراً وحشةً سوداء مظلمة، ثم أدخلني داراً غيرها [١٩٤أ] أوحش منها، أثر النار في حيطانها، وإذا بأبي دلف وهو عريان، واضع لباسه بين ركبتيه قال لي دلف، فقلت: نعم. فأنشأ يقول: [الخفيف]

بَلِّغــنَ أَهلَنَــا، ولا تُخْـفِ عَـنْهُم   مَـا لَقِينَـا مِـنَ الـبَرْزَخِ الخَفَّـاقِ
قَـد سُـئلنَا عَـن كُـلِّ مَـا قَـدْ فَعَلْنَـا   فَـارحَمُوا وَحشَـتِي، ومـا قَـد ألاقـي

ثم قال لي: فهمت؟ قلت: نعم فهمت، ثم أنشد يقول: [الوافر]

فَلَـو كُنَّـا إِذَا مِتنَـا تُرِكنَـا   لَكَـانَ المـوْتُ رَاحـةَ كُـلِ حُـرّي
وَلكنَّـا إذا مِتْنَـا بُعِثنـا   وَنسـأَلُ بَعـدَ ذَا عَـنْ كُـلّ أَمْـرِي

ثمّ قال لي: فهمت؟ قلت: نعم فهمت.

وكان هذا دلف نائب أمير المؤمنين المأمون على دمشق، وقعد زمان حاكم بها، وكان جواداً وسيرته مليحة في كتب التواريخ. فانظر يا أخي إلى هذا المنام الذي أبصره له ولده، ولو نقله غير ولده كان يُتّهم في ذلك. هذا وسيرته كانت حسنة فما بال مَن سيرته قبيحة؟ اللّهمّ لا تَغْضَب علينا يا ربّ.

وقد ذكر أبو عبد الله محمد الغرناطي في كتابه (التحفة) قال: كان في بلدي رجل حاكم ظالم غاشم، فعند موته بنى له تربة مليحة وزخرفها وبيّضها وعمل ما يحتاج إليه، فلمّا توفّي دفنوه بها فأصبحت التربة سوداء مثل الفحمة، وبقي طالع من قبره دخان أسود يشاهده كلّ أحد وشاع ذكره في سائر البلاد، وكان ذلك عبرة لمن اعتبر من أهل الظلم، ورُدَ بذلك عن الظلم خلق كثير، وكانت الناس تقصده من سائر البلاد حتّى

يتفرّجوا عليه. اللّهمّ أجرنا من النار، يا عزيز ؟ يا جبّار ؟ ومثل هذا مشهور في أهل الظلم، وقد أردنا منه هذا القدر، عسى الله تعالى أن يردّ به ظالم إذا قرأه، ويعتبر بما يراه، فإنّ الرّب ـ سبحانه وتعالى ـ كريم، يقبل التوبة عن عباده. سبحانه لا إله إلا هو.

مدح جلبان

ثمّ نعود إلى كلامنا. وفي شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة يوم الخميس ثامن عشر الشهر، دخل إلى دمشق المقّر الأشرف العالي، المولوي، الأميري، الكبيري، العالمي، العادلي، الزاهدي [١٩٥أ]، العابدي، المجاهدي، المرابطي، المؤيدي، الهمامي، النظامي، الدخري، الغياثي، الملكي، الظاهري، السيفي، جلبان، غيث الأنام، بهجة الليالي، والأيام، منشئ الممالك، والملوك، جَبَر الغني، والصعلوك، السيد السند، الممدوح المحمود، محيي العدل، ناصر الحقّ، مغيث الخلق، أنار الله به البلاد، وأغاث به العباد، وهو كما قال فيه الشاعر، وأجاد، شعراً: [الكامل]

صَلُحَتْ بِهِ الأَيامُ بَعدَ فَسَادِهَا ... وَأَضَاءَ وَجْهُ الأرضِ بَعدَ ظَلاَمِهِ

نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ أَمِيرٍ صَالحٍ ... ظَهَرَتْ نُجُومُ العَدْلِ فِي أيَامِهِ

فلا زال موفور الدواعي، موقوف المحامد على أشرف المساعي، وهو- أعزّه الله تعالى- كما قال فيه الشاعر شعراً: [الطويل]

أَمِيرٌ عَلا فَوقَ السِّمَاكَينِ مَجْدُهُ ... ولكِنْ لأَهْلِ العِلْمِ فِيْهِ تَواضُعُ

تَوَاضَعَ لله فَعَلَّى مَحَلَّهُ ... وَمكَّنَهُ فِي الأرضِ، والسَّعدُ طَالِعُ

وَصَرَّفَهُ فِي المُلْكِ تَصرِيفَ مَالِكٍ ... أَوَامِرُهُ تَجرِي بَما اللهُ صَانِعُ

فَبحرٌ [١٩٥ب] وَلكِنْ بالنَّدَى مُتلاَطِمٌ ... وَحبْرٌ لأَشْتَاتِ الفَضَائلِ جَامِعُ

وقد قال بعضهم: (ما من عبد أنعم الله تعالى عليه نعمةً إلا كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام فيها بما يحبّ الله ورسوله فقد عرضها للدوام، والبقاء، ومن قصر فيما يحبّ الله ورسوله فقد عرضها للزوال، والفناء، فإن النعمة زكاتها العدل).

ولّما دخل إلى دمشق فرحت به أهلها، فإنّه - أعزّه الله تعالى - مشكور السيرة، حسن السريرة، وحاشيته أجواد، وهو رجل عاقل عارف، قريب من الناس، صاحب تدبير في أحكامه، أدام الله تعالى أيّامَه.

وقد قال بعضهم: (التدبير في الرجل زيادة في عمرِهِ، ويصل به إلى بلوغ أمره)، والتدبير هو مضاف إلى العقل، إذا كان الإنسان كامل العقل كان حسن التدبير.

انحرافات في الحكام الصالحين

حكاية في المعنى

قال بعض السلف الصالح: إنّ الإسكندر، رحمه الله، لّما انتهى إلى ملك الصين، ونزل على بلاده حتّى يأخذها كما فعل بغيره، أتاه حاجبه، وقد مضى من الليل شَطْره، وقال له: هذا رسول ملك الصين على باب خيمتك [١٩٦أ] يستأذن في الدخول عليك، فأذن له، فلّما دَخل وقف بين يدي الإسكندر وسلم عليه، ثم قال: إن رَأى الملك أن يَسْتَخْلِيَنِي.

فأمر الإسكندر من كان عنده من أصحابه أن ينصرفوا، وبقي بعض خاصّته فقال له، إنّ الذي جئت فيه لا يحتمل أن يسمعه غيره.

فأمر بتَفْتِيشه فلم يوجد معه شيء من السلاح، فوضع الإسكندر بين يديه سيف وقال له: قف مكانك وقل ما شئت. وخرج كلّ من كان عنده ولم يبق عندهما أحد.

فقال له: أنَا ملكُ الصين لا رسوله، جئت أسألك عمّا تريد، فإن كان يمكن عمله، ولو على أصعب الوجوه، عملته، وأعفيتك من الحرب، والقتال. فقال له الإسكندر، وما خفت مني أن أقتلك؟ قال: لا، فإنّ علمي بك رجل عاقل، وما بيننا عداوة، ولا مطالبة قديمة، وأنت تعلم إن قتلتني لم يسلموا إليك أهل الصين ملكهم، بل يقيموا لهم غيري يقوم مقامي، ثم تنسب أنت إلى غير الجميل.

فطرب الإسكندر كلامه وعرف [١٩٦ب] أنّه رجل عاقل عارف قد جرّب الأمور فقال له الإسكندر: الذي أريد منك ارتفاع مملكتك ثلاث سنين عاجلاً، ونصف ارتفاعها في كلّ سنة. قال: هل غير هذا من شي؟ قال، لا. قال، قد أجبتك إلى ما قلت.

فشكره الإسكندر وانصرف إلى أهله راجعاً. فلمّا كان ثاني يوم طلوع الشمس أقبل جيش ملك الصين حتّى ارتجّت الأرض من كثرتهم، واحتاطوا بجيش الإسكندر حتّى عاينوا الهلاك مع كثرتهم، فإنّه كان في جيشه ألف قاضي يحكموا بين الناس بالحقّ.

وقيل: كان معه من أرباب الصنائع الذي يعتازهم معه في الأسفار من أهل كلّ صنعة أربعين ألفاً، فما يكون هذا الجيش.

ومع هذا خافوا من جيش ملك الصين وفي هذا كفاية. فلمّا قرب إليهم جيش ملك الصين ركب الإسكندر وركبت جيوشه واستعدّوا للحرب، فبينما هم كذلك إذ تقدّم ملك الصين إلى عند الإسكندر وسلّمْ [١٩٧أ] عليه فقال له، إنّي أردت أن أوريك أنّي ما أطعتك من قلّة جيوشي، ولا ضعف رجالي، وإنّ الذي تراه من الجيوش، الغائب أكثر منه، لكن رأيت الله تعالى معك، ومقبلاً عليك، وينصرك على من هو أكثر منك رجالاً، وأقوى منك، وإنّك مُعَانٌ من الله تعالى.

ومن حارب الله تعالى غُلِبَ وقُهِرَ، فأردت طاعته بطاعتك، ودخلت تحت حكمك. فقال له الإسكندر، وقد تحيّر من حسن كلامه وعقله، ليس مثلك من يؤخذ منه شيء، فما رأيت أعرف منك، ولا أحسن تدبير، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك، وأنا منصرف عنك، ثم ردّ كلّ واحد منهم إلى مكانه، ثم بعث له ملك الصين من الهدايا، والتحف أضعاف ما كان طلبه منه.

فانظر يا أخي - وفقك الله تعالى - إلى هذا الرجل العاقل، ما أحسن تدبيره، وأحسن ما قيل في العقل قول شاعر: [الطويل]

فَمَنْ[١٩٧ب]كَانَ ذَا عَقْلٍ وعِلِمٍ وقُدرَةٍ ... وَسَارَ بعَدْلٍ فِي الأنَامِ مَعَ الفَضْلِ
أَتَتْهُ مُلُوكُ الأرْضِ طَوعاً لأمْرِهِ ... وَدَانَتْ لَهُ الأملاَكُ بالقولِ، والفِعْلِ

واعلم أنّ الله تعالى لم يخلق في بني آدم شيئاً أشرف من العقل. وقيل: إنّه اجتمع العقل، والسعادة، فافتخر العقل على السعادة، فقالت السعادة: (دع عنك، والله ما

جئت إلى أحدٍ، وأحتاج إليك).

وقال بعض الشعراءِ في المعنى شعراً: [البسيط]

لاَ تَرقُبِ النَّجْمَ فِي أمْرٍ تُحاوِلُهُ ... فاللهُ يفعَلُ لا جَدْيٌ، ولا حَمَلُ

مَعَ السَّعَادَةِ مَا للنَّجْمِ مِن أثَرٍ ... فَلاَ يَضُرُّكَ مَرِيْخٌ، ولا زُحَلُ

ونحن لا نوافق على أنّ السعادة أشرف من العقل، فقد قال بعض الملوك يوماً لبعض أولاد العرب: (أتريد أنْ تكون أحمق ولك منّي مائة ألف درهم؟ قال: لا. قال: لأي شيء؟ قال: [١٩٨أ] أخاف أن أحمق حمقةً واحدةً تروح المائة ألف دينار، وأبقى طول عمري أحمق فلا أريد هذا). فما أحسن جواب العاقل!.

ومن حسن صفات الملوك العادلة، رحمهم الله تعالى، أن يكون ذا حكمٍ عند الغضب، وذا أناة، عند القدرة، وذا سطوة عند المغالبة، وذا عقوبةٍ عند الاحترام، ويكون سهل النول، حسن النكال، الناس معه بين راجٍ وخائفٍ، فهذه سير الملوك المتقدّمة رحمهم الله تعالى، ورحم من اقتدى بهم وتبعَ آثارهم، فإنّ الدنيا زائلة، والآخرة باقية، والمرجوع إلى الله تعالى، وما يبقى إلا روايات، وأخبار.

ثّم نعود إلى كلامنا. واستمرّ الأمير جلبان في دمشق على أحسن سيرة ولله الحمد. اللّهمّ أصلح حكّامنا يا ربّ العالمين.

تقليد قاضي القضاة الجديد

وفي شهر جمادى الأولى يوم الخميس لبس قاضي القضاة علاء الدين، ثقة الملوك، والسلاطين، مجد الإسلام، والمسلمين، شيخ شيوخ العارفين، خالصة أمير المؤمنين، شرحْ [١٩٨ب] الله صدره، ورفع ذكره، وعلا قدره، ويسّر أمره، ولّما كانت دمشق المحروسة كالشامة في وجنة الشام، وكالجوهرة التي هي أوسط عقد النظام، وقد أزانها أيّده الله تعالى بالحُكّام الرضية، والأخلاق السنية، والعطايا البهية، واتّبع سنّة آبائه الذين كانوا في الدنيا أئمة زمانها، وعلامة أعلامها، رحمهم الله تعالى، وأجرى قلم الصدقات

جري النيل في البلاد، وعمّ بفضله، وإحسانه الحاضر، والباد، فبذلك عظم قدره، وطاب ذكره، وحسنت سيرته، فأتت إليه الفقراء، ومَدَحتْهُ الشعراء، وقد قال فيه بعض الشعراء: [الطويل]

لَمّا نُصِبْتَ إلى الأحكَامِ مُرتفِعاً وَجَرَّ غَيرُكَ أذيالاً مِنَ الخَجَلِ
وَطَّتْ أعَادِيكَ مَا عَلَوْهُ مِنْ حَسَدٍ وَلا عَجِيباً إذا وَطَّوْ، وأنتَ عَلِي

ثبّت الله قواعد مجده، وأنار كواكب سعده [١٩٩أ]، وأن يَهْنَّأ بالمرتبة التي أحلّها، والأحكام التي ملك زمام عقدها وحلّها، وكانوا أحقّ بها، وأهلها، شعر: [الطويل]

خَطِيبٌ وَقَاضٍ وابنُ قَاضٍ ومَجْدُهُ فِعَالٌ وهَذَا فَخرُهُ وَعُلاهُ
فَمَنْ يَنتَسِبْ مِنهُم بِمثْلِ انْتِسَابِهِ وَمَنْ يَرْتَقِي مِن رُتْبَةِ العِلْم مَرقَاهُ
فَلاَ زَالَ مَوْصُولَ الحَيَاةِ بِغبْطَةٍ وَلاَ زَالَ يَلْقَىَ الصالحاتِ وتَلْقَاهُ
وَكَمْ شَهِدَ الفَضْلُ الحَيَاةِ بِغبْطَةٍ وَلاَ زَالَ يَلْقَى الصالحاتِ وتَلْقَاهُ

وهو - حرس الله مجده، وأرغم ضدّه - رحيب الصدر، كريم النفس، عذب اللسان، مطاع الأمر، لازال إماماً للمتقين، وقدوةً للصالحين، وهو كما قيل فيه شعراً: [الوافر]

أخو وَرَعٍ لَهُ التقْوَى شِعَارٌ مُنِيبٌ مُخْلِصٌ سِرّاً وجَهْرَا
لَهُ البُشرَاءُ فِي الدُنيا خَطِيبٌ وَفي الأخرَى فَيرْقَى، ثم يَقْرَا

أدامَ [١٩٩ب] الله تعالى أيّامه، وأنفذ أحكامه، وختم لنا، وله وللمسلمين بخير في عافيةٍ يا رب العالمين.

القحط العظيم

ثمّ نعود إلى كلامنا. وفي شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة في أوائل الشهر طلع حاجب الحجّاب وجماعة إلى عين الفيجة، بسبب قلّة الماء في الأنهر وسدّ مواصي[1] كثيرة

---

(١) مواصي: قُني، تؤخذ من النهر، ولم أقف لها على أصل في المعاجم، ولعلها: مصاصي وهي أصل الشيء ومنبعه، وهذا يعني بعض المنابع الفرعية لتصب فيا بعد في الأصل، اللسان (مصص).

من النهر، وتفقّد حاله، وبقت الناس في ضيقة عظيمة من قلّة الماء وراح يفرغ شهر آذار ونهر بردى ليس فيه ماء يدير حجر طاحون، وغلقوا الناس طواحين كثيرة لقلّة الماء، وتَلِفَتْ أكثر مغلات الناس، ومع قلّة الماء فالمطر قليل جدّاً، وقد عانت الناس الموت، وبقت الناس كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢].

سكارى بغير خمرٍ من الهمّ، لكنّ الرب ـ سبحانه وتعالى ـ كريم، وهو الفعال لما يريد. ولم يبصر أحد في السنين المتقدّمة مثل قلّة الماء في هذه السنة.

لكن ذكر بعض المشائخ أنّ في زمان منجك نائب الشام قلّ الماء ولم يكن هكذا، فطلع إلى عين الفيجة، وجمع الرجال [٢٠٠أ] من وادي بردى، وعزّل النهر، وسدّ مواصي، وتفقّد النهر، وكان المطر قليل أيضاً.

وهذه العين المباركة جميع مياه دمشق، وأنهارها منها، وهي رأس المنبوع، فإن كانت مليحة كانت الأعين ملاح، وإن كانت غير ذلك فلهم أسوة بها.

حكايات من القحط

وقد ذكر بعض مشايخ الفيجة، وهي قرية جوار العين، قال: انقطعت العين في بعض السنين بالجملة، ولم يبقى يخرج منها شيء، ونزلنا إليها ودخلنا فيها، وإذا في صدرها مثل باب معمول من حجر يخرج منه الماء من داخلها، فبينما نحن واقفين متعجبين، وإذا حسّ الماء قد جاء من داخل تلك المواضع، فهربنا إلى خارجها وطلعنا من النهر، وإذا بالعين قد خرج منها الماء قليل قليل حتى تكامل كما كان، وكان انقطاعها مقدار نصف نهار، وأقلّ.

وذكر أنّ ثاني يوم خرج منها الماء متغّير مثل ماء الزيادة قال: والذي حَزَرْنا على سبب انقطاعها وخروج الماء منها متغّير، أنّ قطعة وقعت داخل العين فسدّت الماء من الخروج، فلمّا بَحَّرَ قوي [٢٠٠ب] عليه فأخذه وخرج وهذا هو الصحيح، والله تعالى أعلم. ولم يعلم أحد من أين يخرج ذلك الماء الخارج منها، فإنّ الروم صنعوها، وأتقنوا أمرها وهي من عجائب دمشق.

نكتة في المعنى وجدتها في كتب التواريخ

وهي لمّا أرادوا يعملوا جسر ابن جامع الذي في الغور على الشريعة، طلعت إليه الصنّاع وجمعوا له حجارة ونحتوها وحصّلوا آلته كلّها، وكانت الشريعة زائدة فبقوا حائرين كيف يعملوا في الأساس. فبينما هم ذات ليلةٍ نائمين على حافة الشريعة وقام واحد منهم لحاجته فوجد الشريعة مقطوعة، والأرض يابسة، فزعق على الصنّاع فقال: قوموا اعملوا الأساس.

فقاموا الصنّاع إليها وبادروا واجتهدوا في العمل حتّى طلع الأساس مقدار ذراعين ثلاثة، وإذا بالماء، وقد جاء عليهم مثل الجبال فهربوا منه وصبروا حتّى خفّ، ثم إنّهم بنوا فوق الأساس حتّى فرغوا، ثم إنّهم كشفوا خبر انقطاع الماء فوجدوا سبب انقطاعه أن قطعة من الجبل وقعت [١٢٠١أ] في الشريعة فسدّت الماء وانحبس الماء إلى خلف حتى بنوا الأساس، فلّما قوي الماء استرقّ موضع وخرج منه، وكان ذلك رحمة من الله تعالى حتّى تنتفع الناس به وهذا عجيب.

وفي هذه السنة المذكورة كان الماء قليل في دمشق، والمطر أيضاً قليل، وكذلك بلاد الشمال كان ماء العاصي قليل جدّاً، وماء الفرات كذلك، وتقطّعت أكثر عيون بلاد الشمال، وبلاد الشام، ونشفت أبيار دمشق، وانقطعت عين الكرش بالجملة أيّام بعد أن كانت تدير حجر طاحون، وقد ذكر لي البستاني الذي هي في بستانه أن سبب انقطاعها كانت أهل تلك الناحية يجوا إليها، ويشربوا الخمر عندها، ويفعلوا كلّ قبيح فنشفت، فلّما رأوها نشفت منعوا الناس عن القعود عندها وعزّلوها فجرت قليل مثل غيرها وذلك من فضل الله تعالى على المسلمين، فإنّها ينتفع بها ناس كثير.

وَلِقلّة الماء، والمطر في هذا الزمان غلت الأسعار، وأبيع القمح في هذا الشهر المذكور بثلاثمائة درهم الغرارة، وأكلت الناس الشعير، وأبيعت عشرة أرطال الطحين من الشعير بمبلغ خمسة عشر درهماً، وأكثر، وبقيت الناس في شدة حتّى نظم بعض الشعراء شرح حال الناس، يقول شعراً: [الوافر]

سِـنِينُ القَحْـطِ قَـدْ دَارَتْ عَلَيْنَـا وَعَمَّـتْ لِلكَبِـيرِ مَـعَ الصَّـغِيرِ
وَبِعنَـا الفُـرشَ، والبُسْـطَ الغَـوَالِي وَنِمنَـا بِالثِّيَـابِ عَـلَى الحَصِـيْرِ
لَقِينَـا مِن أذاهَـا مَـا لَقِينَـا وَزَاحَمْنَـا الحَمِـيرَ عَـلَى الشَّـعِيرِ

وأعجب شيء جرى في قلّة الماء في هذه السنة المذكورة، أن إنسان كان عنده قصيل[1]، وقد جاء خيرة فباعه بألف درهم ومائتين بالدرهم الحاضر، على أنه يسقيه للمشتري شربة ماءٍ، فاشترى له ماء بمبلغ مائتي درهم، فلم يكفاه ربعه، فتقايل هو، والمشتري فإنّه وجد ثمنه ما يقوم بسقيه، وقد غرم عليه جمله، فاتّكل على الله تعالى لعلّه أن يسقيه من كرمه، وإحسانه.

وناس كثير جرى لهم [٢٠٢أ] هكذا، اللّهمَ أغثنا يا أرحم الراحمين.

وقد ذكر عماد الدين الكاتب الأصفهاني صاحب (كتاب البستان في تواريخ أهل الزمان) أن في سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، لم يكن فيها مطر قطّ، وكانت في غاية الخصب تعرف بسنة الحشيش، فإنّ الربّ، سبحانه وتعالى، هو اللطيف الخبير بعباده وبلاده: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿إنّ الله يعلم ما لا تعلمون﴾. صدق الله العظيم.

وفي الحديث يقول الله تعالى: **«يا عبدي أنت تريد، وأنا أريد، وما يكون إلا ما أريد»**[2]. سبحان اللطيف الخبير.

وفي زمان تنكز جاءت سنة مثل هذه قليلة الماء، والمطر جدّاً، ولطف الله تعالى بعباده حتّى كانوا ينادوا على الخبز (يا خبيز الهواء). فإنّه تربّى بالندى، والهواء، ذلك من لطف الله تعالى بعباده، فإنّه لا بد لهم من رزقٍ يأكلوه، وقد تكفّل بأرزاقهم، وما أحسن ما قال المثل: (الّذي شقّ الأشداق يأتيها بالأرزاق).

---

(١) القصيل: علف الدواب، اللسان (قصل).

(٢) لم يرد الحديث بهذه الصيغة.

نكتة في المعنى

قال: [٢٠٢ب] كان في زمن الملك الناصر رجل كبير يتوجّه بمكاتبات السلطان إلى أمير العرب مهنّا، قال الرجل: كنت عنده في بعض الأيّام نتحدّث، وإذا برجل يقول له، لك البشارة، يا أمير مهنّا، قد ولدت الفرس الفلانية، وكانت عزيزة عنده ففرح بذلك، ثم جاءه رجل آخر وقال: أظن هذا الفلو ميشوم على أمّه، فقال له مهنّا، ولِمَ ذلك؟ فقال: يا أمير، ما في بزّها، ولا قطرة لبنٍ إلا ناشف، فقال له الأمير: انظر الفلو لا يكون أصمّ يعنى ليس له فم، فذهب ذلك الرجل فنظر إلى المهر وجاء إليه فقال له: صدقت إنّه أصم، قال: فتعجبّت من قوله لذلك الرجل لا يكون أصمّ، وظهر الأمر كما قال، فقلت: يا أمير كيف علمت ذلك؟ قال: أخذت من قول القائل (ما شق الأشْداق إلا، ويأتيها بالأرزاق).

فلمّا قال لي (ليس في ثديها لبن [٢٠٣أ]) عرفت أنّه أصمّ ما لهُ رزق، لو كان في هذه الدنيا رزق كان في بزها اللبن. قال: فتعجّبت من ذكاه وحسن معرفته، وما أحسن هذه الحكاية، فيها عبرة لمن اعتبر.

وقد ذكر العماد الكاتب أيضاً قال: إنّ المنجّمين في بعض السنين ذكروا أنّ تلك السنة تكون كثيرة الماء جداً حتّى يخاف على الناس من السيول، وخافت الناس من ذلك، فكان ضدّ ما قالوا، وكان الماء قليل في تلك السنة كثير، حتّى هلكت الناس من قلّة الماء. قبّحهم الله تعالى ما أكذبهم.

وفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة أيضاً ذكر بعض المنجّمون أنّ ليلةً في تلك السنة المذكورة تكون كثيرة الهواء، تخرب به دور كثيرة، ويقلع الأشجار، ويهلك الناس، ولا ينجو منه إلا من يأوي إلى الجبال، والمغاير.

فخافوا الناس من ذلك، وكان في دمشق رجل منجّم يقال له عبّاس، وله بعض [٢٠٣ب] إصابات، ثم إنّه اتّخذ له مغارةً، ووضع فيها جميع ما يحتاج إليه، فلمّا كانت تلك الليلة المعنيّة عَمِد إلى المغارة حتّى يبات فيها خوفاً من الهواء، والناس في شدّة من

قولِهِ، فأرسل صفي الدين ابن القابض، وأخذ منه مفتاح المغارة وقال له: ما تسلْم أنت وتهلك الناس، لك أسوة بكلّ من في دمشق.

قال: فبات المنجم في همٍّ عظيمٍ ولم يهب في تلك الليلة هواء يحرك ورقة، حتّى أنّ الناس شكوُا الحرّ، والوهج في تلك الليلة، فانظر يا أخي إلى كذب هذه الأقوام، ولقد صدق الذي قال فيهم حيث يقول شعراً: [الوافر]

أَعَرَّافَ النُّجُومِ أَحَلْتُمُونَا ... عَلَى عِلْمٍ أَرَقُّ مِنَ الهَبَاءِ

كُنُوزُ الأَرضِ قَد خَفِيَتْ عَلَيكُم ... فَكَيفَ عَرَفتمُوا عِلمَ السَّمَاءِ

وقلّة الماء ليس بعجيب، فإنّ الدنيا انقامت على مثل هذا الحال، ما دامت الأنهر تنقطع وتجري وتنقص وتزداد [٢٠٤أ]، وكذلك الأنهار الكبار، والصغار تارةً تنقص وتارةً تزيد، فسبحان الفعال لما يريد.

وقد ذكر القاضي كمال الدين ابن الصائغ في تاريخه أنَّ سنةَ سبع وسبعين ومائتين من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، والسلام، لم يطلع نيل مصر بالجملة، وغلت الأسعار بها في تلك السنة، وبقت الناس في شدة ولطف الله تعالى بعبادة، فإنّ الشدّة ما تدون. ومن كلام علي بن أبي طالب أنّه قال: (أودُ أن أكون في شدّةٍ وانتظر الفرج، ولا أكون في فرج، وأنتظر شدّة) (رضي الله عنه).

وكذلك الفرات، والعاصي وسائر الأنهار لم تزل تنقص وتزيد، وسنذكر مخارج الأنهار الكبار، والصغار، وكل نهرٍ إلى أن ينتهي، ليزداد قارئ كتابنا به معرفة، وقد ساقنا إلى هذا الفصل نقصان نهر دمشق بردى كما ذكرنا وبالله المستعان.

منابع الأنهار ومصبها

فنقول [٢٠٤ب] مخرج نهر سيحون من بلاد الروم، وإذا انتهى يصبّ في البحر الشامي.

مخرج جَيحُون، وهو نهر المصيصة، يخرج من بلاد الروم أيضاً، وينتهي إلى البحر الشامي.

مخرج نيل مصر من عند جبل القمر، ويصبّ بعضه في دمياط في البحر الرومي.

مخرج الفرات من قاليقلا، وهي بأرض الروم، يستمدّ من عيون كثيرة، ويجيء منبج، ويخرج على ميلين من ملطية، ويجيء سميساط، فيحمل من هناك السفن.

مخرج الدجلة من جبال آمد، ويمرّ بجبال السلسلة، ويستمدّ من عيون كثيرة من نواحي أرمينية، ثم تصبّ بعضها في البطائح، ويصبّ باقيها في البحر الشرقي.

مخرج نهر أنطاكية، وهو العاصي، أصله من بلاد الشام مما يلي طريق إربد[1]، وهو يجري مع الجنوب، ويصبّ في بحر الروم.

مخرج قويق نهر حلب [٢٠٥أ] من قرية يقال لها سبنات على سبعة أميال من دابق، ثم يمرّ على حلب، ثم إلى المرج الأحمر، ثم يصبّ في الأجمة.

مخرج ماء الشريعة[2] من بلاد حوران ومن عيون تسيل إليها من تلك النواحي وغالبها من حوران، فإنّ في بلاد حوران أربعة عشر وادي، سبعة منها تروح صوب البرية، وسبعة تنزل صوب الشريعة وتنتهي إلى بحيرة طبرية، والله أعلم بذلك كلّه.

مخرج نهر دمشق من عين الفيجة، وهي أصل المنبوع، ويضاف إليها عيون التوت وغيرها من العيون، ويتفرق منه مياه دمشق، والذي يَفْضُل عن دمشق وبلادها يخرج إلى المرج ينتفعوا به، ومهما فضل منهم يصبّ في البحرة.

الاستسقاء

ثمّ نعود إلى كلامنا. وفي تاسع عشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة ركب قاضي القضاة، والمحتسب وجماعة وجاءت الناس من كلّ مكان بالمصاحف، والسناجق واجتمعْ [٢٠٥ب] خلق كثير بسبب قلّة المطر. فإنّه قرب فراغ شهر آذار ولم يقع فيه مطر، وفي الحديث **«السنةُ بآذارها»**[3].

---

(١) لم أقف على اسم هذه البلدة وهي غير إربد التي في الأردن.

(٢) يقصد نهر اليرموك.

(٣) لم يرد الحديث بهذه الصيغة.

فركب القاضي، والناس معه وبقوا في تهليل وتكبير وبكاء ودعاء إلى الله تعالى، والناس يطلبوا من الله تعالى أن يغيثهم، وأعلموا الناس أن يصوموا ثلاثة أيام، وفي يوم السبت، وهو الرابع يخرجوا يستسقوا، وكان يوماً مشهوداً، فصامت الناس من يوم الأربعاء إلى يوم السبت ولم يطبخ في دمشق طبّاخ من بكرة، ولا فتح خبّاز، وصاموا الناس بأجمعهم إلا من له عذر، وبقوا الناس في الجوامع، والمساجد يطلبوا من الله تعالى أن يغيثهم، وكثرت في هذه الأيّام المواعيض[1]، والذكر، والدعاء وخافت الناس من الله وتاب كثير من الناس، وحصل لهم الخير وبقوا الناس ينهوا عن الفواحش، والناس ينشدوا في المواعيد هذه الأبيات شعراً: [البسيط]

يَا مَنْ يَغِيثُ الوَرَى مِنْ بَعدِ مَا قَنطُوا ... اِرْحَمْ عَبِيداً أَكُفَّ الذُّلّ قَدْ بَسَطُوا
وَاسْتَنزَلُوا[٢٠٦أ] جُودَكَ المَعهُودَ فَاسْقِهِم ... رَبَّا يُرِيهِم رِضاً مَا شَانَهُ سَخَطُ
وَعَامِلِ الكُلّ بِالفَضْلِ الذي أَلِفُوا ... يَا عَادِلاً لا يُرَى فِي حُكْمِهِ شَطَطُ
إنَّ الهَائِمَ أَضْحَى المَحْلُ مَرْتَعَهَا ... والطَّيرُ أصبَحَ لِلْحَصْبَاءِ يَلْتَقِطُوا
وَالأرضُ مِن حُلَلِ الأزهَارِ عَاطِلَةٌ ... وَكَانَ لِلزَّهرِ فِي فَيْحَائِهَا بُسُطُ
فَأَنْتَ أَكْرَمُ مَسئُولٍ تُمَدُّ لَهُ ... أَيدِي العُصَاةِ، وإن جَارُوا وإنْ قَسَطُوا
فَمَا ذُنُوبُ الوَرَى فِي جَنبِ رَحْمَتِهِ ... وَهَل يُقَاسُ بِأَعلَى الأَبْحُرِ النُّقَطُ

وكانت الناس إذا سمعوا هذه الأبيات يتباكوا، ويتضرعوا إلى الله تعالى، وبقت الناس على هذه الحالة إلى يوم السبت رابع عشرين الشهر المذكور، فعند ذلك خرج [٢٠٦ب] الناس إلى سطح المزّة يستسقوا في سطح المزّة، وطلعت القضاة مشاةً ومعهم المصاحف، والسناجق، والناس في دعاء وذكر وابتهال إلى الله تعالى.

وطلع حاجب الحجّاب، وكل أمير في دمشق ماشين، وكان النائب في الغور،

---

(١) في الأصل المواعيد، لا معنى لها.

وطلعت العلماء، والمشايخ، والفقهاء، والفقراء، وكان غالبهم حفاة باكين متذلّلين خاضعين، وقد اتّبعوا السنّة، وطلع جميع الصبيان الذي في المكاتب، وعلى رؤوسهم المصاحف يذكروا الله تعالى، وطلع معهم الشيخ إبراهيم الصوفي ليستقوا به، فإنّه شيخ كبير ورجل صالح، وهذه العوائد.

وطلعت الناس خلف بعضهم بعض في بكاء ودعاء واستغفار متذلّلين بخشوع وانكسار يطلبوا من مولاهم، وهم خلق لا يُحْصِي عددهم إلا الله تعالى، من أبواب المدينة إلى سطح المزّة، ما تشقّ بينهم إلا بالكتف من كثرتهم، وانتشروا في سطح المزّة وفي خلف الجبل.

ونُصِبَ لقاضي القضاة منبر في الوطاة[1] على جاري عوائد الناس، وبقوا الناس واقفين بين يدي الله تعالى مثل يوم القيامة [٢٠٧أ]، منتظرين رحمته، وإحسانه سبحانه لا إله إلا هو، وكان نهار غيم خفيف واستبشروا الناس به، وقد عملوا الناس السنّة كما أمِروا فغار الشيطان منهم لمّا رآهم في هذا الخير العظيم، لأنّهم كانوا بأجمعهم على قلب واحد في بكاء واستغفار، وإقلاع عن الذنوب، فصعب ذلك على الشيطان ولم يزل حتّى فعل ما سنذكره فَلَعَنَهُ الله.

قتل ابن النشو

فبينما الناس واقفين منتظرين الإمام حتّى يطلع على المنبر، وإذا بضجّة عظيمة قريب المنبر وجفلت الناس حتّى ظنّ البعيد عنهم أن السماء أرعدت فاستبشر بذلك، وما عرف أنّها مصيبة، ولا بقي أحد يعرف ما الخبر، وتشوشّت خواطر الناس، ثم بعد ساعة ظهر الخبر أنّ ابن النشو السمسار وثبوا عليه وقتلوه العامّة فإنّهم كانوا يبغضوه كثير، وقد ضيق على الناس، وقد زاد في الأمور، وما بعد الزيادة إلا النقصان.

وقد تطلّع إلى أرزاق الناس [٢٠٧ب]، فإنه كان يأخذ غالب مغلاّت دمشق يشتريها،

---

(١) الوطاة: الأرض كلمة عامية.

ويحتكرها، ويبيعها مثل ما يريد، وكذلك يفعل في غالب البضائع، والربّ، سبحانه وتعالى، قد أنعم عليه بدنيا متّسعة، وبقي كلّ يوم في زيادة، وانتقل من السَّمسرة إلى أن أخذ إمرية وباشر وظائف كثيرة في دمشق، منها المراكز، والمهمّات، ودار الضرب، والأغوار، وصار نائباً لملك الأمراء في غالب هذه الوظائف، والنائب كان يحبّه، ويقرّبه، فإنّه كان يخدمه، والدنيا محبوبة، وما على يده يد في دمشق. وبقي يطرح على الناس البضائع ولم يقنع بما أعطاه الله تعالى إلا هلّ من مزيد، وأهل دمشق تعرفه وهو مغربل[1] في باب الفرج من قريب، وما بقي يكبر في عينهم حتّى نفذ فيه حكم الله تعالى، والله تعالى يمهل الظالم وبقبضه ما يفلته، لا مردّ لحكمه.

وقال بعضهم: إذا أراد الله تعالى إنفاذ قضائه وقدره سلب أهل العقول عقولها حتى ينفذ القضاء، والقدر.

وكانت الناس تدعي عليه الليل، والنهار الصغير، والكبير، وما كانَ الناس اجتمعوا في هذا المكان إلا لقتله، فأهلكه الله تعالى في هذا الجمع العظيم، وكفى بهذه عبرة للظلمة، ووقع في قلوبهم روعةً عظيمةً لمّا رأوا ما حلَ به، وكان سبب قتله أنّه لمّا طلع مع الناس إلى منيّته برجليه، وما أحسن ما قال بعضهم في هذا المعنى شعراً: [الوافر]

إلى حَتْفي أرَى قَدَمي أرَى قَدَمي أراقَ دَمي

وكان قد زاد وبغضته الناس، فإنّ الناس في شدّة من الغلاء سنة على سنة، وهو يحتكر الطعام، وهلكت الناس وهو يقف في طريقهم كما ذكرنا، فأضمروا له أنّهم يقتلوه، وما قال أحد أنّه يطلع إلى المزّة، ويردّ سالم: (والفال موكّل بالمنطق)، وما كان موضع قتله قتل الله القاتل فإنّه نكّد على الناس بقتله، وكان مشؤوم في حياته ومماته.

ثمّ إنّه قعد بين الناس عند ناظر الجيش [٢٠٨ب] قريباً من المنبر ومعه جماعة من كبار الناس، وبقي خائف من الناس، وبقوا يشتمونه في وجهه، ويدعوا على الظالم، ويفتحوا

---

(١) المغربل: الذي يقوم بغربلة الحبوب لابعاد الزؤان وغيره من الحبوب.

معه باب شرّ، فقام من بين الناس صبي صغير ورماه بحصاةٍ صغيرة، فلمّا رأوا الناس ذلك رموه بالحجارة، فوثب حتى يهرب فبادر إليه عبد وضربه أرماه، ووضعوا الناس أيديهم فيه حتى مات تحت أرجلهم.

وقد انقلبت الناس بعضهم على بعض فرحاً بموته، الكبير منهم، والصغير من العوامّ وغيرهم من الجهلة، واشتغلت قلوب الناس عن الذي كانوا فيه في ساعة واحدةٍ، وبطّلوا البكاء، والدعاء، والاستغفار واشتغلوا به، ولم يرضَ بهذا الأمر من عنده عقل ودين، فإنّ هذه مصيبة، وأي مصيبة قتل النفس التي حرمها الله تعالى، ولم يجب عليه قتل بسيف الشرع، وتشارك أكثر الناس من العوامّ في دمه إلا من عصمه الله تعالى، ولم يعرف أحد كيف خطب الخطيب وبعض الناس صلّى وبعضهم لم يصل، وكان مثل يوم [٢٠٩أ] القيامة لا يشتغل أحد بأحد، وفرح الشيطان بذلك غاية الفرح وانسرّ غاية السرور، فإنّه كان قد عاين الموت لّما رأى الناس قد طلعوا على تلك الحالة المذكورة، وما هم عليه من الخير. اللهم لا تجعل للشيطان علينا سبيلاً، يا رب العالمين!

ونزل الخطيب من على المنبر، وقد تفرّقت الناس ولم يقع مطر، وبقي أكثر العوامّ يقول: قد رُحمنا بقتل ابن النشو، وقد صدق الذي قال إن العامّة عمى، ثم أخذوه بعد أن قطعوا رأسه وربطوا رجليه وجروه إلى المدينة إلى تحت القلعة، وكانوا خلق مثل التراب، ثم إنّهم أحرقوه بإيديهم ولم يقل لهم أحد من الترك، ولا غيرهم شيء، ثم أنّ العوامّ نهبوا بيته ودياره، وأخربوا حمّامه وبستانه على ساعةٍ واحدةٍ، ووجدوا في بستانه أحقاق خمر، وأعجب من هذا كلّه أنّ العوامّ لّما خربوا بيته الذي في أرض النيرب بقي كل من يجيب معه شيء من الخشب يرميه عليه [٢٠٩ب] تحت القلعة، ويحرقوه به، قبحهم الله ما أقلّ خيرهم، وهذا من أعجب العجب بقي يحترق بماله في الدنيا، واختفوا أهله، وخربت دياره، ونهبوا ماله، وما كأنه كان في الدنيا على ساعة واحدة، صدق الله العظيم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

فتعلم يا أخي أنّ هذه الدنيا من تمسك بها ندم، فإنّ الواثق بها خجلان، وما أحسن ما

قال علي بن عيسى في هذا المعنى شعراً: [البسيط]

مَـا النَّـاسُ إلا مَـعَ الـدُنيَا وصَـاحِبِها فَكَيْـفَ مَـا انقَلَبَـتْ يَوْمـاً بِـهِ انقَلَبـُوا

يُعَظّمُـونَ أخَـا الـدُنيَا فَـإنْ وَثَبَـتْ يَومـاً عَلَيْـهِ بِـمَا لاَ يَشْـتَهِي وَثَبُـوا

وما أقلّ عقول طلاب هذه الدنيا الذي تفعل بهم هذه الأمور وهم يرغبوا فيها، ويطلبوها، ولا يرجعوا عنها.

حبّ الدنيا

حكاية:

قيل إنّ إنسان مرَّ على مكان وجد فيه ذهباً، فبينما هو واقف، وإذا ثلاثة قد أقبلوا عليه فقالوا له: ما هذا ؟ قال: ذهب وجدته في هذا المكان وهو لي ولكم، ثم [٢١٠أ] إنّهم جاعوا، فذهب منهم واحد ليحضر لهم طعاماً، فقال في نفسه: اسم لهم الطعام فإذا أكلوا ماتوا وآخذ أنا الذهب وحدي، ثم إنّه سمّه لهم وجاء به، ثم إنهم قالوا مثل ما قال الذي سمّ لهم الطعام، واتّفقوا عليه أنّهم يقتلوه، ويأخذوا الذهب، فلمّا حضر الطعام وثبا عليه وقتلاه، ثم إنّهم أكلوا الطعام المسموم فماتوا كلّهم حول الذهب. فانظر يا أخي إلى هذه الجماعة، كيف قتلهم الدنيا وبلغ أحد منها ما طلبه.

ولمّا جرى لهذا الرجل ما جرى من هذه الأمور المذكورة، وقد نزلت به هذه الفتنة على ساعةٍ واحدةٍ نظم بعض الشعراء في المعنى شعراً: [الوافر]

ألاَ لاَ تَقْـرَبِ الأَوْبَـاشَ إنّـا وَجَـدْنَا ربحنَـا مَعَهُـم خَسَـارَهْ

خَرَجْنَـا نَطْلُـب السُّـقيَا جَمِيعـاً فَأمْطِرْنَـا بِأيْـدِيهِمْ حِجَـارَهْ

قصص عن استسقاءات لم تحقق في الحال

ولمّا انقطعت هذه الحركة وردّت الناس ولم يمطروا بقيت خواطر الناس مشوّشة لقلّة عقلهم. يقولوا كيف طلع في هذا اليوم العلماء، والمشايخ، والفقراء ولم يمطروا، وما يقول هذا إلا من ليس له عقل فإنّ الأمور كلّها بيد الله وهو الفعال لما يريد. قال الله

تعالى في كتابه العزيز: ﴿ إن الله يعلم ما لا تعلمون ﴾.

وفي هذه الآية كفاية في مثل هذا الموضع لم يتدبّر، والله تعالى كريم حَليم، إن شاء يرزق عباده بمطر، وإن شاء رزقهم بغير مطرٍ، سبحانه لا إله إلا هو، ولم تزل الأولياء، والأنبياء، والصلحاء على مثل هذه الحالة يستسقوا، تارةً تمطر وتارة لم تمطر، وليس هذا بعجيب.

وقد استسقى موسى، صلوات الله عليه، بقومه بني إسرائيل يوماً على يوم ولم يمطروا، وهذا أمر قديم، وقيل إنّ موسى لمّا خرج في بني إسرائيل حتى يستسقوا وكانوا سبعمائة ألف روحٍ، فلمّا طلع بهم يوماً على يوم ولم يمطروا شكا ذلك إلى ربّه فقال له الربّ سبحانه وتعالى: يا موسى إنَّ بينكم رجلٌ عاصيٌّ، وقد مُنِعْتُم الغيث به فَأَمُرْه أن يخرج من بينكم حتى تسقوا.

فقام موسى في بني إسرائيل وقال لهم: ماقال له ربه عن الرجل العاصي، ثم [٢١١أ] قام موسى في بني اسرائيل وقال: (ناشدتك الله تعالى أيّها الرجل العاصي إلا ما خرجت من بيننا فقد منعنا الغيث بسببك). قال:، وكان ذلك الرجل له أربعين سنةً يبارز الله تعالى بالمعاصي، فعرف نفسه أنّه هو المطلوب.

وقد ناشده نبي الله موسى بالله أن يقوم، ويخرج من بين الناس وقال في نفسه: (إن قمت انفضحت بين بني إسرائيل أنا، وأهلي، وولدي، يقولون هم أولاد العاصي، وإن قعدت أخاف). فحار في أمره، ثم إنّه أخلص نيّته مع الله تعالى وبكى وتاب إلى الله تعالى توبةً نصوحةً.

وفي الحديث «إن التائب من الذنب كمن لا ذنب له»(١).

قال: (فأمطروا ولم يخرج من بينهم أحد فتعجب موسى من ذلك وقال: يا ربّ، أنت قلت عن العاصي أنّه فينا، وما تمطر علينا حتّى يخرج، وما خرج أحد، وقد مطرنا من

---

(١)لم يرد الحديث بهذه الصيغة.

فضلك، وإحسانك. قال الله تعالى: يا موسى قد عصاني أربعين سنة [٢١١ب]، وما فضحته، أفضحه، وقد تاب إليّ؟ فسبحان الستار.

وكثير من الأولياء استسقوا، وما سقوا وبعد ذلك يسقيهم الله تعالى وهذا أمر لا يطلع عليه غيره فسبحان الفعال لما يريد.

وقد ذكر صاحب كتاب (الكنز المطلوب في مناقب الحبشة، والنوب) عن ابن المنكدر قال: احتبس عنّا المطر في المدينة في بعض السنين. قال: فخرج الناس يستسقوا فلم يسقوا ورجعوا، فلمّا كان من الليل جئت صلّيت عشاء الآخرة في مسجد رسول الله (ﷺ)، واستندت إلى الحائط ولم يراني أحد، فجاء رجل أسود تعلوه صفرة مّتزر بكساء، وعلى رقبته كساء، فتقدم وصلّى ركعتين وجلس وقال، وأنا أسمعه، يا رب، خرج أهل حرم نبيك يستسقون فلم تسقهم، وأنا أقسم عليك إلا ما سقيّتهم. قال ابن المنكدر: فقلت مجنون أظنه، فوالله ما وضع يديه حتّى سمعت صوت الرعد، وقد مطّرت.

قال: فلمّا سمع المطر حمد الله تعالى بمحامد لم أسمع بمثل، ثم قال: ومن أنا، وما أنا يا ربّ حتى أُستجيب لي؟، ثم قام ولم يزل يصلّي حتّى صلّينا الصبح، فصّلى معنا، فلمّا سلّم الإمام قام وخرج فخرجت خلفه [٢١٢أ] حتّى أعرفه، فصار يرفع ثوبه حتّى يخوض الماء وتبعته أرفع ثوبي، وأخوض خلفه، فلم أدر أين ذهب.

فلما كان ثاني ليلة صلّيت وجلست، وإذا به قد جاء ولم يزل يصلّي حتّى صلّى الصبح وسلّم الإمام، فقام وخرج فتبعته حتّى دخل إلى دار في المدينة أعرفها، فرجعت وجلست حتّى طلعت الشمس، ثم خرجت حتّى لقيت الدار، وإذا به إسكافٍ يعمل الأخفاف، فلمّا رآني عرفني وقال: مرحباً، ألك حاجة ؟ فقلت، لا، ثم جلست وقلت: ألست بصاحبي البارحة وبارحه أمس ؟ فلما سمع ذلك منّي أبيضّ سواده وصاح، يا ابن المنكدر ما أنت وذلك ؟ ففزعت منه وقمت عنه. فلمّا كانت الليلة الثالثة رقبته في المسجد فلم يجئ، فلمّا أصبحت قصدت داره، وإذا باب البيت مفتوح، وما في البيت شيء، فقالوا لي جيرانه، يا عبد الله ما لك ولهذا الحبشي بالأمس ؟ فقلت: وما فعل ؟

قالوا: لمّا قمتَ من عنده بسط كساه وجمع حوائجه وحملها وذهب. قال ابن المنكدر: فطلبته بعد ذلك في جميع البلاد فلم أره.

وقد ذكر أيضاً [٢١٢ب] صاحبُ كتاب (الكنز المطلوب). قال: روى مالك قال: احتبس علينا المطر في مدينة البصرة في بعض السنين فخرج الناس يستسقوا وخرجت أنا وعطاء السلمي، وثابت البناني، ومحمد بن واسع، وحبيب العجمي، وصالح السري، في جماعة من الفقراء حتّى أتينا المصلّى مع الناس، واستسقوا فلم تمطر علينا، وردّ الناس، وأقمت أنا في المصلّى إلى الليل، وإذا قد دخل إلى المصلّى رجل أسود، دقيق الساقين، عليه مئزران من الصوف، فصلّى ركعتين، ثم رمق بطرفه إلى السماء وقال: سيّدي إلى متى تردّ عبادك فيما لا ينقصك أَنَفَذ ما عندك؟ أقسمت عليك بحبّك لي إلا ما سقيتنا غيثك الساعة الساعة الساعة! فوالله ما أَتَمَّ كلامه حتّى غيّمت السماء ومطرت كأفواه القرب، فَعجِبت من الأسود، وما قال: فقمت إليه وقلت له: أما سمعته يقول، سبحانه وتعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

فقدّم محبّته لنا على محبّتنا له ولولا محبّته لي ما أوجدني، ثم تركني وانصرف.

وقد ذكر أيضاً [٢١٣أ] صاحب كتاب (الكنز المطلوب) يسنده إلى عبد الله بن المبارك قال: قدمت إلى مكّة في بعض السنين، وقد أصابهم قحط عظيم، فخرج الناس للاستسقاء في المسجد الحرام، فكنت مع الناس وهم يدعون وليس، ثم مطر، وإذا غلام أسود، عليه قطعتا عباءة، فوقف في موضع خفيّ قريب منّي فسمعته وهو يقول: إلهي أَخْلَقَت الوجوه كثيرة الذنوب ومساوئ الأعمال، وقد منعتنا غيثك حتّى تؤدب عبادك، يا من لا تعرف عباده منه إلا الفعل الجميل، اسقهم الساعة الساعة الساعة! ولم يزل يقل الساعة حتى استوت السماء بالغمام، وأقبل المطر من كل مكان، فجلس مكانه، ثم قام، فتبعته حتّى دخل دار النخّاس فجئت إلى الفضيل بن عياض فقال: ما لي أراك تبكي ؟ فقلت: سبقنا إليه غيرنا.

فقال: وما ذاك ؟ فَقَصصْتُ عليه القصّة، فصاح وسقط، وقال:، ويحك يا ابن

المبارك! خذني إليه. فقلت: قد ضاق الوقت، إلى غداً، فلمّا كان الغد، صلّيت الصبح وخرجت أريد موضع الغلام، وإذا [٢١٣ب] الشيخ النخّاس جالس على باب الدار، فلمّا رآني قال: مرحباً، ما حاجتك؟ قلت أريد لي غلام، فصاح النخّاس على الغلمان، وأعرضهم عليّ واحداً بعد واحدٍ حتّى خرج الغلام، فلمّا رأيته عرفته قلت: هذا أريد، قال: ما أبيعه فإنّي أتبرّك به، وما يأكل لي شيء. فقلت: ومن أين يأكل ؟ قال: يعمل كل يوم في الشريط بنصف درهم يقتات به، وأخبرني عنه الغلمان أنّه ما ينام الليل.

فقلت: تردّني خائب بغير قضاء حاجتي، فقال: خذه بما شئت. فوزنت له عشرين ديناراً، وأخذته وانصرفت. فلما خرجت به قال: يا مولاي، قلت: لبيّك، ما حاجتك يا حبيبي ؟ فقال: أنا ضعيف البدن، ولا أطيق الخدمة، وقد كان لك في غيري منفعة، وقد وجدت من هو أقوى منّي على الخدمة، فقلت: لا يراني الله تعالى، وأنا أستخدمك، لكن أنا أخدمك بنفسي.

قال: فبكى، فقلت له: ما يبكيك ؟ قال: إنّك لم تفعل بي هذا إلا، وقد رأيت بعض متّصلاتي بربّي، فقلت: نعم دعوتك عند الاستسقاء، قال: أنت رجل صالح، فإن الله عزَّ وجل، خيرةً من خلقه، لا يطلع عليهم إلا من أحب من عباده، ثم قال: ترى أن أجوز [٢١٤أ] أصلّي ركعتين في هذا المسجد، قلت: هذا منزلي قريب، قال: لا بل هنا أمر الله لا يؤخّر، فأذنت له فدخل فسمعت[ـه] ينشد هذا البيت المفرد: [البسيط]

يَا صَاحبَ السِّرِّ إنَّ السِّرَّ قَدْ ظَهَرا فَلاَ أُرِيدُ حيَاةً بَعدَ مَا اشتَهَرَا

ثمّ إنّه صلّى، والتفتُّ إليه وقال: يا عبد الله هل لك من حاجة ؟ قلت: وما تريد ؟ قال: إنّي أريد الانصراف، قلت: إلى أين ؟ قال: إلى الآخرة، فقلت: لا تفعل. دعني أسَرُّ بك. فقال: إنما كانت تطيب الحياة حيث كانت المعاملة بيني وبينه، فلمّا اطّلعت عليها اطّلع عليها غيرك، ثم إنّه سجد وجعل يقول، اللّهم اقبضني إليك الساعة، فدنوت منه فإذا هو ميّت رحمه الله تعالى.

فانظر يا أخي إلى هؤلاء القوم كيف استسقوا كلّهم ولم يمطروا في أوّل مرّة في مثل ذلك الزمان، ومثل تلك السادات، ثم بعد ذلك أمطروا بدعوات هذه الأولياء فما هو عجب إذا لم تمطر في هذا الزمان في يوم الاستسقاء، والخير عند الله تعالى كثير وقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ [٢١٤ب] ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

فالربّ سبحانه وتعالى كريم، وهذا الفصل في من استسقى ولم يسقى في أوّل مرّة من الأنبياء، والأولياء، والصالحين حتّى تطيب قلوب أهل هذا الزمان، ويعلموا أنّ هذا الأمر قديم، وأن الله على كل شيء قدير.

ومن الأنبياء، والأولياء، والصالحين من استسقى ومطرت عليهم في الحال كثير، فقد استسقى بعد موسى عليه السلام، داود عليه السلام، فجمع قومه وخرج بهم كما ينبغي، واجتمع العلماء الذين كانوا في زمانه عنده، فاختار منهم ثلاثة يدعون بالناس وداود وقومه يؤمّنوا على دعائهم. فقام الأول فقال: (اللهمَّ أنت أمرتنا في كتابك التوراة أن لا نظلم أحداً، وقد ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا وارحمنا). فقال داود وقومه: (آمين)، ثم قام الثاني فقال: (اللهمَّ أنت أمرتنا في كتابك التوراة أن لا نردّ أحداً عن بابنا، وقد أتينا بابك فلا تردّنا خائبين). فقال داود وقومه: (آمين)، ثم قام الثالث فقال: (اللهمَّ أنت أمرتنا في كتابك التوراة أن نعتق رقاب عبيدنا، فاعتق رقابنا واسقنا الغيث من فضلك يا أرحم الراحمين). قال: فما ردّوا حتّى سقوا [٢١٥أ] من فضل الله تعالى.

وقد قال بعضهم إن المكان الذي استسقى فيه داود، عليه السلام، كان عند جبل فسمعوا من خلف الجبل ضجة عظيمة، وأصوات غير أصوات بني آدم، فطلع من كشف خبرهم فوجدهم وحوش واقفين يطلبوا من الله تعالى مع الناس، فسبحان الرزّاق ذو القوّة المتين! وفي الحديث: «**لولا مَشَايِخٌ رُكَّعٌ، وأطْفَالٌ رُضَّعٌ، وَدَوَابٌّ رُتَّعٌ، لَصَبَّ عليكم البلاءَ صَبّاً**»[1].

---

(١) لم يرد هذا الحديث بهذه الصيغة.

نكتة في المعنى

قال رجل من عمّال السلطان في ناحية قهستان: كنت إذا حجّيت أمضي على طريق رباط، وكان فيه رجل صيّاد فكان يضيفني إذا عبرت عليه لحم الصيد، فاتّفق أنّي حجيت في بعض السنين وعبرت عليه على عادتي فلم يضيفني على عادته، فسألته عن ذلك فقال: اتفق لي قضية عجيبة فتركت الصيد لأجلها، فقلت له، أخبرني بها.

قال: نعم أعلم أنّي خرجت يوماً في طلب الصيد ونصبت الشبكة على مورد الوحوش، وقعدت في طلب الصيد فلما حمي النهار جاء ظبي، وأراد أن يشرب فلمّا نظر إلى الشبكة نفر عن الماء ورجع [٢١٥ب]، فلمّا كان ثاني يوم جاء وهو عطشان فلمّا نظر إلى الشبكة نفر عن الماء ورجع.

فلمّا كان اليوم الثالث جاء، وقد قلّت همّته من العطش، فوقف على مورد الماء ودموعه تحدر على وجهه وهو لم يراني، ثم إنّه رفع رأسه إلى السماء ساعة فما ردَّه حتّى غيّمت السماء من ساعتها، وأرعدت، وأبرقت حتّى كدت أنا أموت من الفزع، ومطرت حتّى شرب الظبي من بين يديه حتّى روي، ثم راح وهو فرحان، فلّما شاهدت هذا الأمر من الظبيّ، وأن الله تعالى قد تقبل دعاه تبت إلى الله تعالى عن الصيد، فتعجبت من هذه الحكاية غاية العجب. قال صاحب الكلام: ومثل هذه الحكاية كثير.

نكتة في المعنى

قد ذكر المعلّم الحافظ اليغموري، رحمه الله تعالى، قال: لما حاصر صاحب الموصل قلعة جعبر، وكان صاحبها عزّ الدولة، عدم الماء من عندهم، فأرسل رسوله إلى صاحب الموصل يبذل له مال عظيم على أنّه يرحل عنه، فلمّا نزل رسول عزّ الدولة عن فرسه عمد إلى شوربة الرزّ فشرب منها، فلمّا نظر صاحب الموصل هذا قال: ما فعل هذا الفرس [٢١٦أ] هذا الأمر إلا، وما بقي عندهم ماء، وكان كما قال ورد الرسول خائباً.

قال:، وكان في القلعة بقرة وحش فلمّا أجهدها العطش صعدت على شرافة من القلعة ورفعت رأسها إلى السماء وصاحت صيحة عظيمة، فما نزلت من مكانها حتّى

أرسل الله سبحانه سحابةً على القلعة ومطرت عليهم، حتّى شربوا من تحت أرجلهم وامتلت أماكنهم، وقتل صاحب الموصل أقرب من كان عنده ورحل الجيش عنهم.

فانظر يا أخي هذه الوحوش طلبت من الله تعالى فلم يخيبها، وأغاثها، اللّهم لا تخيبنا من رحمتك، يا أرحم الراحمين، وأغثنا، إنّك على كلّ شيء قدير.

وقد استسقى بعده ولده سليمان، وجمع الأنس، والجن، والطير، والوحش وخرج بهم يطلب من الله تعالى. وقيل: كان طول عسكره مائة فرسخ خمسة وعشرين بريد، فلمّا وصل إلى الصحراء وجد نملةً سبقت الناس كلّهم واقفة تدعو إلى الله تعالى فسمعها سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ [٢١٦ب]، وهي تقول: (اللهم أنا من خلقك وليس لنا غناً عن سقياك ورزقك، إمّا أن تسقينا وترزقنا [و] إمّا تهلكنا). قال: فاستحسن سليمان دعاؤها وقال لقومه، ارجعوا فقد سقيتم بغيركم، فما رجعوا حتّى مطرت عليهم من فضل الله تعالى، وإحسانه. وقَبِلَ الله تعالى دعاء النملة فكيف يردّ عباده الموحّدين خائبين، وخزائنه ما تنفد أبداً فسبحان اللطيف الخبير.

وقد استسقى بعده عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجمع قومه وخرج بهم إلى الصحراء، فأمره الله تعالى أن لا يدعو إلا من لا عمل خطيئةً قطّ قال: فردوا كلّهم ولم يَبْقَ غير عيسى، ورجل أعور، فقال عيسى: ما بهم كلهم ردّوا ؟ قال له الرجل الأعور: يا نبي الله إنّ بني آدم مركّبون على الذنوب، والخطايا وليسوا معصومين، ومن هو الذي لا يقع منه ذنب في عمره ؟ فقال له عيسى: ما بك أنت واقف ؟ قال: أنا لم أذنب قطّ، ولا عصيت الله تعالى قط، فقال له عيسى: ما بعينك، هكذا هذا الذي بها خلقَه أم حادث حدث لها؟ قال: يا نبي الله نظرت إلى ساق امرأة فَقَلَعْتُها. فتعجّب منه عيسى، وقال له: أنت أحقّ [٢١٧أ] أن تدعو الله تعالى، وأنا أقول على دعائك آمين.

قال: فرفع الرجل يديه وقال: اللهم أنت خلقتنا، وقد علمت ما نفعل من قبل أن تخلقنا، فما منعك ذاك أن لا تخلقنا، فكما خلقتنا وتكفّلت بأرزاقنا فأرسل السماء علينا مدراراً يا ربّ العالمين! قال: فما ردّ الرجل يديه حتّى مطرت عليهم.

وقد استسقى بعده عبد المطّلب، قال ابن المقفع: إنّ بلاد قيس قحطت في بعض السنين إلى أن هلكوا هم ودوابّهم فاجتمعوا للمشورة في بعضهم بعض، فقالت فرقة منهم، ننزل إلى وادي تميم، فقال بعضهم: إنّ عدّة تميمٍ كثيرة ولن يفضل عنهم شيء، فقال بعضهم: يا معشر قيس إنكم قد أصبحتم في أمر عظيم.

وقد بلغنا أن سيّد البطحاء عبد المطّلب بن هاشم استسقى بقومه فسقى، اجعلوا قصدكم إليه واعتمادكم عليه أنجح لكم، وأقرب، فقالوا: نعم ما رأيت، فارتحلت قيس حتّى أتوا عبد المطلب فسلّموا عليه وعظّموه فقال لهم: أفلحت الوجوه، ما الذي جاء بكم؟ فقالوا: يا أبا الحارث! نحن ذو رحمك، أصابنا سنة [٢١٧ب] مجدبة، أفقرت الغنّي، وأهزلت السمين.

وقد بلغنا خبرك وبان لنا أثرك فاشفع لنا إلى من شفعك. فقال: حبّاً وكرامة يا قوم، أليس سيدّنا كريم، وإلهنا عظيم يجيب الداعي، ويكشف الهمّ؟ قالوا: بلى قال: موعدكم غداً جبل عرفات. قال: فلمّا كان من الغد طلع عبد المطّلب في قومه وسائر طوائف العرب، ثم تقدم فقال: اللهم رب البرق الخاطف، والرعد القاصف، والريح العاصف، مالك الرقاب، ومثير السحاب، ومسبب الأسباب، هذه مضر خير البشر قد شعثت شعورها، وأحدبت ظهورها وغارت عيونها، ويبست جلودها.

وقد جاؤا، وأناخوا ببابك يشكون سوء حالهم وشدّة زمانهم، وقد خلّفوا نساء ظلعاء، وأطفال رضعاء، وبهائم رتعاء، اللّهم أغثهم بغيث منك يضحك أرضهم، ويملأ ضرعهم، ويذهب ضرّهم. قال: فما فرغ من دعائه حتّى طلعت سحابة دكناء لها دَوِيٌّ، فقال عبد المطلب: هذا، والله أوان خروجك يا معشر قيس، ارجعوا فقد سقيتم، فرجعوا، وقد كثرت المياه واخضرّت [٢١٨أ] الأرض.

قال بعضهم: لمّا مات عبد المطلب زارت قيس قبره، وأقاموا عليه ثلاثة أيّام ينحرون البُدن على قبره.

وقد استسقى النبي (ﷺ)، نبّي هذه الأمة، وكاشف الغمة (ﷺ)، عن عائشة، رضي

الله عنها، قالت: شكوا الناس إلى رسول الله (ﷺ)، قلة المطر، فأمر بمنبر فوضع في المصلّى، ووعد الناس يوماً يخرجون فيه، وخرج رسول الله (ﷺ)، حين بدأ حاجب الشمس فقعد على المنبر (ﷺ)، فكبّر وحمد الله عزَّ وجل، ثم قال: «**إنّكم شكوتم جدب دياركم واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله سبحانه وتعالى أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم**(1)».

ثمّ قال: «**الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوةً وبلاغاً إلى حينٍ**».

ثمّ رفع يديه فلم يزل في الرفع حتّى بدا بياض إبطيه، ثم حوّل إلى [٢١٨ب] الناس ظهر وقلب رداءه، أو حوّله وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس، ونزل فصلّى ركعتين فأنشأ الله تعالى سحابة فأرعدت، وأبرقت، ثم مطرت بإذن الله تعالى، فلم يأت المسجد حتّى سالت الأودية، وأسرعوا الناس إلى بيوتهم، فضحك (ﷺ)، حتّى بدت نواجذه وقال: «**أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأنّي عبد الله ورسوله**».

هكذا ذكره النواوي رحمه الله تعالى.

وعن جابر، (رضي الله عنه) قال: أتت النبي (ﷺ)، بواكي فقال: «**اللهم إِسقنا غيثاً مريئاً مريعاً، نافعاً غير ضارٍ، عاجلاً غير آجل**(2)».

فأطبقت السماء وروينا.

وقال الشافعي، رحمه الله عليه: وليكن من دعائهم: الله أمرتنا بدعائك، ووعدتنا إجابتك، وقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا، اللهم أُمْنُنْ علينا بمغفرة ما قارفنا،

---

(١) ورد الحديث في: سنن أبي داود ١١٧٣، السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٤٩، مستدرك الحاكم ١/ ٣٢٨، مشكاة المصابيح للتبريزي ١٥٠٨، إرواء الغليل للألباني ٣/ ١٣٦، كنز العمال للمتقي الهندي ١٥٢٨، الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٤.

(٢) ورد الحديث في: مصنف عبد الرزاق ٤٩٠٨، جمع الجوامع للسيوطي ٩٩٦٢.

وإجابتك سقائنا، وسعة أرزاقنا، ويدعوا المؤمنين، والمؤمنات، ويصلّوا على النبي (ﷺ)، ويخطب الإمام في الاستسقاء خطبتين كما يخطب في صلاة العيد [٢١٩أ]، يكبّر الله تعالى فيها، ويحمده، ويصلّي على النبي (ﷺ)، ويكثر فيها من الاستغفار حتى يكون أكثر كلامه.

وقد استسقى بعد النبي (ﷺ)، عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أمير المؤمنين عام الرمادة، وخرج بالناس إلى المصلّى وفعل كما فعل النبي (ﷺ)، وكان أكثر دعائه الاستغفار، وكان يكثر من قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝﴾ [نوح: ١٠- ١١] الآية.

واستسقى بعمّ النبي (ﷺ)، العبّاس وقال في دعائه: اللهّم إنّا كنّا نتوسل إليك بنبينا محمّد (ﷺ)، فتسقنا، وإنّا نتوسّل إليه بعم نبينا (ﷺ)، فاسقنا. قال: فَسُقوا في الحال بفضل الله تعالى ورحمته.

وقد استسقى بعده معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، وقد أتت عليهم سنة مجدبة، فخرج بالناس إلى المصلّى وفعل كما ذكرنا واستسقى بالأسود بن زمعة فسقوا من فضل الله.

نكتة:

قد ذكر الشيخ جمال الدين أبي عبد الله محّمد صاحب كتاب (كشف الكروب في أخبار [٢١٩ب] بني أيوب) أنّه تواقعت الإفرنج، والمسلمين بأطراف الشام في شهر المحرّم سنة تسع وسبعين وخمسمائة قال: جاءت الإفرنج إلى نواحي الدارون، فنهبوا وشعثوا فخرجت إليهم المسلمين فسبقوا الإفرنج ونزلوا على الماء وحالوا بين المسلمين وبينه، فجاؤوا المسلمون وهم عطاشى وكادوا أن يهلكوا من العطش، فوجدوا الفرنج قد سبقوهم إلى الماء.

قال: فعاينوا الموت ودعوا إلى الله تعالى بنيةٍ صادقةٍ. قال: فأنشأ الله تعالى سحابة بلطفه وكرمه على المسلمين فمطرت عليهم حتى شربوا من تحت أرجلهم، وشربت

خيولهم ودوابهم، وردت نفوسهم إليهم، وكان زمان القيظ. فسبحان اللطيف الخبير، ثم إنّ المسلمين حملوا على الإفرنج فكسروهم وغنموا منهم شيء كثير، وردوا منصورين. فانظر يا أخي إلى هذه النكتة ما أعجبها، وأحسنها!

نكتة في المعنى

من كرامات الأولياء على الله تعالى أنهّم مهما سألوه أعطاهم فإنّهم كما قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣]. [٢٢٠أ] رضي الله عنهم، وارضَ عنّا بهم.

سنذكر صاحب (مرآة الزمان) منهم العبادي الواعظ صاحب البراهين الهائلة، والكرامات، وكان يخدمه رجل اسمه منصور قال: جاء إلى الشيخ في بعض الأيام رجل ليتوب على يديه. قال له الشيخ: قف مكانك حتّى يطهرك ماء المطر، ولم يكن في السماء قطعة غيم، قال: فارتفعت سحابة في الحال وانتشرت ومطرت على الرجل حتّى اغتسل منها.

فانظر إلى نيّة هذين الاثنين ما أحسنها، وتوفّي الشيخ العبادي، رحمه الله تعالى، في سنة أربع وتسعين، وأربعمائة.

وقد استسقى الإمام أحمد بن حنبل (رضي الله عنه)، وخرج بالناس إلى الصحراء كما ذكرنا، ودعوا إلى الله تعالى فاستجاب لهم ومطروا في الحال ببركة الإمام أحمد (رضي الله عنه).

وقيل في سنة ست وتسعين ومائتين مطرت ببغداد في أول السنة مطراً كثيراً، وما خرجت السنة حتى خرجوا واستسقوا من قلّة المطر في أيام أمير المؤمنين المقتدر [٢٢٠ب] بالله وهذا عجيب.

وقد استسقى في هذا القرن بالناس قاضي القضاة نجم الدين أحمد بن صَصْرى[١] في أيّام تنكز، وخرج بالناس إلى المصّلى على عادة الناس كما ذكرنا، واستسقى بالشيخ تقي

---

(١) في الأصل صرصري وهو مشهور في كتب التراجم.

الدين ابن تيمية، وقال بعضهم: بنائبه الداراني، وقيل بهما وهو الأصح. فإنّ هذين الرجلين كانا غايةً في ذلك الزمان رحمهم الله تعالى. وسقوا من فضل الله تعالى ولم يعد أحد يستسقي في دمشق إلى هذه السنة المباركة.

وقد ذكرنا هذا الفصل كما ينبغي حتّى يعرف من نظر في هذا الكتاب وغيره أنّ الأمور في ذلك قديمةً، فتارةً يسقوا في الحال وتارةً لم يسقوا، في الحال وتارةً لم يسقوا، والربّ، سبحانه وتعالى، هو الفعال لما يريد، وأنّه يرزق المؤمن، والكافر، والطير، والوحش، وقد تكفّل بأرزاقهم، يرزق الدود في الحجر الجلمود، رزق الله لكلّ مخلوق

نكتة في المعنى

قيل إنّ سليمان عليه السلام، كان يوماً جالساً على حافة البحر، وإذا بنملةٍ في فمها حشيشة خضراء، فجاءت إلى حافة البحر، فلمّا قربت منه وثب إليها من البحر ضفدع فطلعت على ظهره، فأخذها الضفدع، ونزل بها في البحر وسليمان ينظر إليهما، وقد تعجّب منهما [٢٢١أ]، فغابا ساعةً، ثم طلع الضفدع، والنملة على ظهره وليس في فمها شيء، فوثب بها إلى البرّ فنزلت عنه ورجع الضفدع إلى البحر. فقام إليها سليمان عليه السلام، وقال لها: أيّها النملة، قفي فقد رأيت منكما أمراً عجيباً.

قالت: وما هو يا نبيّ الله ؟ قال: رأيتك حين جيتي ومعك حشيشةً خضراء أطلع إليك الضفدع فركبتي على ظهره فأخذك، ونزل في البحر وغاب ساعةً ورجعتي وليس معك شيء من الحشيشة الخضراء ورجع الضفدع إلى البحر.

قالت: نعم يا نبيّ الله، اعلم أنّ الله تعالى خلق في سفل هذا البحر صخرة عظيمة وفي وسطها دودة، فأنا أحمل إليها رزقها في كل يوم إلى هذا المكان، ثم يطلع هذا الضفدع يحملني، وينزل بي إلى تلك الصخرة فتخرج الدودة منها تأخذ ما جبت لها وترد إلى مكانها، وسمعت منها شيء عجيب تقوله، قال: ما هو ؟ قال: تقول سبحان الذي خلقني، وفي البحر صيرني، ومن الرزق [٢٢١ب] لم ينسني، اللهم كما لم تنساني من الرزق لا تنسى أمة محمدٍ من رحمتك يا أرحم الراحمين. قال: فتعجب سليمان من

كلامها، صلوات الله وسلامه عليه.

فانظر يا أخي إلى هذه الدودة على ضعفها في مثل هذا الموضع، والرب ـ سبحانه وتعالى ـ لم ينساها، ويرزقها، فينبغي على الإنسان أن يتكل على الله تعالى في أموره كلها، ولا يتعرّض على الله تعالى فيما ليس له به علم، فيحصل له الخير في الدنيا، والآخرة، فإن الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وكفى بهذه آية موعظة في مثل هذا الموضع، والسلام.

نكتة في المعنى

قيل إنّ رجل كان ينظر قمحاً، وإذا بزنبور يجيء كل يوم إلى ذلك القمح يأخذ منه قمحة بعد قمحةٍ، ويذهب مراراً. فقال الرجل في نفسه: هذا عجيب، زنبور يأكل قمح، لا بد لهذا الزنبور شأن عظيم، ولا بد لي أن أنظر إلى أين يتوجه بالقمح.

فلمّا جاء الزنبور على عادته أخذ قمحةً وذهب بها فتبعه الرجل مسرعاً معه حتّى جاء إلى [٢٢٢أ] مكان فيه بخش، فلمّا قرب منه، وإذا بعصفور أعمى قد أخرج رأسه من ذلك المكان وفتح فمه فحطّ الزنبور القمحة في فمه وردّ ليأخذ غيرها.

فانظر يا أخي إلى هذا الأمر الذي يذهل العقول في هذا المعنى، وقد صدق قول القائل (ما شق الأشداق إلا، ويأتيها بالأرزاق).

نكتة في المعنى

قيل إنّ في زمان الملك الناصر محمّد بن قلاون كان له بريدي شيخ يروح له في أشغاله إلى مهمّاته إلى مهنّا ملك العرب. فأحكى البريدي قال: رأيت، وأنا عند مهنا، جرت نكتة عجيبة، وهي أنّي كنت عنده يوماً جالساً، وأنا أتحدث، أنا وهو، وإذا عبد قد جاء إليه وقال له، يا أمير، لك البشارة ولدت فرسك الفلانية.

وكانت عنده عزيزة ففرح بها، وإذا عبد آخر قد جاء وقال له، ما أظن هذا المهر مبارك على أمه، فقال له: لأي شيء؟ قال: ما في ثديها، ولا قطرة لبن، فقال له مهنا: لا

يكون أصم يعني ما له فم، قال: ما أعرف، ثم إنه غاب ساعةً وجاء وقال له، صدقت يا سيدي المهر أصم، فتعجبت منه كيف علم ذلك، قال: (فقلت له، يا أمير من أين عرف إنّه أصم ؟ فقال: من قول القاتل «ما شقّ الأشداق إلا، ويأتها بالأرزاق». فلمّا قال العبد: ما في بزها، ولا قطرة لبن، قلت في نفسي: لو كان له فم كان في بزها لبن. فتعجب من معرفته غاية العجب، وأحكيتها للملك الناصر فطرب لها، تمّ هذا الفصل.

هطول الأمطار

ثمّ نعود إلى كلامنا، ثم استهلّ شهر رجب الفرد من السنة المباركة، وفي أوّل الشهر المذكور وقع في بلاد الزبداني وجبل الثلج إلى حوران، مطر كثير وثلج، ولم يقع على غوطة دمشق منه شيء، وحصل عقيب هذا هواء عظيم بارد، وبقيت الناس خائفين على الشجر منه من السقعة إلى يوم الاثنين ثالث الشهر المذكور أصبحت غالب غوطة دمشق مسقوعة، خاصّة الأرض التحتانية، فإنّ جميع ضياعها احترقت فاكهتهم كلّها، ولم يسلم لهم إلا النادر من جميع الفواكه، وسقع الزرع الذي كان قد أسبل كلّه إلى المرج.

وقد ذكر لي رجل عاقل جاء من بلاد حلب [٢٢٣أ] قال: سقعت غالب فواكه حلب، ووصلت السقعة إلى الباب، والبزاعة عقيب ذلك الهواء فكانت طامة عامّة.

ووصلت السقعة أيضاً إلى بعلبك، والزبداني، وإلى بلاد صفد، وتلفت الكروم، والزرع وغلا الدبس حتى بيع[1] بمائتين وثلاثين وخمسين، والزبيب من مائتين إلى ثلاثمائة، ولم يسمع أحد بمثل هذا في هذا الزمان. وعدمت الناس أشياء من هذه السقعة، لكن الأرض الفوقانية مثل المزّة، والربوة، والنيرب، وأرض الصالحية، وكل ما هو فرق نهر ثورى فإنّه ـ بحمد الله تعالى- كان قليل السقعة وذلك لطف من الله تعالى وموعظة لعباده، فسبحان الفعال لما يريد.

ويبس للناس مغلّ قمح وشعير كثير في غوطة دمشق، وفي غيرها لم يحصل له ماء

(١) في الأصل: بقي لا معنى لها.

يشرب، والمطر قليل فييس، وبعض الناس رعوه بالدواب فإنّه تلف من العطش، وهذا شيء لم يرد أحد مثله.

وذكر أكثر الشيوخ أنّهم لم يروا في دمشق أبداً زرع يبس إلا في هذه السنة، وخرج شهر آذار ونيسان ولم تمطر فيه على دمشق وبلادها [٢٢٣ب]، ولا ساعة واحدة مع قلّة الماء الذي في النهر، فلهذا تلفت غالب مغلّات الناس.

ولم ينظر أحد في هذا الزمان مثل قلّة الماء، والمطر في هذه السنة المذكورة، وبقوا الناس حائرين، ذهبت أرزاقهم، وأموالهم، وما ذاك إلا لنحس نيّاتهم، وقلّة أماناتهم، وكثرة خياناتهم، جعل الله ذلك موعظة لهم حتّى يعتبروا، ويتوبوا، ويردّوا عن ما هم فيه من الفواحش، وإلا يحلّ بهم ما هو أعظم من ذلك كلّه، وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥] الآية اللهم أصلح أحوال المسلمين!

وفي عشرين الشهر المذكور دار المحمل على عادته، داره نائب القلعة، ونائب الغيبة حاجب الحجّاب، فإنّ النائب كان في الغور.

وفي يوم الاثنين رابع عشرين الشهر دخل نائب الشام من الغور، وأشعلوا له الشمع على عادة النّواب، ودخل إلى دار السعادة.

عقاب المجرمين لقتل ابن النشو

وفي يوم السبت تاسع عشرين الشهر جلس النائب من بكرة في دار السعادة [٢٢٤أ] وطلب المحابيس الذين حبسوا بسبب ابن النشو السمسار الذين مسكهم حاجب الحجّاب في غيبة النائب، مثل العبد الذي قال إنّه قتله، والذي قطع رأسه، والذي جرّه، والذي أحرقه، والذين نهبوا بيته، وجماعة الذين نفذ فيهم القضاء، والقدر، فكان عدتهم ثلاثة وثلاثون رجل، ومات منهم في الحبس الصبي الذي ذكرناه أنه أول من قام ورجمه يوم الاستسقاء، فلمّا أحضروهم إلى عند النائب، وقلبه عليهم ملآن، فإنه صعب عليه قتل ابن النشو كثير، ووقف ابنه، وأخوه وشكوا عليهم، وأكثروا البكاء، والصياح قدام النائب.

فأمر النائب بتسميرهم كلّهم وتوسيطهم، فشفع كاتب السر في أربعة منهم وهم أعيانهم من أرباب المال فرجعوا بالأربعة إلى الحبس وسمّروا الباقي كلّهم وهم سوقة مُعَتَّرين[1] مجمعين، فعند ذلك خرجوا بهم في جنازير إلى أن أحضروهم إلى عند المسجد جوار تربة أرغون شاه فحبسوهم فيه وجابوا في [٢٢٤ب] الحال الجمال، والخشب، والمسامير، وعملوا لهم اللعب، وركبت الترك مقلدين بالسيوف أكثر من خمسمائة مملوك خوفاً عليهم من العوامّ، وأما تحت القلعة، فقد امتلأت من الناس المتفرّجين وغيرهم.

وأما أهل المسمرين، فإنهم حفاة، مهتكين، يبكوا على أهلهم، والناس تبكي لبكائهم، وكان يوم غضب اللهم لا تغضب علينا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا! فعند ذلك شفع شيخ القبة في رجل خيّاط منهم فأخرجوه من المسجد وبعثوه إلى الحبس، لكن تقضى ما كتب عليه ورأى الموت بعينه، ثم إنّهم أخرجوهم وسمّروهم وعدتهم ثمانية وعشرين رجل، ودارت الترك حولهم، ووصلوا بهم إلى باب الجابية، فوسّطوا منهم خمسة عند دكّانه، وخمسة عند الحمّام الذي أخربوه، وفي حقيقة الأمر أنّهم كانوا قد أسّوا فيما عملوه في يوم الاستسقاء، فإنّهم قتلوه بأيديهم، وجرّوه، وأحرقوه، وخربوا أملاكه، ونهبوا دياره، وسبوا حريمه، ولم يكن يجب عليه شيء من ذلك الذي [٢٢٥أ] فعلوه كلّه، ولم يحسبوا عواقب الأمور، وكيف يحسبوا، وقد جعلهم الله من أهل القبور، وقد نفذ فيهم حكم العزيز الغفور، فأنشد لسان حالهم يقول شعراً: [الرمل]

هَـذهُ الـدَّارُ سَـكَنَهَا قَبْلَنَـا عُصْبَةٌ راحُوا وَخلُّوهـا لَنَـا

ثُـمَّ تَفْنِيَنَـا وتَبْقَـى بَعْـدَنَا لَيْسَـتِ الـدُّنْيَا لِحَـيٍّ وَطَنَـا

ثمّ إنّهم رَدّوا الباقي إلى تحت القلعة ولم يُدوِرّوا بهم المدينة، وكان في ذلك خير عظيم، ثم إنّهم نزّلوهم إلى تحت القلعة حتّى يُوسّطوهم فأنشد لسان حال بعضهم يقول شعراً: [الكامل]

---

(١) معترين: من أصحاب الكدية الفقراء، والكلمة عامية.

قَـــدِّمْ لِنَفْســـــكَ صَـــالِحاً مَـــا دُمْـــتَ مَالِـــكَ مَالِـــكْ
مِــــنْ قَبْـــلِ أَنْ تَتَفَـــانَى وَلَـــونُ حَالِـــك حَالِـــكْ
وَلَسْـــتَ تَعلَــمُ حَقَّــاً أيّ المَسَــالِك سَــالكْ
إمَّـــا الجَنَّـــةِ عَـــدْنٍ أَوْ سَـــلَّموهُ لمِالِـــكْ

ثمّ [٢٢٥ب] إنّهم وسّطوهم وبكت الناس عليهم، وكان يوماً مشهوداً، وخافت العوامّ لمّا رّأوا ما حلّ بأصحابهم، والسلام.

إهمال الحكّام بلاء الناس

ثمّ استهلّ شهر شعبان المبارك وفي أوّل هذا الشهر عقيب هذه الأمور كلّها قلّ القمح من المدينة كثير حتّى أبيعت الغرارة بثلاثمائة وخمسين، وأربع مائة ولم يوجد، والشعير بمائتين وكسر، ويشحط الخبز في المدينة على الناس كثير جداً، وبقيت الناس على الأفران يتزاحموا صفوف خلف بعضهم بعض من المطلع إلى المغيب، وهو عجين أسود، كلّ سبع أواق بدرهم.

وكثير من الناس ما يحصل له خبز، وبقي الرجل يقف نصف يوم حتى يحصل له خبز، يبطل عن شغله بأكثر من درهمين.

وهكذا كان الغلاء في حلب، إنباعَ عندهم في الشهر المذكور بثلاثة ونصف الرطل، وفي حماة، وحمص، وطرابلس. وبقيت الناس في شدة عظيمة، وكل شيء يؤكل غالي، اللحم بأربعة ونصف، وعين الفاكهة قليل كثير بسبب السقعة، وغالب الضياع ما زرعوا بطيخ، ولا خيار، من قلّة الماء، والناس منتظرين الفرج من الله تعالى ومع ذلك الحكّام لم ينظروا في مصالح الناس إلا [٢٢٦أ] في مصالحهم، ولم يلتفتوا إلى فقير، ولا إلى مسكين فيا لله العجب من ملوك هذا الزمان، كيف لا يتذكروا الآخرة، لكن شغلتهم الدنيا بحبّها، وأدهشتهم، وركنوا إليها وهي دار الغرور، وكم قد أهلكت من القرون، وما هي، والله إلا كما قال فيها بعضهم حيث يقول: [الطويل]

وَتُبـدِي لَنَـا الـدُّنيَا غُـرُوراً وبَعضُـنَا لِـبَعْضٍ عَلَيهَـا لِلشَّـقَاوَةِ نَحْسُـدُ
ولاَ فَرحَـةٌ فِيهَـا لَنَـا مُسْـتَمرةٌ وَلكِـن إذَا غَـرَّتْ وَسَرَّتْ تُنْكِـدُ
وَبَعـدَ الهَنَا تَرمِيكَ في البُؤسِ، والعَنَا وَتَغـدُرُ يَـا مِسْكِين أيضـاً وَتُفْسِـدُ
سَيَفنوا بَنُوا الـدُّنيَا، ويَخْرُبُ مَـا بَنَوْا ومَـا عَمَّـرُوا فِيهَـا المُلـوكُ وَشَـيَّدُوا
وَمَن عَـاشَ فِيهَـا مَـاتَ عَنهَـا بِـرغْمِهِ وَمَـا، ثـم إلا الله، والكُـلُّ يَنفَـدُ
فَيَـا أيُّهَـا النَّـاسُ اسـتَعِدُّوا وَقَـدِمُوا لأنْفُسِـكُم دَاراً مِـنَ الخَـيرِ تَسْـعُدوا
وَلاَ تَترُكُـوا أَشْيَاَ أُمِـرتُم بِفِعلِـهَا فَتَشـقَوا ولكـنِ قَـارِبُوا، ثـم سَـدِّدوُا
وَلاَ تَطْلبُـوُا طُـولَ الحيَـاةِ لِرَغبـةٍ وفِي هَـذِهِ الـدُّنيَا الدّنِيـةِ فَازْهَـدُوا
فَـايُّ حَيَـاةٍ تُسْـتَلَذُّ وَعيشَـةٍ تَطِيـبُ، وقـد مَـاتَ النبِـي مُحَمَّـدُ

حكاية:

قال محمد بن كعب: دخل على هارون الرشيد بعض المشايخ فوعظه فقال له: إن أردت النجاة فوعظه، فقال له: إن أردت النجاة من عذاب الله تعالى غداً، فليكن كبير المسلمين لك أباً، وأوسطهم لك أخاً، وأصغرهم لك ولداً، وأن تحبّ لهم ما تحبّ لنفسك، قال: فبكى هارون حتّى غمي عليه، ومع هذا كان يتصدّق في كلّ يوم بمائة دينار على الفقراء، والمساكين، وكان له معروف كثير رحمه الله تعالى.

وقد ذكر ابن الجوزي أنّ في سنة خمسٍ وتسعين وخمسمائة جاء غلاء عظيم في القاهرة حتّى أكلوا الناس فيه الموتى.، وكان فيها الحاجب لؤلؤ – رحمه الله ـ كان يتصدّق على الفقراء كلّ يوم بمبلغ أربعة وعشرين ألف رغيف خبز، هذا هو الخير، والمعروف، وما أحسن ما قال بعضهم " كان وكان" في أهل الخير: [البسيط]

مَا [٢٢٧أ] كُلُّ مَنْ نَالَ مَا تَمَنّى ذي إلا هَـدايَا تُهْـدَى لِمَـن يَشَـا الـرَّحمن

فتعلم يا أخي - وفقك الله - أن ناس أعطاهم الله تعالى الدنيا، والآخرة، وناس أحرمهم الدنيا، والآخرة، وناس آخرة بلا دنيا، وناس دنيا بلا آخرة، فلا حول، ولا قوّة إلى بالله العلي العظيم، وفي الحديث «**أنّ الرجل إذا تصدّق بدرهم في حياته خير من سبعين بعد وفاته**[1]».

لكن أين الأنفس التي تسمح في مثل هذه الأوقات بالخير؟، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

ولهذا ينبغي للإنسان إذا همّ بحسنة يبادر إليها، وإلا غلبته وبطّلتها وتستعين عليه بالشيطان، والإنسان في هذه الدنيا بين أعداء يروه، وهو لم يراهم كما قال بعضهم: [الكامل]

النَّفْسُ، والشيطّان، والدُنيا، والهوى ... كيفَ السبِيلُ وهؤلاء أَعْدَائي

وقد ذكر الأصمعي أنّه جاءَ في بلاد العراق غلاء عظيم، وكان خالد القسري أميراً عليها في زمان بني أمية، كان يقول على المنبر: إني أطعم كلّ يوم ستّة وثلاثين ألف إنسان التمر [٢٢٧ب]، والسويق، فساعدوا إخوانكم أيّها الناس!.

فانظر يا أخي إلى نفس هذا الرجل الذي سمحت بهذا الخير العظيم، وله سيرة حسنة رحمه الله تعالى.

وقال الأصمعي أيضاً: دخل على خالد القسري أعرابيّ فقال له: قد قلت فيك بيتين من الشعر، فقال له: قل! فأنشد الرجل يقول: [الطويل]

لَزِمتَ نَعَمْ حَتّى كَأنّكَ لَمْ تَكُنْ ... سَمِعتَ مِنَ الأشْيَاءِ شَيئاً سِوَى نَعَمْ

وَأنكَرتَ لا حَتّى كَأنكَ لَمْ تَكُنْ ... سَمِعتَ بِهَا فِي سَالِفِ الدهرِ، والأُمَم

قال: فأعطاه عشرين ألف درهم.

---

(١) لم يرد الحديث بهذه الصيغة في الكتب المعتمدة.

وفي هذا الشهر المذكور فتح أمير عمر بن منجك، أسعد الله تعالى ورحم سلفه، مخزن قمح أكثر من مائتي غرارة وتصدّق منه وباع الباقي لأرباب البيوت، ثلاث أكيال ونصف غرارة وغرارة ولاغير. ولم يبع منه شيء لطحّان، ولا لسمسار، وحصل للناس بذلك خير عظيم، ودعت له الناس كثير، وباعه بناقص مائة درهم كلّ غرارة عن ما يبيع الغير، وفي هذا الزمان ما رأينا أحداً سمحت نفسه بمثل هذا، وقد حصل له أجر عظيم، ومع ذلك فإنّ دمشق تحمل الغلاء [٢٢٨أ]، وما تحمل الجور، بدعوة عيسى عليه السلام لها، وكان سبب دعاه لها نكتة غريبة ذكرها صاحب كتاب (فضائل الشام).

قال: إنّ عيسى عليه السلام لّما حاصروه بني إسرائيل في دمشق في النيرب وحجبه الله تعالى منهم على صخرة عظيمة، وبقي أيام محصور على تلك الصخرة لا يأكل، ولا يشرب، فلمّا قوي عليه الجوع وعلم الله تعالى حاله أرسل عليهم النوم فنَاموا كلّهم، فنزل من على تلك الصخرة في الليل ومشى بين البساتين فوجد رغيف خبز ساقه الله تعالى إليه فأخذه، وأكله وشرب، فلمّا شبع حمّد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: اللهم يا رب العالمين لا تميت أحداً من أهل هذه البلدة بالجوع، فلهذا تحمل الغلاء ولم تحمل الجور، وقد ذكر هذه الصخرة الشيخ ابن كثير في تاريخه، وما ذكر هذه الحكاية. فانظر يا أخي إلى هؤلاء الكفرة، وما كانوا يفعلون في أنبيائهم، عليهم السلام، وقد أجاد قائل هذه الأبيات يهجو بهم النصارى حيث يقول شعراً: [الرمل]

لَعَنْ [٢٢٨ب] اللهُ النصَارَى أُمةً ... خَالَفُوا الحقَّ، وقد أخطَوْا الرَّشَدْ
نَزَّهُوا رُهبَانَهُم عَن زَوجَةٍ ... ثُمّ قَالُوا إنَّ لله وَلَدْ
فتَعَالَى اللهُ عَن مَا أشركُوا ... جَلَّ رَبّي (قُلْ هُوَ اللهُ أحَدْ)

وقد ذكر أيضاً بعضهم أنّه جاء في بلاد الهند غلاء في بعض السنين، وأبيعت كلّ حَبّة بدرهم، شيء يؤكل من الحبوب ما أعرف ما هو، والغالب غلاء تلك الذرّة، والله تعالى أعلم. هكذا ذكره صاحب (مرآة الزمان) وهذا أمر عجيب.

رزق الله لكل مخلوق

وقد ذكر أيضاً بعض الأولياء قال: جاء في بغداد غلاء عظيم حتى هلكت الناس، قال: فدخلت يوماً بين المقابر فوجدت البهلول جالس على حافة قبر وهو يحرك رجليه، فقلت له: تحرك رجليك، والناس في هذه الشدّة العظيمة من الغلاء ؟ قال: والله لا أبالي ولو أبيعت كلّ حبّة بدينار، قلت: كيف ذاك ؟ قال: أنا أعبده كما أمرني وهو يرزقني كّما وعدّني، فإنّ الله تعالى يقول في بعض الكتب: يا ابن آدم أطعني واعبدني، ولا تهتمّ بالرزق،. فقد كفيتك أمره فلا تحمل [٢٢٩أ] هم شيءٍ كفيته وَارْضَ بما يأتيك، وكن من الشاكرين.

واعلم أنّ الله تعالى خلق الأرزاق قبل أن يخلق الخلق بثمانية آلاف سنة، وما أحسن ما قال بعضهم في المعنى حيث يقول: [البسيط]

يَا طَالِبَ الرزقِ فِي الآفاق مُجتَهِداً   أَقْصِرْ عَنَاكَ فإِنَّ الرِزقَ مَقْسُومُ
الرِّزْقُ يَسْعَى إِلَى مَن لَيسَ يَطْلُبُه   وَطَالِبُ الرِّزقِ يَسعَى وهوَ مَحْرُومُ

فسبحان من يرزق الضعيف، والقوي لا إله إلا هو.

حكاية في المعنى

قيل إنّ بشر الحافي (ﷺ) قال: رأيت يوماً عُكْبُرَ الكُردي فقلت له، ما كان سبب توبتك؟ قال: كنت أقطع الطريق ومعي رجال تحت يدي فجئت يوماً إلى مكان، وقد راحوا رجالي على عادتهم، فيه ثلاث نخلات، واحدة ما عليها شيء من الثمر، واثنتان حاملات رطب، فجلست تحتهم أستريح وصرت أنظر فيهم، وإذا عصفور يحمل من الحاملات الرطب إلى التي ليس فيه شيء.

وصار ينقل على تلك الحالة مراراً [٢٢٩ب]، فقلت في نفسي: هذا عجيب، الرطب ليس هو مأكول أفراخ العصافير، ولا يزقّوه لأولادهم، وهذا العصفور ينقل إلى هذه الرطب فلا بد لهذا شأن، فقمت وطلعت في الشجرة إلى رأسها، وإذا حيّة عمياء في

مكان في رأس تلك النخلة، والعصفور ينقل الرطب إليها، ويطعمها، فلمّا أبصرت هذا الأمر تحيّرت في أمري وبكيت وقلت: سيدي، هذه حيّة أمرنا نبيك بقتلها وهي عمياء، أقمت لها هذا العصفور يأتيها برزقها، ولم تنساها، وأنت الرزّاق، وأنا عبد أقرّ بأنّك واحد أحد، رزقتني من قطع الطريق حراماً.

ثم إني كسرت سيفي، ووضعت التراب على رأسي وصحت: يا مولاي الإقالة الإقالة.، وإذا بهاتف يقول: قد أقلناك، ثم إن رفاقي أتوني وجدوني على تلك الحالة قالوا: ما بك ؟ قلت: قد كنت مهجور، وقد صالحت مولاي.

فقالوا: نحن معك. فرمينا ثيابنا، وما كان معنا كلّه وخرجنا طالبين باب الله تعالى، فما زلنا على هذه الحالة ثلاثة أيام، ونحن سكارى حيارى، فورد بنا اليوم الثالث على قريةٍ، وإذا [٢٣٠أ] امرأة عمياء تقول: بالله أفيكم عُكبر الكردي؟ قلنا: نعم. قالت: لي ثلاث ليالي أرى النبي (ﷺ) في النوم وهو يقول أعطي عكبر الكردي ما خلفه ابنك، فكان ستّين ثوباً من الخام، قال: فأخذناها واتّزرنا ببعضها، وأخذنا الباقي ودخلنا إلى البادية إلى أن وصلنا إلى مكة - شرفها الله تعالى-، وأقمنا بها.

فانظر يا أخي إلى هذه الحكاية، ما أغربها في أمر الرزق، واعلم أن الرزق مقسوم، والأجل محتوم، وأن شيء ما يدوم، والذي ينبغي على الإنسان أنّه يتكل على الله تعالى في الأمور كلّها، ولا يتعرّض على الله تعالى، وما هذا إلا تأدتباً من الله تعالى لعباده وهو اللطيف الخبير، فلا رخص الشيء.

لا يحيل الأمر إلى مخلوق بل يجعل الأمور كلّها إلى الله تعالى، وألا يقع في ذنب عظيم، فإنّ الرّب ـ سبحانه وتعالى- هو الفعال لما يريد، مرخصها وهي قفار، ومغليها وهي غزار، واعلم أن الدنيا لم تزل على [٢٣٠ب] هذه الحالة شدّة ورخاء، وفرح وحزن، وأمن وخوف، تتقلّب بأهلها ولم تدم على حاله، واعلم أنّها كما قال فيها الشاعر مركبة على هذه الثمانية خصال: [الطويل]

ثَمانِيـةٌ خُصّـت بَهـا سَـائِرُ الـوَرَى ... وَكُـل امـرىءٍ لا بـدَّ لـهُ مِـن ثَمانيَـه

سُرُورٌ وحُـــزْنٌ وَاجـــتِمَاعٌ وَفُرقَـــةٌ   وَعُسْرٌ، ويسْرٌ، ثـــم سُـــقْمٌ وَعَافِيَـــةٌ

فيا أيها الرجل انتبه من النوم، أين من شقّ الأنهار، وغرس الأشجار، وعمّر الديار؟ خرس، والله لسان دعواهم عن المقال، وانكسر علم عزّهم فزال، وأخذت أموالهم، وأعداءَهم، وزالت عنهم رجالهم، وارتحلوا بذنوب كالجبال، وأعمال في أعناقهم كالأغلال، ومحيت منهم الآثار، وإن الدنيا متاع، وإن الآخرة هي دار القرار، وأنشد لسان حالهم يقول شعراً: [الطويل]

وما حَجبتَهم يعوم[1] وَلَـو بِجَمعِهِـمِ   نَجَــائِبُهم، والصَّــافنَاتُ السَّــوَابِقُ

وَرَاحُـوا عَـنِ الأمْـوَالِ قَهْـراً وَخَلَّفُـوا   دِيَــارَهُم بــالرّغمِ مِــنهُمْ وَفَــارَقُ

واعلم [٢٣١أ] أنّ في الحديث عن النبي (ﷺ) أنه قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر». واعلم أنّ البدن إذا كان فيه الإنسان ما برح مهموم مغموم، وما للإنسان في هذه الدنيا أحسن من الصبر، والسلام.

وفي يوم الجمعة سادس الشهر وصل إلى دمشق خبر قاضي القضاة سري الدين أنّه توفي إلى رحمة الله تعالى، وصلّوا عليه في الجامع صلاة الغيبة.

وخلّف ولد ذكر، ونزل عن وظائفه لولده قبل وفاته، وكان قد راح إلى القاهرة مطلوب يسعى في القضاء فأدركه الموت، وقد جرى له كما قال الشاعر: [الطويل]

نُؤَمِّــلُ آمَــالاً ونرجُــو سَــلامَةً   فَتُــدرِكُنَا آجَالُنَــا فَنَمُــوتُ

لّما توفي قال فيه بعض الشعراء هذين البيتين: [البسيط]

سَرَى السَرِيُّ وَسَرَّ الحَاسِــدِينَ لَــهُ   هـذَا العَجِيبُ الـذّي أبصَرتُ فِي عُمري

مَضَى مِنَ الشـاَمِ يَسْعَى فِي القَضَـاء وَمَـا   دَرَى بِــأَنَّ القَضَــا يَــأتِيهِ فِي مِصرِ

وفي [٢٣١ب] يوم السبت سابع الشهر العصر جاءت زيادة في الماء مليحة، وزادت الأنهر وفرحت الناس بها كثير، وكان أكثرها في برزة من وادي معربا[1]، وكان تلك

---

(١) هكذا في الأصل: والكلمة لم أقف لها على معنى، ولعلها محرفة.

الأرض معطشة زرعها، وأشجارها، فحصل لتلك الضياع خير عظيم من ذلك المطر ولله الحمد، وبقيت إلى ثاني يوم، ورّد النهر إلى ما كان عليه وفرغت الزيادة وهذه عادة الزيادة.

حكايات عن الفيضانات

حكاية في المعنى

قد ذكر لي بعض مشايخ بعلبك عن أبيه أنّه قال له: قال: جاء سيل إلى بعلبك في سنين شيء وسبعمائة في أوّل القرن، فأخذ سور المدينة وقلعهُ من أساسه ورماه قطعةً واحدة، ودخل الماء إلى المدينة أخرب منها شيء كثير، ومات بها ناس كثير ليس لهم عدد، وأعجب ما جرى فيه إنّ ناس جالسين في بيتهم، والماء جاءهم، وكان له بنت طفلة في السرير، فلمّا رأوا ذلك وثبوا هاربين خوفاً على أنفسهم وتركوا الطفلة في السرير في البيت، فأخذهم الماء وراح ولم ينجو منهم أحد، وأما الصغيرة؟ فإن الماء حمل السرير وارتفع.

وكان في جانب [٢٣٢أ] البيت خازوق طويل فعلق السرير في الخازوق، ثم هبط الماء، وأما الحارات التي في أعالي المدينة، فإنّ الماء لم يصل إليها، فجاءوا أقارب أصحاب البيوت التي غرقت يكشفوا خبر أهلهم فدخلوا البيت الذي فيه السرير وجدوا الصغيرة في السرير معلقة تبكي، فنزلوها وربّوها وكبرت وجابت أولاد وهذا من أعجب ما يكون في الدنيا.

حكاية في المعنى

وقد ذكر أيضاً أنّ جماعة كانوا قاعدين في بيت وعندهم شيخ أعمى، والماء دخل إلى البيت فوثبوا حتى ينجوا بأنفسهم ولم يلتفتوا إلى الشيخ، فلمّا خرجوا من البيت أخذهم الماء، وأمّا الشيخ الأعمى، فإنّه لّما حسّ بالماء قام يريد الهروب، وكان في البيت دست

(١) معربا: قرية شمال دمشق بحوالي ١٠ كم على طريق منين.

كبير الذي يعمل فيه الدبس فوقع في وسطه وهو لم ينظره، وقوي الماء فساق الدست على وجه الماء فبقي كأنه في مركب حتى نقص الماء وقعد الدست على الأرض، والأعمى فيه سالم، فلمّا جاؤوا إليهم أهلهم يتفقّدوهم [٢٣٢ب] وجدوا الشيخ الأعمى في الدست جالس، والباقي ماتوا كلهم، وقد صدق الذي قال: الأجل حصين. فانظر يا أخي إلى هذه الحكايتين ما أعجبها فسبحان اللطيف الخبير.

وفاة إبراهيم الصوفي

ثمّ نعود إلى كلامنا. وفي يوم الأحد ثامن الشهر المذكور توفّي الشيخ إبراهيم الصوفي، رحمه الله تعالى، ونادوا في المدينة واجتمعت الناس في الجامع مثل يوم الجمعة، وصلي عليه بعد صلاة الظهر وطلعوا به من باب الزيارة(١) إلى باب الصغير، والنعش على رؤوس الأصابع ومن شدة الزحام في باب الزيادة كان يموت منهم خلق، ووقع للناس سراميز ومناديل كثير، وبقت الناس على بعضهم بعضاً من الجامع إلى باب الصغير، وطلعت الأربع قضاة، وكل كبير في المدينة، وفي حال خروجه من الجامع مطرت عليه مطرةً قوّية وذلك عين الرّحمَة من الله تعالى، ودفن في تربة شهاب الدين الحاجب جوار جرّاح وحصل له خير كثير بدفن الشيخ عنده في تربتة.

وقد ذكر جماعة أن الشيخ إبراهيم [٢٣٣أ] له أكثر من خمسين سنةً في الجامع يُقْرِئ القرآن لله تعالى، وقد قال رسول الله (ﷺ): «**خيركم من تعلم القرآن وعلّمه**(٢)».

وقيل: إنه قرأ القرآن أكثر من ألف إنسان اسمه محمّد، فانظر كم يكون غير محمّد قرأ عليه، وعاش من العمر أكثر من مائة سنة، والله أعلم، وكان بركة دمشق بعد السلف الصالح.

---

(١) في الأصل: الزيادة، لا معنى لها.

(٢) ورد الحديث في: منظم كتب الحديث المعتمدة مثل: صحيح البخاري ٦/ ٢٣٦، سنن أبي داود ١٤٥٢، سنن الترمذي ٢٩٠٧، مسند أحمد بن حنبل ١/ ٥٨.

حكاية:

قيل إنّ بعض الصالحين كان له جار مسرف على نفسه بالمعاصي فمات، فأبصره الرجل الصالح في النوم في مكان مليح وعليه ثياب ملاح، فقال له الرجل الصالح: يا فاسق بما نلت هذا ؟ قال له: لا تقول لأهل القرآن يا فاسق. قال: وما كنت تعرف من القرآن ؟ قال: سورة الواقعة وتبارك، فانظر يا أخي إلى هذا الرجل كيف حلّت عليه بركة هاتين السورتين، فما ظنك فيمن عمره مشغول بتلاوة القرآن، فبهذا أعطاه الله تعالى هذه المنزلة.

وقد ذكر بعض أهل العلم أَنَّ من صلَّى على مغفور له غُفِرَ لَهُ.

نكتة في المعنى

قال ابن حربويه، رحمه الله تعالى [٢٣٣ب]: رأيت السري السقطي في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ولكل من صلّى على جنازتي، فقلت له: أنا صلّيت على جنازتك. قال: فأخرج درجاً معه وصار يفتّشه فلم ير فيه اسمي، فقلت له: والله قد صلّيت عليك فانظر جيداً، فإذا هو ولقد لقي اسمي على الحاشية فقال: صدقت، فانتبهت، وأنا فرحان. وهو تصديق ما ذكرنا فإن الصالحين لهم مناقب، رحمهم الله تعالى.

ولمّا توفي الشيخ إبراهيم الصوفي رثاه الأديب الزرخوني بهذه الأبيات: [البسيط]

يَا عَيْنُ إبْكِي عَلَى مَن كَانَ ذَا وَرَعٍ ... شَيْخُ القِرَاءةِ فِي شامٍ وفِي مِصرِ
العَابِدُ الزّاهِدُ المقرِيّ ذَا وَرَعٍ ... كَنزُ الدّرايةِ بَل كنزٌ مِنَ الدُّرِ
الصُّوفِي الصَّافِي إبراهيم هيمنَا ... لَمّا قضَى نَحبَهُ في ثامِنِ الشّهرِ
قُطبُ المَعَارِفِ بُرهَانُ المَشَايخِ مَن ... لَهُ الكرامَاتُ مِن خيرٍ وَ [مِنْ] جَبْرِ
أمَا تَرى لِعُيونِ الأرضِ قَاطِبةً ... بَكَتْ عَلَيْهِ وحَتّى السُّحبُ بِالقَطرِ
بَكَتْ عَلَيهِ اليَتَامَى مِثلَ، والدِهِم ... وَقَالَ قَائِلُهم مَن ذا لَنا يُقْرِ

وَقُبَّـةُ الجَـامِعِ العليـاءُ قَـد وَهَنـتْ وَقَـصْ مِنهَـا جَنَـاحَ الطَـائِرِ الـنَسْرِ
وَكَيْفَ لا وَهوَ قُطبٌ [٢٣٤أ] فَوقَه فَلكٌ يَـدُورُ مِـن عَزمِـه فِي الجَهـرِ بـالسِّرِ
مَـنْ لِلدّيَانَـةِ مَـن للِزُّهْـدِ يَجمَعُـه فِي الجَـامِعِ الأمَـوِي اليـوَم بِـاليُسْرِ
مَـنْ ذَا يُعَلِّـمُ جُهَّـالَ الصِـغَارِ وَمَـن يُـؤَدّبُ الطِّفْـلَ بالإحْسَـانِ، والـبّرِ
قَـد كَـانَ عَبـدٌ عَظِـيمُ القَـدرِ دَعْوَتُـه مُجَابَـةٌ عِنـدَ مَـولاهُ عَـلى الأثَـرِ
فَيَـا لَـهُ مِـنْ مُصَـابٍ عَمَّنَـا حَزنـاً لكِـنْ عَلَيـهِ نَـرُوزُ الأجـرِ بالصَّـبْرِ
وَيَـا لَـهُ مِـن ضَرِيـحٍ ضَـمَّ جُثَتَـهُ فَقَـد حَـوَى فِيـه حَـبْرٌ غـاضَ كَـالبَحرِ
لا زالَ غَيـثُ السَّـما نَهْـلٌ وَابِلُـهُ عَـلَى ثَـرَاهُ لِكَـيْ يَرْوِيـه فِي القَـبرِ

وقد ذكروا مشايخ دمشق أنّ لهم أربعين سنةً لم يروا مثل جنازته فإنّ الناس احتفلوا لها عظيم غير خمس جنائز: جنازة الشيخ عماد الدين ابن كثير - رحمه الله تعالى - وتوفّي سنة أربع وسبعين وسبعمائة، وقد رثاه الشيخ جمال الدين ابن نباته هذه البيتين حيث يقول:

لِنَحْـوِكَ أَربَـابُ العُلُـومِ تَجَمَّعُـوا وَأَجْـرُوا دُموعـاً كالسَّـحَابِ غَزِيـرِ
فَلَوْ [٢٣٤ب] مَزَجُوا مَاءَ المَدَامِعِ بِالدِّمَا لَكَـانَ قَلِيـلٌ فِيـكَ يَـا ابْـنَ كَثِـيرِ

وبعده الشيخ علاء الدين ابن البنا - رحمه الله تعالى - وبعده الشيخ عبد اللطيف بن الجعبري - رحمه الله تعالى - وبعده الشيخ زين الدين القرشي، وبعده الشيخ زين الدين ابن رجب - رحمه الله تعالى - فهذا الخمسة طلعت لهم جنائز هائلة كثيرة، وأكثر الصالحين لهم كرامات، اللّهم ارحمنا بهم لأنهم كما قال فيهم الموّال:

لله أَقْـوَامٌ يَعصُـوا العَـادلَ المَقُـوتْ
وَدَمْعُهُـم مِـنْ وَرَعِهِـم يَحكـي اليَـاقُوتْ
صَـلاتُهُم فِي الـدَّيَاجِي وَقْتُهَـا مَوقُـوتْ
وَمَـا لهُـم غَـير تَسـبيح المُهَـيمنِ قُـوتْ

فهرس الآيات

البقرة

آل عمران

النساء

فهرس الأعلام والأماكن والألفاظ الحضارية والمصطلحات وأسماء الكتب...

فهارس قوافي الأشعار

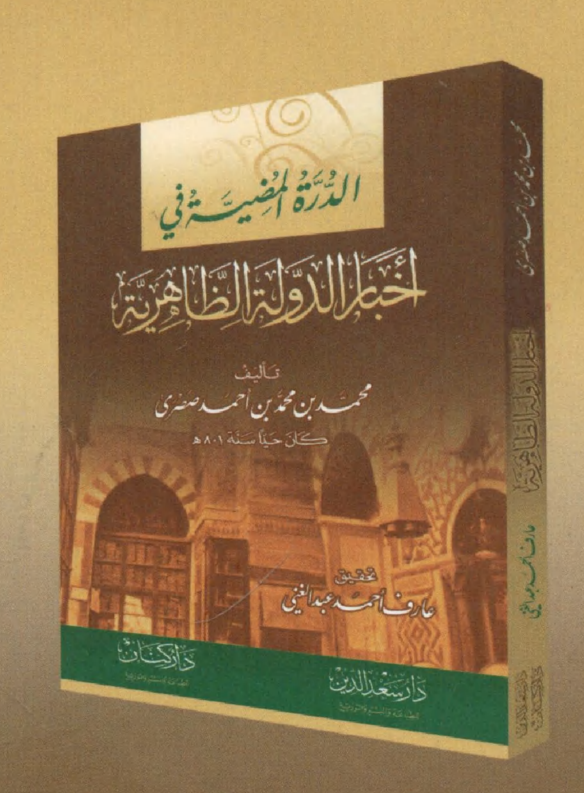
العجز	الصدر	البحر	الشاعر	الأبيات	الصفحة
أشياء	وقل لمن يدعى	البسيط	-	١	١١٧
الهباء	أعراف النجوم	الوافر	-	٢	٢٢٣
الناجب	يوم الهياج	موال	-	٤	٧٩
الأعجبا	أرأيت وادي	الكامل	ابن لؤلؤ	٢	١٧٣
الصبا	أهلاً بمقدمك	الكامل	-	٢	٢١٠
تذهبُ	أقول وقد	الطويل	-	٢	١٢٤
انقلبوا	ما الناس إلا	البسيط	علي بن عيسى	٢	٢٢٩
المشرب	يمشون تحت	الكامل	-	٢	٣٦
الرتب	ما في البرية	البسيط	شمس الدين الزرخوني	١٨	١١٠
الغرب	لك في مقام	موال	-	٤	٢٠
منحب	منطاش قد	موال	-	٤	٦٤
حبيب	وما الدهر إلا	الطويل	-	١	٨٠
تلعب	لها معانٍ	الرجز	-	٢	١٧٢
راحب	ها منزلك	موال	-	٤	٢١٠
تصويتا	وفتيةٍ من	البسيط	-	٢	١٦
أتلفت	أرى الموت	الطويل	أحمد بن بيلدمر	١	١٢٠
فنموت	نؤمل أمالاً	الطويل	-	١	٢٥٢
الجهات	علا منطاش	الوافر	-	٢	١٥٦

عندي	يا هندُ كما	موال	-	٤	٣٧
لواذا	إذا ما خانك	الهزج	-	٢	١٢٣
بالشعر	دع مدح	البسيط	شمس الدين الزرخوني	٣٣	١٧٠
مكثارا	الصمت زين	الكامل	-	٢	٦٠
نفرا	إنَّ الغزال	البسيط	-	٢	١٨٥
جهرا	أخو تقوى	الوافر	-	٢	٢١٨
القدر	أحسنت ظنك	البسيط	-	٢	٣٤
اقتدارُ	وقلعة جلق	الوافر	-	٢	٥٤
يُنتظرُ	الحمد لله زاح	البسيط	البستي	٤	٧٣
الأعاصيرُ	أقول، والقلب	البسيط	-	٢	١١٧
يصبرُ	وإذا أتتك	البسيط	-	١	١٢٣
نور	لله قد صار	البسيط	-	١٢	١٤٣
نظيرُ	يا واحد الناس	الكامل	-	٢	١٧٥
تنتصرُ	سافر على	البسيط	-	٢	١٩٢
انتظر	كرر علي	البسيط	-	١٤	١٩٥
قاهر	الحاكم العادل	السريع	ابن الشهيد	٢	٢٩
بالسمهري	الضرب شكل	الكامل	-	٢	٣٨
داري	در مع زمانك	الكامل	علاء الدين بن أيبك	٧٥	٦٦
الخبر	كانت مُساءلة	البسيط	أحمد بن سعيد الحلبي	٢	١١٨
الدري	وكاتم سر	الطويل	-	٢	١٣٢

ظلمْ	يا أيها الظالم	السريع	-	٢	١٨٨
نعم	لزمت نعم	الطويل	-	٢	٢٤٨
نداما	أهل الشام	المضارع	-	٢	١٨١
ظلامه	صلحت به	الكامل	-	٢	٢١٤
أحسنا	بي من بني	السريع	المعمار المصري	٤	١١
أكوانا	ملأ الهنا	الكامل	-	٢	١٩٤
أمانُ	وإذا السعادة	الكامل	-	١	١٥
ثعبان	احفظ لسانك	الكامل	-	٢	٥٨
الريحان	ومنازل	الكامل	ابن الوكيل	٢	٩٩
الريحان	ومنازلٍ بالنيربين	الكامل	صدر الدين بن الوكيل	٢	١٧٣
الرحمن	ما كل من نال	البسيط	-	١	٢٤٧
حَزَنِ	قد أصبحت مصر	البسيط	علاء الدين بن أيبك	٢	٧٤
عُربانِ	يا وقعة في ضمير	البسيط	علاء الدين بن أيبك	٨	١٠٧
أمان	فو أسفي	الوافر	-	٢	١٢٥
شاني	أنا في الحرب	الرمل	الأصمعي	٦	١٤٧
زين	أفدي للص	موال	-	٤	١١٢
تعنا	قل لمن يرتجي	الخفيف	-	١٤	١٨٢
لنا	هذه الديار	الرمل	-	٢	٢٤٥
القنا	إن كنتَ	الكامل	ابن سناء الملك	٤	١٩
صافيه	ما زلت أدعو	السريع	-	٢	١٤٨

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة



دمشق - شارع 29 أيار -
جادة كرجية حداد - ص.ب 3143
هاتف 2319694 - فاكس 2326380
جوال 00963 944 484915
القاهرة - جوال 002 0122 4444904
darsaadaldeen@hotmail.com
www.facebook.com/dar.saadaldeen



